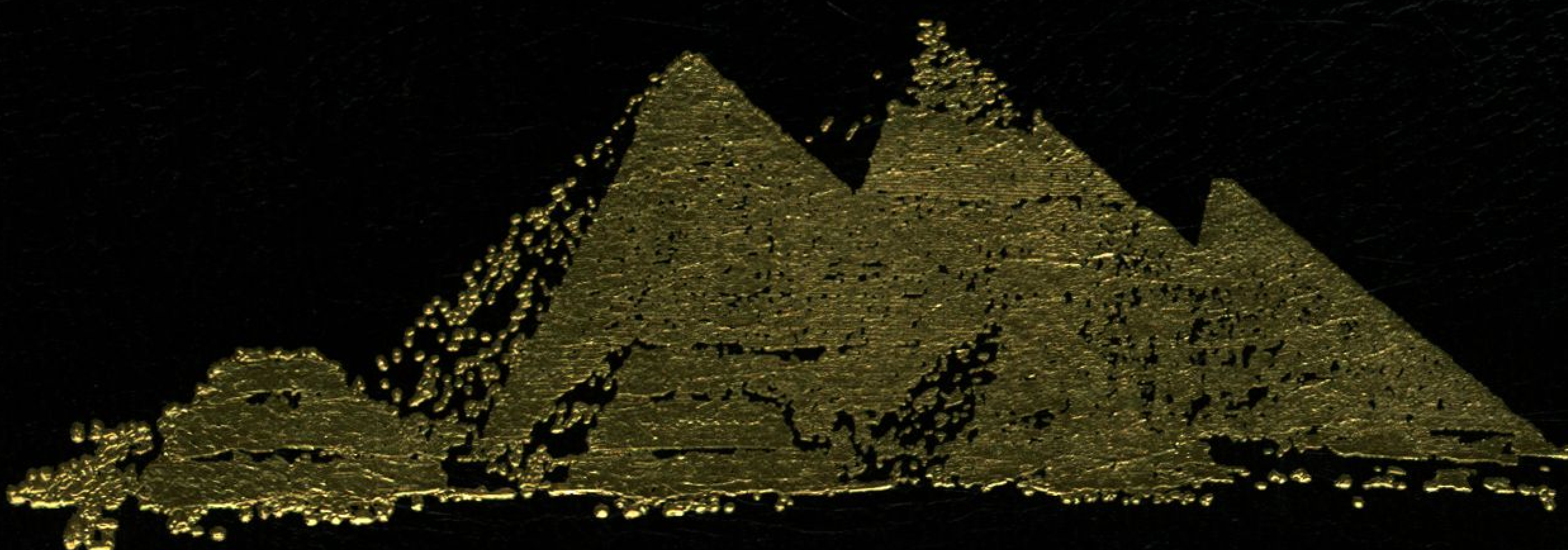
مَوْسُوعَة

جُغْرَافِيَة مِصْرَ وَتَارِيخِهَا





موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(١٢)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد الثاني عشر

عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٤ ـ

الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية ـ ١ ـ

صدمة الغرب

إعداد وتحقيق
عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة جغرافية مصر وتاريخها
اسم الكتـــــاب:	عجائب الآثار في التراجم والأخبار ـ ٤ ـ الجزء الرابع: الغزوة الفرنسية ـ ١ ـ صدمة الغرب
المؤلـــــــف:	عبد الرحمان الجبرتي
إعداد وتحقيق:	عبد العزيز جمال الدين
قياس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	١٩٦
عدد صفحات الموسوعة:	٥٧٨٤
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتـف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

تقديم

من متابعة الاجزاء الثلاثة السابقة من تاريخ الجبرتي يتضح لنا أن هناك ثلاثة عوامل ميزت النظام الاجتماعي السائد في عصره وانعكست في نظم وعلاقات توزيع الثروة في مصر في ذلك الوقت.

العامل الأول: اعتبار السلطان محتكراً لملكية كل مصادر الثروة بالبلاد، وهو المبدأ الذي سيطر بموجبه على تحصيل ثمار تلك الثروات وعلى التصرف فيها كيفما شاء، إذ كانت كيفية توزيع تلك الثمار في حد ذاتها، (وارتكاناً إلى ذلك المبدأ) حقاً من حقوق السلطان وامتيازاً خاصاً له اداره من خلال وكلائه في الجهاز الإداري في مصر.

أما العامل الثاني: فكان أنه ترتيباً على ملكية السلطان لمصادر الثروة وإدارته لها من خلال جهازه الحاكم في مصر، فقد استقرت السيطرة الفعلية على تحصيل ثمار تلك الثروات وتوزيعها في يد ذلك الجهاز الحاكم في الولاية، وذلك ما حدث حين انفرد أمراء المماليك بالسيطرة الفعلية في أوقات متباعدة من القرن الثامن عشر ثم صارت لهم الهيمنة الكاملة في اخره.

وقد كفل تركيب الجهاز الحاكم استتباب السيطرة العثمانية على مصر طالما بقي التوازن قائما بين القوى الثلاث المكونة له (الباشا، أمراء المماليك، الأغوات). ونلاحظ أن ذلك التكتيك القائم على التركيز الشديد للسلطة في يد أداة حاكمة، هي نفسها مكونة من أقطاب متوازنة القوة، والذي اتبعه العثمانيون بغرض إحكام السيطرة على مصادر الثروة مع استتباب السلطة لهم، قد أفرز أحيانا أوضاعاً تناقض ذلك الهدف الاستراتيجي المرام، فكان مصدر تهديد أساسي للسيطرة العثمانية على مصر حين يختل التوازن القائم بين أقطاب السلطة، ويميل ميزان القوة لصالح إحداها في أي وقت من الأوقات، فتنفرد بالسلطة المطلقة على ثروات البلاد بمنأى عن التعرض للبطش العثماني العاجل والمباشر.

كذلك كان العامل الثالث: استطرادا منطقياً لمبدأ ملكية السلطان لمصادر الثروة في الولاية وتلخص في أن القائمين بحرث تلك المصارد اعتبروا بمثابة قائمين على أملاك السلطان الخاصة، منحوا حق استغلال

تلك الأملاك والاحتفاظ بجزء مما ينتجون نظير تسديدهم لضرائب قرر الجهاز الحاكم مقدارها وكيفية تحصيلها.

كما يجب أن نلاحظ اشتداد حدة التناقض بين السلوك النمطى للقوى الحاكمة وبين المصالح بعيدة المدى للبلاد فى أواخر القرن الثامن عشر. إذ خضعت المصادر الأصلية للثروة فى مصر لسيطرة الأكثر قوة من البيوت المملوكية فى أواخر القرن الثامن عشر، وذلك بعد أن اختل ميزان شرائح الطبقة الحاكمة لصالح أمراء المماليك وتمكنوا من فرض السيطرة على أغلب القوات العسكرية العثمانية الأصل، ومن ثم احتكار الأداة الإدارية وأداة القهر فى ظل نظام يكرس السيطرة على مصادر الثروة للمسيطر على هاتين الأداتين. وقد ترتب على تلك السيطرة أن استقطب أمراء المماليك إيرادات ضخمة تجلت فى تركيز هائل للثروات فى أيديهم، وترتب عليها كذلك أن تمكنوا من توجيه انفاق الخزانة العامة بما يتفق ومصالحهم الطبقية. وقد ترتب على اختلال ميزان القوى لصالح المماليك بوجه عام أن تأثر نمط انفاق أمرائهم باحتدام المنافسة بين البيوت المتصارعة من أجل الانفراد بالسيطرة على مصادر الثروة وتكريس التميز الطبقى، مما جعلهم يعطون الأولوية للانفاق الحربى الذى استنزف مواردهم المالية الخاصة فلجأوا إلى استخلاص موارد مالية إضافية عن طريق غير نظامى، فكثرت حوادث الضرائب الجزافية والمصادرات. أما إنفاقهم المدنى، فقد سيطر عليه الانفاق الترفى من ناحية والمظهرى بغرض المحافظة على شرعية مزعومة من ناحية أخرى واختفى الانفاق الاستثمارى أو كاد.

وقد تمخضت تلك السيطرة القائمة على مصادر الثروة من جهة واستنزافها من جهة أخرى، أن ضربت إمكانية تبلور طبقة متوسطة مستقلة تدافع عن مصالحها ومصالح الوطن وتواجه الاستبداد والغزو الأجنبى.

الإخفاق التاريخى و ضرب إمكانيات النهوض

وفيما يلى سنحاول أن نتلمس كيف تفاعلت العوامل الممثلة فى السيطرة المركزية على مصادر الثروة والممارسات التى طبعت جبى الضرائب وحرث الأموال والسلوك الاقتصادى للطبقة الحاكمة، لتؤثر مجتمعة على الموارد الإنتاجية للبلاد من ناحية والتركيب الطبقى من ناحية أخرى.

أولا: تدهور أحوال القاعدة المادية للإنتاج

١. ضعف الانفاق الحكومى على الموارد الإنتاجية:

يبدو أن الأموال التى أنفقتها الأداة الحاكمة على صيانة وتنمية الموارد الإنتاجية للبلاد اقتربت بالكاد من نسبة الواحد فى المائة فقط من إجمالى إيرادات الخزانة، وينبنى ذلك التقدير على البيانات المحدودة المتاحة من الميزانيات القليلة المتوفرة الخاصة بالنصف الأخير من القرن الثامن عشر.

إذ نستنتج من تحليل تلك البيانات أن الطبقة الحاكمة استولت على النصيب الأعظم من تلك الإيرادات والذى بلغ حوالى ٨٤٪ منها، أدرج أغلبه فى بنود حملت مسميات تفيد بذلك المعنى بصورة واضحة وأدمج بعضه فى بنود أخرى تحت مسميات مختلفة.

كذلك يتضح لنا أن الانفاق على أغراض تتعلق بالحفاظ على بعض المظاهر الدينية التى حاول النظام الحاكم أن يستمد شرعيته منها بلغ فى المتوسط نسبة أكبر قليلا من ١٥ ٪ من إجمالى الإيرادات، فبقى مبلغ نسبته أقل من ١ ٪ للانفاق على الموارد الإنتاجية للبلاد كما ذكرنا من قبل. والجدير بالملاحظة هنا أن الميزانيات المتاحة شملت بندا اطلق عليه «نفقات على أغراض فى مصر» وبالرغم من أن هذا البند كان يمثل نسبة محدودة من إيرادات الخزانة العامة (حوالى ٤,٥ ٪ فى المتوسط) إلا أنه احتوى أجزاء من النفقات الموجهة للاستخدامين الرئيسيين للإيرادات (أى للطبقة الحاكمة والمظاهر الدينية) استوعبت أكثر من ثلاثة أرباعه.

٢. تناقض الانفاق الحكومى مع الاحتياجات الحقيقية للبلاد:

فإذا أردنا تقييم أثر ضآلة الانفاق الحكومى على الموارد الإنتاجة للبلاد، وجب علينا أن ننظر إلى تلك الموارد وطبيعتها، ومدى اعتماد أحوالها على توفر رعاية مركزية منتظمة.

ويبدو أن عناصر أو مكونات القاعدة الإنتاجية للبلاد وقتها يمكن أن نلخصها دون إخلال جسيم بالواقع فى موردين اثنين: هما الأرض الزراعية والطرق التجارية، فما عدا ذلك من أنشطة قام بصفة أساسية إما على المجهود البشرى أو على أصول مستمدة من الزراعة والنقل التجارى.

فإذا نظرنا إلى أحوال الأرض الزراعية فى مصر وجدناها تعتمد بصورة مطلقة على الرى النيلى، ووجدنا أن الظروف الطبيعية تفرض ضرورة تنظيم الرى بصورة تأخذ فى

الاعتبار التقلبات الموسمية لذلك المصدر الرئيسى ـ أو قل الوحيد ـ للمياه (أى الفيضان)، والتى تجعل كميات المياه المتاحة غير معلومة أو مؤكدة. هذه واحدة. كذلك يبدو أن طبيعة ذلك المورد المالى وكونه شريطًا محدودًا فى استطالة تفرض القيام باستثمارات فى حفر وصيانة المجارى المائية (القنوات والترع والمصارف وغيرها) لمد شبكة الرى إلى أنحاء الأراضى الزراعية الصالحة، ناهيك عن التوسع فى تلك الأراضى أو الإضافة لها.

وقد أوضح أحد الاقتصاديين الأجانب (كروتشلى) الذين كانت لهم مؤلفات عن الاقتصاد المصرى فى أوائل القرن الحالى تلك الاعتبارات فى فقرتين يمكن ترجمتهما كما يلى:

«أدت [حتمية] إقامة نظام الرى فى مصر على قاعدة مصنوعة غير طبيعية، والاعتماد المطلق للزراعة على [تنظيم] الرى إلى بديهية مقررة، كثيراً ما يتكرر ذكرها بصورة أو بأخرى، ومؤداها أنه ليس فى بلاد العالم بلد آخر مثل مصر يتوقف رخاؤه على حكومته بتلك الصورة المباشرة السريعة.

«وإذا ما أردنا النجاح للرى [فى مصر]، فلابد من تنظيمه وإدارته بواسطة إدارة مركزية قوية تضع نصب عينيها المصلحة العليا للبلد بأكمله. إذ أن الضرورة لا تتوقف عند إنشاء الجسور والقنوات والمصارف والسدود، والتى بطبيعتها تصبح فى حاجة إلى الإصلاح إذا أهملت ولو لفترة قصيرة، ولكن لابد أيضًا سنة بسنة وتبعاً لحال الفيضان من التحكم فى توزيع المياه بما يحقق أقصى فائدة ممكنة للبلد ككل».

أما التجارة المصرية، فقد اعتمدت على عدة طرق نيلية وبرية انتقلت السلع عبرها من الموانىء والمدن الرئيسية وأرجاء البلاد المختلفة إلى القاهرة، فكان يتم نقل البضائع التى تصل إلى موانىء الاسكندرية ورشيد والبرلس ودمياط إلى القاهرة بواسطة الملاحة النيلية، والبضائع التى تصل إلى ميناءى السويس والقصير بواسطة القوافل عبر الطرق الصحراوية، أما القوافل القادمة من مناطق فى وسط افريقيا والسودان فقد حملت بضائعها إلى القاهرة براً عبر مصر العليا (الصعيد). كانت تلك الطرق بمثابة الشرايين التى تتدفق عبرها حركة التجارة، فكان حفظ النظام وتحسين نظم النقل فيها كلها ضرورياً لصيانة التدفق التجارى.

ويسوقنا ذلك العرض لطبيعة القاعدة الإنتاجية للبلاد وما تمليه تلك الطبيعة من أهمية القيام بإنفاق حكومى ضخم لصيانة وتنمية القدرة الإنتاجية ـ بل لمجرد الحفاظ عليها من التدهور ـ إلى أن نلاحظ أن نمط

تصرفات الخزانة فى الإيرادات كان يبدو وكأنه يشوبه إهمال جسيم لوظائفها الأساسية إزاء الموارد الإنتاجية، إذ أن تحليل مفردات الانفاق الحكومى على الموارد الإنتاجية يظهر لنا اقتصاره على توجيه نسبة من الإيرادات تذبذبت حول ٧,٪ لصيانة شبكة الرى القائمة، بينما خلا ذلك الانفاق تماماً من ذكر أى أعمال رى جديدة، كذلك لم يتضمن أى اعتماد مستقل لتحسين الطرق التجارية وصيانتها ومن أمثلة تلك المفردات، فى أواخر القرن الثامن عشر ما يلى، ونلاحظ ثبات قيمة نسبة الاعتماد المخصص لها من إجمالى الإيرادات (نظر الجدول المجاور)

وبالرغم من عدم توفر مؤشرات عن الحد الأدنى الضرورى من الانفاق لتنظيم وصيانة وتنمية كل من الأراضى الزراعية وشبكة الرى القائمة من ناحية والطرق التجارية من ناحية أخرى بحيث نقارن ذلك الحد الأدنى بالانفاق الحكومى الفعلى أو التقديرى المبين فى الجدول، إلا أننا نرى أن التواضع البالغ الذى بيناه فى نسبة ما ينفقه الجهاز الحاكم على الموارد الإنتاجية مما يتجمع لديه من أموال جاء أغلبها من ضرائب واستقطاعات باهظة مأخوذة من حصيلة استخدام تلك

	ميزانية ١١٨هـ/١٧٦٦م		ميزانية ١٣٠٠هـ/١٧٨٥م	
	القيمة بآلاف البارات	النسبة إلي إجمالى الإيرادات	القيمة بآلاف البارات	النسبة إلي إجمالى الإيرادات
صيانة الخلجان (القنوات) والسدود فى الأقاليم	٨٦١	٠,٧	٨٦١	٠,٧
صيانة السواقى الرئيسية فى مصر القديمة ومد السقاه بالمياه العذبة للسويس.	١٣٨	٠,١	١٣٨	٠,١
صيانة بيوت الجمارك فى دمياط والاسكندرية وتوفير مياه عذبة لملء صهاريج «القرافة الكبرى» (الجبانة» فى القاهرة	٤٦	,٠٤	٤٦	,٠٤
صيانة الخلجان (القنوات) المختلفة فى القاهرة ودمياط	٢٥	,٠٢	٢٣	,٠٢

الموارد، ليس إلا انعكاساً كمياً للعلاقات الطبقية السائدة والتى ستتكرر الإشارة لها فيما بعد، وهو مؤشر يعكس فى مجمله كيف تناقضت أولويات الحكم ورؤية الطبقة الحاكمة لمصالحها مع المصالح الإنتاجية

للبلاد فى المدى الأبعد، فوظفت الطبقة الحاكمة أداة الانفاق العام لتخدم على مصالحها العاجلة قصيرة المدى.

ويبدو أن نظام الالتزام فى المقاطعات الريفية ربما ساعد أحياناً وفى بعض نواحيه على التعويض الجزئى من ضآلة الانفاق الحكومى على الأعمال الزراعية، إذ قام ذلك النظام نظرياً على تفاهم مشترك بأن الملتزمين ـ كل فى مقاطعته ـ ينهضون بمسئولية الحكومة. ومع عدم خوضنا فى الدلالات العملية لذلك التفاهم النظرى أو لحدوده وصرامته والتطبيق الفعلى له، إلا أننا نتصور أن الحد الأدنى الذى كان لابد أن يعنيه ذلك ضمناً ـ (إذ صح تطبيقه) ـ يشمل الصيانة الاعتيادية للأرض ولشبكة الرى، وربما يضمن أيضًا دوراً فى حفظ الأمن بداخل نطاق ما يلتزم عنه من أراض فى حدود المقاطعة. فإذا صح ذلك التصور، فقد يكون قد ساعد فى توفير بعض الا تقرار فى بعض النواحى وفى بعض الأحيان. ومع ذلك، فمن الصعب تصور أن المجهودات الفردية المنعزلة بداخل كل مقاطعة منفردة قد نهضت كبديل كامل عن المجهود المركزى المنظم وبصورة كافية أو مقبولة، حتى فى تلك الأوقات التى اتسمت باستقرار سياسى نسبى ترتب عليه احتفاظ الملتزمين بمقاطعاتهم لفترات طويلة وبكيفية ربما اقتربت بهم من شكل الملكية الخاصة المستقرة، ووفرت ما يرتبط بتلك الملكية من حوافز. فالتأمل فى القول المقتطف من كروتشلى فى صدر هذا الكلام يفضى بنا إلى اقتناع بأن الجهود الفردية، سواء بذلها ملتزمون أو ملاك مكتملو الملكية الخاصة، يصعب أن تسفر عن تنظيم أعمال الرى (ومن ثم الزراعة) على نطاق البلاد بأكملها، بما يدرأ أخطار شح الفيضان أو غزارته، وبما يجنب البلاد التعرض إلى تذبذب حاد فى أحواله مع تذبذب مستواه. بل هناك من الحوادث ما يؤكد اخفاق بعض مشروعات الرى الأساسية بسبب عدم انتظام الحكام فى الاشراف على تطور العمل بها، مما أجهض الموارد الطائلة والجهد البشرى المبذول فى أعمال ظلت غير مستكملة.

«(وفى شهر شعبان) [١٢٠٧هـ] وقع الاهتمام بسد خليج الفرعونية بسبب احتراق البحر الشرقى ونضوب مائه، وظهرت بالنيل كثبان رمل هايلة من حد المقياس إلى البحر المالح، وصار البحر الغربى سلسول جدول تخوضه الأولاد الصغار ولا يمر به إلا صغار القوارب، وانقطع الجالب من جميع النواحى إلا ما تحمله المراكب الصغار بأضعاف الأجرة، وتعطلت دواوين المكوس فأرسلوا إلى سد

الترعة رجلا مسلمانى، وصحبته جماعة من الافرنج، وأحضروا الأخشاب العظيمة ورتبوا عمل السد قريباً من كفر الحضرة، وركبوا آلات فى المراكب ودقوا ثلاثة صفوف خوابير من أخشاب طوال، فلما أتموا ذلك كانت الصناع فرغت من تطبيق ألواح فى غاية الثخن شبه البوابات العظام، وهى مسمرة بمسامير عظيمة ملحومة بالرصاص وصفائح الحديد مثقوبة بثقوب مقاسة على ما يوازيها من نجوش منجوشة بالخوابير المركوزة فى الماء فإذا نزلوا ببوابة الحموها بتلك الخوابير وتبعتهم الرجال بالجوابى المملوة بالحصا والرمل من أمام ومن خلف، وتبع ذلك الرجال الكثيرة بغلقان الأتربة والطين ففعلوا ذلك حتى قارب التمام، ولم يبق إلا اليسير، ثم حصل الفتور فى العمل بسبب أن المباشر على ذلك أرسل لمراد بك بالحضور ليكون إتمامها بحضرته ويخلع عليه ويعطيه ما وعده به من الإنعام، فلم يحضر مراد بك وغلبهم الماء وتلف جانب من العمل، وكان أيوب بك الصغير حاضراً وفى نفسه أن لا يتم ذلك لأجل بلاده فأصبح مرتحلا، وتركوا العمل وانفض الجمع، وقد أقام العمل فى ذلك من أوايل شعبان إلى أواسط شوال، ثم نزل إليها جماعة آخرون وطلبوا جملة مراكب موسوقة بالأحجار وشرعوا فى عمل سد المكان القديم عند فم الترعة، ودقوا أيضاً خوابير كثيرة وألقوا أحجاراً عظيمة وفرغت الأحجار فأرسلوا يطلب غيرها فلم تسعفهم القطاعون فشرعوا إلى هدم الأبنية القديمة والجوامع التى بساحل النيل، وقلعوا أحجار الطواحين التى بالبلاد القريبة من العمل، واستمروا على ذلك حتى فويت الزيادة ولم يتم العمل ورجعوا كالأول، وذهب فى ذلك من الأموال والغرامات والسخرات وتلف من المراكب والأخشاب والحديد ما لا يحد ولا يعد».

لقد كان لابد أن يؤدى إهمال أعمال الرى من قبل الحكومة إلى الاعتماد على ما تجود به قوى الطبيعة بصورة كادت أن تكون مطلقة، وإلى وقوع الزراعة المصرية تحت رحمة التغير فى احجام الفيضانات من عام إلى آخر، مما جعل البلاد تشهد أعواماً عانت فيها بشدة من ندرة الغذاء وارتفاع الأسعار وعدم توفر الخامات للصناعة المحدودة القائمة. ويتعدد فى الجبرتى ذكر حوادث من هذا القبيل، نورد منها على سبيل المثال ذكر ما حدث فى عامين من هذه الأعوام:

«وفى هذه السنة [١١٩٥هـ/ ١٧٨٠م] قصر مد النيل وانهبط قبل عيد الصليب بسرعة فشرقت الأراضى القبلية والبحرية وعزت الغلال بسبب ذلك وبسبب نهب

الأمرا وانقطاع الوارد من الجهة القبلية، وشطح سعر القمح إلى عشرة ريالات للأردب واشتد جوع الفقرا. ووصل مراد بك إلى بنى سويف وأقام هناك وقطع الطريق على المسافرين، ونهبوا كل ما مر بهم فى المراكب الصاعدة والهابطة».

ثم وصف الجبرتى الأحوال فى عام ١٢٠٦ كما يلى:

«... وانقضى شهر كيهك القبطى، ولم ينزل من السما قطرة ما فحرثوا المزروع ببعض الأراضى التى عطشها الما وتولدت فيها الدودة وكثرت الفيران جداً حتى أكلت الثمار من أعلى الأشجار، والذى سلم من الدودة من الزرع أكله الفار، ولم يحصل فى هذه السنة ربيع للبهايم إلا فى النادر جداً، ورضى الناس بالعليق فلم يجدوا التبن وبلغ حمل الحمار من قصل التبن الأصفر الشبيه بالكناسة الذى يساوى خمسة أنصاف قبل ذلك ماية نصف، ثم انقطع مرور الفلاحين بالكلية بسبب خطف السواس وأتباع الأجناد، فصار يباع عند العلافين من خلف الضبة كل حفان بنصفين إلى غير ذلك».

ومن ناحية أخرى، فقد ترتب على إهمال صيانة الطرق التجارية أن تقلصت أداة أخرى من أدوات الإنتاج، فانكمشت الطرق وانكمشت معها الحركة التجارية، وضاق مورد رئيسى آخر من موارد الثروة. ونجد فى مذكرات سونينى عن أسفاره إشارة إلى كثير من تلك الحالات، ونقتطف منها فقرة ترجمناها كما يلى:

«ولكن الإهمال البربرى من جانب طغاة مصر قد أذبل مورداً غنياً للرخاء، إذ تركوا الطمى يتراكم فى قيعان القنوات معوقاً حركة الملاحة، فأرغمت التجارة على هجر سواحل مدينة فوة....»

وقد زاد من ذلك التدهور انتشار القرصنة، التى نشطت بسبب ضعف قبضة الحكومة المركزية نتيجة الانشغال بالصراعات بين البيوت المملوكية وما ارتبط بذلك من اضطراب سياسى.

ويخبرنا الجبرتى أن القراصنة تمكنوا من السيطرة فى بعض الأحيان على تلك الأجزاء من أمانة البحرين التى وقعت خارج القاهرة، وهى مناطق اضطر الجهاز الحاكم إلى القبول رسمياً بأنشطة القرصنة الموجودة بها فى الأوقات التى ضعفت فيها السلطة المركزية واهتزت هيبتها، فتهادنت تلك السلطة مع القراصنة سعيًا إلى حل وسط يحقق المنفعة لطرفيه ويلقى بالعبء على أهل البلاد.

«وفى سنة ١١٣٤ أخذ سالم من محمد بك ابن إسماعيل أمير الحج [المنصب الذى تبوأه أقوى أمراء المماليك] إجازة بعمار البلاد الذى على البحر وأخذ فى تعمير دور وسايته.. فاشتهر ذكر سالم وعظم، واستولى على خفارة البحرين ونفذت كلمته بالبلاد البحرية من بولاق إلى البغازين وصارت المراكب والرويسا تحت حكمه، وفرض عليها الضرايب الشهرية والسنوية، وأنشا دورا واسعة وبستانا به كل أنواع الفاكهة».

وقد سيطرت ظروف مماثلة على الطرق الصحراوية، حيث هددت الغزوات المتكررة للبدو مرور القوافل التجارية، وقد ذكر الجبرتى العديد من غاراتهم التى نرجح أنها وجهت ضربات شديدة للتجارة عبر القوافل. ومن ضمن ما ورد بالجبرتى إشارة إلى غارة رئيسية وقعت فى ١١٩٣هـ/١٧٧٩م على قافلة من التجار الأوربيين ويبدو أنها أثرت بشدة على الحركة التجارية بين أوربا ومصر.

وليس من المستغرب وقد أهمل رجال الحكم أمور البلاد وسطوا على أرزاق أهاليها أن حذت حذوهم أدواتهم من الجند ورجال الأمن، فتعددت حوادث سطو هؤلاء على السلع عند ندرتها أو عند توفرها بعد ندرة، ليضيق الطوق مجددا على الحركة التجارية:

«(وفيه) [المحرم ١٢٠٧هـ] وصلت غلال رومية وكثرت بالساحل فحصل للناس اطمئنان وسكون ووافق ذلك حصاد الذرة، فنزل السعر إلى أربعة عشر ريالا للأردب، وأما التبن فلا يكاد يوجد، وإذا وجد منه شى فلا يقدر من يشتريه على إيصاله لداره أو دابته بل يبادر لخطفه السواس واتباع الأجناد فى الطريق، وإذا سمعوا واستشعروا بشى منه فى مكان كبسوا عليه وأخذوه قهرا، فكان غالب مونة الدواب قصب الذرة الناشف، ويسرح الكثير من الفقرا والشحاذين فى نواحى الجسور فيجمعون ما يمكنهم جمعه من الحشيش اليابس والنجيل الناشف، ويأتون به ويطوفون به فى الأسواق ويبيعونه بأغلى الأثمان، ويتضارب على شراه الناس وإن صادفهم السواس والقواسة خطفوه من على روسهم وأخذوه قهرا».

٣ـ تدهور أحوال القوى العاملة المصرية:

أدت المناحرات السياسية التى طبعت القرن الثامن عشر فى مصر بطابعها إلى وقوع أفراد الطبقة الحاكمة من أمراء المماليك تحت ضغط احساس بالاحتياج المستمر لموارد مالية لتمويل تدافعهم على استجلاب المماليك الجدد من الخارج. وكان تدبير الموارد المالية المطلوبة يصادف صعوبة متزايدة بسبب التناقص المضطرد فى فائض الإنتاج نتيجة إهمال الموارد الإنتاجية، مما كان يعنى تعرض الموارد المتوفرة للطبقة الحاكمة إلى النقصان

ما لم تستقطع من نصيب القوى العاملة من حصيلة الإنتاج ـ أى ما لم تأت خصما من العائد المستحق لرأس المال البشرى وضريبة ضمنية عليه، وقد قامت أدوات البيروقراطية (الجهاز الإدارى) والقوة القهرية (الجهاز العسكرى) بالتخديم على مصالح الطبقة الحاكمة فى هذا الصدد، فى الوقت الذى افتقر فيه أهل البلاد فى أغلب الحالات إلى تنظيم جماعى دفاعى. وكان مؤدى ذلك السلوك إلحاق الضرر بمورد إنتاجى رئيسى آخر (القوى البشرية) واستنزافه، هذا إذا ما نحينا اعتبارات العدالة الاجتماعية جانبًا ونظرنا إلى تأثير أنماط سلوك الطبقة الحاكمة على القاعدة الإنتاجية فحسب. ولنستطرد للحظة هنا لنلاحظ الضرورة المادية لما يطلق عليه أحيانًا «عدالة التوزيع» وهى من الاعتبارات التى تدرج عادة ضمن مفهوم العدالة الاجتماعية، والذى كثيرا ما يطرح بدوره وكأنه يقوم على أساس من التعاطف الإنسانى فحسب فيضعف ذلك الطرح المضلل (بكسر اللام) أو المضلل (بفتحها) من الاحساس بضرورته المادية وبالأهمية والأولوية الملحتين له.

وقد تحمل الفلاحون وهم الشريحة الأكبر عددا والأضعف تنظيما فى الطبقة العاملة المصرية العبء الأعظم منذ البداية، وتشير الدلائل المتاحة أن ذلك دفع بالزراعة إلى حلقة مفرغة. فالاهمال الحكومى للانفاق الضرورى للأعمال الزراعية العامة أدى إلى تقلص متوسط إنتاجية الأرض الزراعية فتدهورت كمية المحاصيل والإيرادات المستولدة من أى رقعة زراعية محددة، فسعى الجهاز الحاكم إلى تعويض نقصان الموارد المالية المتجمعة له بالاستقطاع من حقوق أو عوايد الفلاحين العاملين على الرقعة المعنية بالرغم من فقرهم الشديد، فثقل العبء الواقع عليهم وتدهورت أحوالهم إلى مزيد من الفقر وسوء الأحوال الصحية وسلب ذلك من طاقاتهم الإنتاجية (متوسط الإنتاجية الفردية) وقدرتهم على استيلاد المحاصيل من الرقعة المحددة التى يعملون عليها، فنقص الإنتاج الزراعى مجددا، ليشتد بطش الطبقة الحاكمة وتلجأ إلى توظيف أشرس لأداتها الضاربة حتى تستخلص ما إعادته من أموال (أو أكثر إذا دعت الحاجة) من تلك الرقعة الزراعية المتدهورة إنتاجيتها وإنتاجية العاملين عليها فيزداد ثقل العبء الواقع على العاملين، وتتدهور الإنتاجية الفردية من جديد ويزداد انكماش الإيراد الزراعى المتولد من تلك الرقعة فيزداد توظيف الأداة الضاربة، وهكذا دواليك. ويرجعنا ذلك العرض إلى ملاحظة الأستاذ

لهيطة، والتى نبه فيها إلى دخول البلاد حلقة مفرغة من الانحدار المالى بسبب إتيان مستغليها على منابع الدخل شيئا فشيئا.

وكان يمكن ألا يؤدى التراجع فى إنتاجية الأرض من جهة وفى إنتاجية الفلاح من جهة أخرى إلى تراجع إجمالى الإنتاج الزراعى على نطاق البلاد بأكملها وذلك إذا ازدادت كمية أحد العنصرين أو كليهما: (مساحة الأرض الزراعية أو عدد العاملين عليها). لكن حجم المساحة الصالحة للزراعة كان ينكمش بسبب إهمال الاستثمارات الضرورية لصيانتها، وكذلك كان عدد الفلاحين العاملين على الأرض الزراعية يتناقص بتأثير الإجهاد البالغ الذى دفع بهم إلى الهجرة فلولا واشتاتا.

وبإمكاننا أن نجد فى تسجيل المعاصرين لتلك الفترة كثيراً من الإشارة إلى هذين الأمرين (انكماش المساحة وتناقص البشر العاملين عليها)، إذ يقدر سونينى على سبيل المثال مساحة الأراضى الزراعية التى تعرضت للبوار بأنها تساوى حوالى ربع المساحة التى كانت تزرع وقت زيارته لمصر، وذلك فى فقرة ترجمناها كما يلى:

«ولقد أثمر الإهمال والطغيان ــ المتعادلين فى البربرية ــ زحف الرمال على أجزاء كانت تغطيها الخضرة من قبل... تلك الأماكن.. كثيرة إلى درجة أنه يمكننا أن نقدر مساحتها دون أن نخشى الخطأ بحوالى ربع المساحة التى تتم زراعتها فى مصر حاليا».

كذلك يشير الجبرتى إلى موجات حاشدة من الهجرة من القرى إلى المدن والتى وقعت فيما يشبه حالات الفرار الجماعى نتيجة الفقر الحاد فى القرى وليس بسبب اغراءات المدن، أى أن القوى المسببة لها كانت قوى طرد تدفع للبحث عن مأوى بديل لا قوى جذب تعد المقبلين وتغريهم بمستقبل أفضل. وتتضح لنا ظروف تلك الموجات البشرية المتحركة فى الفقرتين التاليتين:

« وانقضت هذه السنة [١١٩٨هـ/١٧٨٣م] كالتى قبلها، فى الشدة والغلاء، وقصور النيل، والفتن المستمرة وتواتر المصادرات والمظالم من الأمرا وانتشار أتباعهم فى النواحى لجبى الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم، (ويسمونها مال الجهات ورفع المظالم والفردة) حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم وطفشوا من بلادهم، فحولوا الطلب على الملتزمين وبعثوا لهم المعينين فى بيوتهم، فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك مع ما هم فيه من المصادرات الخارجة عن

ذلك وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى فيؤخذ ويحبس ويكلف بطلب أضعاف ما يقدر عليه، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار عن المكوسات المستقبلة، ولما تحقق التجار عدم الرد استعوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار. ثم مدوا أيديهم إلى المواريث فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أو لا، وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه فى كل شهر، ولا يعارض فيما يفعل من الجزيئات، وأما الكليات فيختص بها الأمير، فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلا إلا من تداركه الله برحمته أو اختلس شيًا من حقه فإن اشتهروا عليه عوقب على استخراجه، وفسدت النيات وتغيرت القلوب ونفرت الطباع، وكثر الحسد والحقد فى الناس لبعضهم البعض، فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى به إلى الظالم حتى خرب الإقليم وانقطعت الطرق وعربدت أولاد الحرام، وفقد الأمن ومنعت السبل إلا بالخفارة وركوب الغرر، وجلت الفلاحون من بلادهم إلى الشراقى والظلم وانتشروا فى المدينة بنساهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره، فلا يجد الزبال شياً يكنسه من ذلك، واشتد بهم الحال حتى أكلوا الميتات من الخيل والحمير والجمال، فإذا خرج حمار ميت تزاحموا عليه وقطعوه وأخذوه ومنهم من يأكله نيا من شدة الجوع، ومات الكثير من الفقرا بالجوع، هذا والغلا مستمر والأسعار فى الشدة وعز الدرهم والدينار من أيدى الناس وقل التعامل إلا فيما يوكل، وصار سمر الناس وحديثهم فى المجالس ذكر المآكل والقمح والسمن ونحو ذلك لا غير، ولولا لطف الله تعالى ومجى الغلال من نواحى الشام والروم لهلكت أهل مصر من الجوع، وبلغ الأردب من القمح ألف وثلاثماية نصف فضة والفول والشعير قريباً من ذلك، وأما بقية الحبوب والأبزار فقل أن توجد واستمر ساحل الغلة خالياً من الغلال بطول السنة والشون كذلك مقفولة، وأرزاق الناس وعلايقهم مقطوعة، وضاع الناس بين صلحهم وعتبهم وخروج طايفة ورجوع الأخرى، ومن خرج إلى جهة قبض أموالها وغلالها، وإذا سئل المستقر فى شى تعلل بما ذكر. ومحصل هذه الأفاعيل بحسب الظن الغالب أنها حيل على سلب الأموال والبلاد وفخاخ ينصبونها ليتصيدوا بها إسماعيل بك».

وبعد حوالى عشر سنوات من تلك المجاعة، تحدث مجاعة أخرى سرعان ما يهجر الفلاحون بسببها قراهم:

«(وفيه) [المحرم ١٢٠٧] أيضاً هبط النيل قبل [عيد] الصليب بعشرة أيام، وكان

ناقصًا عن ميعاد الرى نحو ذراعين فارتجت الأحوال، وانقطعت الآمال وكان الناس ينتظرون الفرح بزيادة النيل، فلما نقص انقطع أملهم واشتد كربهم وارتفعت الغلال في السواحل والعرصات، وغلت أسعارها عما كانت وبلغ الأردب ثمانية عشر ريالا، وآل الأمر إلى أن صار الناس يفتشون على الغلة فلا يجدونها، ولم يبق للناس شغل ولا حكاية ولا سمر بالليل والنهار في مجالس الأعيان وغيرهم إلا مذاكرة القمح والفول والأكل ونحو ذلك، وشحت النفوس واحتجب المساتير، وكثر الصياح والعويل ليلا ونهارًا، فلا تكاد تقع الأرجل إلا على خلايق مطروحين بالأزقة، وإذا وقع حمار أو فرس تزاحموا عليه وأكلوه نيا ولو منتنا، حتى صاروا يأكلون الأطفال، ولما انكشف الما وزرع الناس البرسيم ونبت أكلته الدودة، وكذلك الغلة فقلب أصحاب المقدرة الأرض وحرثوها وساقوها بالما من السواقي والنطالات والشواديف، واشتروا لها التقاوى بأقصى القيم وزرعوها فأكله الدود أيضا، ولم ينزل من السما قطرة ولا أندية ولا صقيع، بل كان في أوايل كيهك شرودات وأهوية حارة ثقيلة، ولم يبق بالأرياف إلا القليل من الفلاحين وعمهم الموت والجلدة.

وقد كثرت في الجبرتي الإشارات المماثلة إلى تعرض البلاد في العقد الأخير من القرن الثامن عشر لهجرات جماعية ولمجاعات تتلوها انتشار الأوبئة أو الطواعين.

وبذلك، دخلت الزراعة المصرية في حلقة مفرغة متجددة الدوران، أقطابها المحركة الإهمال الجسيم لعناصر الإنتاج والاستنزاف البالغ لها وكلاهما متأصل في علاقات الإنتاج وممارسات البيروقراطية العسكرية الحاكمة، ومحصلتها الكمية انكماش المحصول الزراعي بنسبة تساوى حاصل ضرب تدهور إنتاجية عنصرى الإنتاج الرئيسيين (الأرض والفلاح) من ناحية وتناقص كمياتهما من ناحية أخرى. نذكر هنا مما سبق وذكرناه من استخدام الجهاز الحاكم للتمايز في التسعير كأداة لإعادة توزيع الدخل، إذ يصبح في مقدور الطبقة الحاكمة الاستفادة من انكماش المحصول الزراعي برفع أسعار البيع لتعيد توزيع الدخل لصالحها بفاعلية أكبر، مستخدمة هذه الأداة التي تزيد في نفس الوقت من معاناة الفلاحين مع أنهم الأكثر حاجة إلى رفع الأسعار عندما تتدهور كميات المحصول.

ويبدو أن تدهور الفايض والثروة الزراعية في أواخر القرن الثامن عشر وانحدار الأحوال المعيشية للفلاحين وقتها إلى درجة تقترب من الاستنزاف الكامل كانت بعض أسباب ما نلحظه من ازدياد ذكر تعرض أهل

المدن من التجار وغيرهم لحوادث الضرايب الجزافية والمصادرات فى تلك الفترة.. وقد أدت تلك الممارسات إلى انخفاض أكثر حدة فى الأحوال المعيشية للشعب المصرى فى مجموعه، انعكست سياسيًا فى ردود فعل أشد فى المراكز (وعلى الأخص فى القاهرة) حيث كان السكان أفضل تنظيما وحيث وجدت مراكز ثقل سياسى أقوى نفوذًا عما كان الوضع عليه فى الريف.

أثرت سياسات الجهاز الحاكم على كفاءة القاعدة الإنتاجية للبلاد، إذن، فى أكثر من اتجاه واحد. فقد أسفر استمرار الحكومة فى حرث الأموال من المصادر المختلفة للثروة مع عدم القيام بإنفاق استثمارى يعتد به عن تقلص مضطرد فى القاعدة المادية لموارد إنتاج البلاد، وضاعف من سوء الآفاق الاقتصادية تعرض القوى العاملة للضرايب الضمنية على رأس المال البشرى والممثلة فى سلب المزيد من العوايد المستحقة لها مما ترتب عليه مزيد من التدهور فى مستويات المعيشة وبالتالى فى كفاءة القوى البشرية وتدريبها. وكانت نتيجة تقلص القاعدة الإنتاجية للبلاد من جراء تلك السياسات أن فرص العمل والكسب المشروع من خلال الزراعة والتجارة والملاحة كلها تقلصت وضاقت سبل الرزق فضلاً عما لحق بثروة البلاد من اضرار ذات تأثير حاد ممتد وتأثير زمنى مضطرد.

ثانيا: الانعكاسات الطبقية

١. تبعية الطبقة المتوسطة للطبقة الحاكمة:

رأينا من قبل كيف تركزت السيطرة الفعلية على أدوات الإنتاج فى يد الطبقة الحاكمة من خلال الأداة الإدارية المركزية (البيروقراطية) ووسائل القهر والقمع (القوات العسكرية)، وكيف تم توظيف هاتين الأداتين للسيطرة على الأرض وعلى الهياكل التقليدية للطوائف والأنشطة الحضرية.

وبينما لم يخل المجتمع من مجموعات من الأثرياء الذين كونوا فى مجموعهم طبقة وسطى مميزة عن الطبقة الحاكمة من ناحية والفقراء من الأهالى وعموم الشعب من ناحية أخرى، فإن تركيب تلك الطبقة افتقر إلى وجود أساس مادى مستقل لها يستنهض فيها إقدام البورجوازية الفتية وأخذها بأسباب المبادرة، إذ افتقدت أى سيطرة على ملكية وسايل الإنتاج فأصبح السبيل الوحيد لها للاحتفاظ بتميزها النسبى هو ربط نفسها بعجلة الطبقة الحاكمة المسيطرة وتحقيق مصالحها من خلالها، وصار عليها بدلا من تكوين وترسيخ دورها الطبقى من خلال

أداء دور إنتاجى متميز أن تكرس نفسها من خلال أداء أدوار مختلفة مرتبطة بالنظام القايم وملبية له. لقد قام هيكل الطبقة المتوسطة المصرية وقتها دون أن يحمل فى طياته إمكانية إفراز طبقة من الخلاقين من أصحاب المبادرة (Entrepreneurs) الذين تتوفر لديهم الأسس المادية والاستعداد الشخصى لإقامة كيانات تتطور إلى مؤسسات ذات استقلالية وتحرك جدلية التطور نحو إفراز نظام اجتماعى بديل أكثر تقدمًا، فنشأت تلك الطبقة فى أحضان وجيب الطبقة الحاكمة، واصطبغت بالعقم والتبعية والمحافظة، وتمخضت فيما بعد عن إخفاق وطنى عظيم.

فكبار التجار ذوو النفوذ الواسع كونوا ثرواتهم من قيامهم بتوريد السلع للأمراء والحكام وبأعمال الشحن من القاهرة وإليها. وكان لابد من الاحتفاظ بعلاقات طيبة بالطبقة الحاكمة تعظيمًا لحجم أعمالهم، حفاظًا على مصالحهم. وبالإضافة إلى المصالح المرتبطة مباشرة بفرص التجارة والكسب، فقد تدعمت مصالح كبار التجار مع الطبقة الحاكمة من ناحيتين أخريين، الأولى منهما نيلهم التزامات مقاطعات عديدة وما جره عليهم ذلك من منافع تتعدى نطاق تجارتهم، وثانيهما (وربما الأهم) تدعيمهم لموقفهم التنافسى ـ أو بالأحرى الاحتكارى ـ من خلال قيامهم بدور جامعى الضرائب من طوايفهم المختلفة. وقد أشرنا من قبل إلى استغلال كبار التجار لهذا الدور فى زحزحة العبء الضريبى من على كاهلهم والقائه على الشرايح الأصغر فيهم مما أتاح لهم ظروفًا مواتية لتصفية المشروعات الناشئة ذات فرص التوسع والانفراد وحدهم باحتكارات كبيرة.

وهكذا، لم تتوفر فى ظل المناخ السياسى القايم الإمكانية الكافية للمشروعات صغيرة الحجم بعيدة الصلة عن الطبقة الحاكمة للبحث عن سبل مغرية أو مواتية للربح، إذ تضافرت العوامل المتأصلة فى النظام القايم فصفت فرص وحوافز التراكم لدى تلك الشرايح أولاً بأول، وذلك من خلال المصادرات المستمرة التى نشأت من الاضطراب والصراع السياسى وكذلك بسبب ثقل الضريبة الواقعة على تلك الشريحة بالتحديد وما ترتب على ذلك من تكريس احتكارات تابعة محدودة فى ظل اختفاء المنافسة الحرة المتجددة.

ولقد زاد من صعوبة بروز برجوازية فتية جديدة انعزال مصر عن العالم الخارجى وبالتالى انقطاع المدد الخارجى من التجديد فى النوعيات والوسايل الإنتاجية (السلع

والتكنيك)، مما سد السبيل أمام المخاطرة التى تستثمر ما فتحته منجزات الإبداع الفنى والنظرى من آفاق إنتاجية رحبة جديدة. غير أن ذلك كان ـ فيما يبدو ـ عاملاً مساعداً فحسب، فقد ظل القيد الأساسى على الاستثمار بهدف التراكم نابعا من كون الثروة المتراكمة تتعرض دايماً للاغتصاب من قبل الحكومة إذا ما أفصح عنها:

«لم يجرؤ الأفراد ممن كونوا الثروات على استخدام ثرواتهم إلا بصورة سرية، حتى لا يثيروا الشهوة الجامحة [للمسيطرين على] القوة، ويعرضوا أنفسهم للاغتصابات التى تقرها الحكومة البربرية تحت اسم «مقدمات» (Avanias)، والتى لا يملك [هؤلاء] حيلة للفكاك منها برغم كل حذرهم وحرصهم على السرية».

كذلك عجز علماء الدين الذين شكلوا واحدة من الشرايح العريضة فى الطبقة المتوسطة عن البروز كقيادة فكرية مستقلة ـ بل، كانوا ركنًا من أركان النظام القايم وأدوا دوراً هامًا فى استمراريته، وذلك بسبب الأساس الدينى الذى استمدت منه الدولة العثمانية (ومن ثم أداة الحكم الفعلية فى مصر) شرعيتها. ويبدو أن أمرا المماليك تنافسوا على كسب القبول لدى رجال الدين فأتاحوا لهم أموالا طيبة من الهبات النقدية والمؤن العينية وأوقفوا عليهم بعض إيرادات الخزانة العامة ومنحوهم نظارات الأوقاف وإدارتها وتحالف بعضهم مع بعض العلماء وصرف لهم رواتب ثابتة. وتحققت بذلك المصلحة لرجال الدين فى النظام القايم، فقاموا بالوساطة بين الحكام والأهالى مستفيدين من مكانتهم لدى الطرفين، موفرين للنظام القايم شرعية الاستمرار، ومقدمين للأهالى مبررات لقبوله. وبالرغم من نجاح العلماء أحيانًا فى توظيف ذلك الدور لصالح الأهالى بالتخفيف عن غلواء الحكام وتطرفهم، وبرغم من أن بعض الحكام تعرض بالإيذاء لبعض رجال الدين حين بلغ هؤلاء حد المحاسبة والمساءلة، فقد ظل العلماء فى مجموعهم وبصورة عامة يؤدون دوراً توفيقياً محدداً. ويعلق ستانفورد شو على ذلك فى فقرة ترجمناها كما يلى:

«هكذا كان هناك مزيج من استخدام أمراء المماليك لقوة البطش ومن اعتماد العلماء على المماليك، حال بين المشايخ، بصفة عامة، وبين قبولهم واغتنامهم فرصة تمثيل ومساعدة الأهالى قبل الحكام قبولاً واغتناماً تامين».

كانت الطبقة المتوسطة المصرية، إذن، امتداداً للنظام القايم أو ملحقاً له، لا تتميز

بامتلاك أداة إنتاج مستقلة، وتستنبط منه دورها وثرواتها وتحافظ من خلاله عليها. ويرى بعض الكتاب ـ عن حق ـ أن العوامل الرئيسية لركود المجتمع المصرى وقتها نجدها متأصلة فى تلك التركيبة الخاصة للطبقة المتوسطة المصرية فى غياب أى تنظيمات للتجار والحرفيين توفر لها الاستقلالية الاقتصادية والفاعلية.

٢. ميوع حركة التنظيمات الأهلية وردود فعلها بسبب قيامها على الاخاء الدينى دون تجانس طبقى:

تدل الشهادات المتوفرة على أن قيادة الحركات الجماهيرية جاءت غالباً من مشايخ الطرق الصوفية. إذ نجد فى عجايب الآثار ذكراً لحوادث متفرقة تؤكد إمكانية تحريك قطاعات كبيرة من أهالى البلاد، وتركز خيوط تلك الإمكانية فى يد عدد محدود ومعروف من المشايخ عبأوا الجماهير بفضل مكانتهم كزعماء للتجمعات الصوفية التى ارتبطت برباط الأخوة الدينية فسيطرت على تجمعات حضرية كبيرة متنوعة الأصول والمصالح وضمت كذلك بعض الفلاحين. وقد تضمن تقرير أحمد باشا الجزار إلى الباب العالى (انظر ملاحق الجزء الثالث) تحليلاً لنفوذ من وصفهما بأبرز اثنين من مشايخ الطوايف الدينية (الطرق الصوفية)، وهما الشيخان البكرى والسادات، وأهمية استمالتهما لقدرتهما على تحريك الجماهير والتحكم فيها، وقد قدر الجزار باشا قواهما فى فقرة اقتطفنا وترجمنا منها ما يلى:

«سوف تكون جهودهما مفيدة، لأن كل علماء الأزهر، والأيمة، والخطباء، والحفاظ، وفقراء المدينة والروم أوشاغى، [وحراس الحج] من أبناء أوروبا [من البلقان والأناضول]، والتجار المغاربة، كلهم يتبعونهما ولا يناقضون أوامرهما أبداً: إن لديهما المقدرة، سويًا، على تكوين قوة مسلحة قوية فى يوم واحد مؤلف قوامها من سبعين إلى ثمانين ألف رجل على الأقل، يدينون بالولاء والطاعة لهما. ويمكنهما بهذه الوسيلة أن يساعدا الباشا».

ويقارن ستانفورد شو تأثير مشايخ الصوفية بتأثير غيرهم من رجال الدين فيقرر أن تحرر مشايخ الصوفية من الاعتماد على الأمراء فى المأكل والدخل أو استعدادهم لتجاهل تلك التبعية إن وجدت، إنما يرجع إلى قوة أواصر الأخوة الدينية التى تربط أبناء الطرق الصوفية، وإلى السلطة الروحية المطلقة لزعماء الصوفية، وإلى قوة ارتباط الطرق الصوفية بالطوايف الاقتصادية والاجتماعية فى المدينة فيما يكشف لنا بتداخل التنظيمات الصوفية والطوايف

الحرفية. ونلاحظ أن تلك العوامل صهرت جسماً حضرياً طيعاً متآخياً ضخماً، جمع شرائح عديدة من أهل المدن والريف وتوفرت لديه إمكانية الحركة الجماعية المنتظمة من أجل هدف محدد.

وبالرغم من أن تلك التنظيمات قد وفرت أساساً عريضاً للتعبئة الجماهيرية، فإن آليات الحركة وردود الفعل فيها لم تتأثر باعتبارات المصلحة الاقتصادية ولكن بالمؤثرات المتعلقة بالاعتبارات الدينية وبالتقاليد المرعية. وليس بالمستبعد أن تتصف «التقاليد» أحياناً بمرونة تكاد تسمح باستيعاب أى سياسة قائمة وبالتعايش معها بالتدريج بغض النظر عن مضمونها الاقتصادى أو الاجتماعى.

هكذا، كانت التنظيمات الأهلية المؤثرة القائمة لا تمثل طبقة ذات مصالح مادية متبلورة محددة، فلم تخضع تحركاتها لأسباب أو قواعد ثابتة وماعت آليات الحركة لديها اشتعالا وخموداً.

وهكذا، كانت ردود فعل الأهالى ضد السياسات المختلفة تستوعب وتؤجل ما دام العلماء قادرين على القيام بالوساطة، وحتى لا تصل الأمور إلى درجة تهدد حتى حد الكفاف أو إلى صورة تتناقض تناقضاً صارخاً مع العرف والتقاليد المرعية. ولعل فى رواية الجبرتى لحركة عام ١٢٠٩/١٧٩٥ [انظر الجزء الثانى] ما يؤكد حقايق ثلاثاً: اشتعال الحركة عندما صدم الناس بما اعتبروه أول الأمر لا قدرة لهم به، ثم تطلعهم إلى قيادة مستمدة من أحد زعماء الطرق الصوفية (الشيخ السادات)، ثم استيعابهم آخر الأمر ما رفضوا فى أوله:

«(وفى شهر الحجة) وقع به من الحوادث أن الشيخ الشرقاوى له حصة فى قرية بشرقية بلبيس حضر إليه أهلها وشكوا من محمد بك الألفى، وذكروا أن اتباعه حضروا إليهم وظلموهم وطلبوا منهم ما لا قدرة لهم عليه واستغاثوا بالشيخ فاغتاظ وحضر إلى الأزهر وجمع المشايخ وقفلوا أبواب الجامع وذلك بعدما خاطب مراد بك وإبراهيم بك فلم يبديا شيًا، ففعل ذلك فى ثانى يوم وقفلوا الجامع وأمروا الناس بغلق الأسواق والحوانيت، ثم ركبوا فى ثانى يوم واجتمع عليهم خلق كثير من العامة وتبعوهم وذهبوا إلى بيت الشيخ السادات، وازدحم الناس على بيت الشيخ من جهة الباب والبركة بحيث يراهم إبراهيم بك وقد بلغه اجتماعهم، فبعث من قبله أيوب بك الدفتردار فحضر إليهم وسلم عليهم ووقف بين يديهم وسألهم عن مرادهم فقالوا له نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكوسات التى ابتدعتموها

وأحدثتموها، فقال لا يمكن الإجابة إلى هذا كله فإننا إن فعلنا ذلك ضاقت علينا المعايش والنفقات، فقيل له هذا ليس بعذر عند الله ولا عند الناس، وما الباعث على الاكثار من النفقات وشراء المماليك، والأمير يكون أميرا بالإعطاء لا بالأخذ، فقال حتى أبلغ وانصرف، ولم يعد لهم بجواب، وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر واجتمع أهل الأطراف من العامة والرعية وباتوا بالمسجد، وأرسل إبراهيم بك إلى المشايخ يعضدهم ويقول لهم أنا معكم وهذه الأمور على غير خاطرى ومرادى، وأرسل إلى مراد بك يخيفه عاقبة ذلك. فبعث مراد بك يقول أجيبكم إلى جميع ما ذكرتموه إلا شيئين: ديوان بولاق وطلبكم المنكسر من الجامكية ، ونبطل ما عدا ذلك من الحوادث والظلم، وندفع لكم جامكية سنة تاريخه اثلاثا، ثم طلب أربعة من المشايخ عينهم بأسمايهم فذهبوا إليه بالجيزة فلاطفهم والتمس منهم السعى فى الصلح على ما ذكر، ورجعوا من عنده وباتوا على ذلك تلك الليلة، وفى اليوم الثالث حضر الباشا إلى منزل إبراهيم بك واجتمع الأمرا هناك وأرسلوا إلى المشايخ فحضر الشيخ السادات والسيد [عمر مكرم] النقيب والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير، وكان المرسل إليهم رضوان كتخدا إبراهيم بك فذهبوا معه ومنعوا العامة من السعى خلفهم، ودار الكلام بينهم وطال الحديث وانحط الأمر على أنهم تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلما عليهم، وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعماية وخمسين كيسًا موزعة، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق، ويبطلوا رفع المظالم المحدثة والكشوفيات والتفاريد والمكوس ما عدا ديوان بولاق وأن يكفوا أتباعهم عن امتداد أيديهم إلى أموال الناس، ويرسلوا صرة الحرمين والعوايد/ المقررة من قديم الزمان، ويسيروا فى الناس سيرة حسنة، وكان القاضى حاضراً بالمجلس فكتب حجة عليهم بذلك وفرمن [اصدر فرمان] عليها الباشا وختم عليها إبراهيم بك وأرسلها إلى مراد بك فختم عليها أيضًا، وانجلت الفتنة، ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة، وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطالة من مملكة الديار المصرية، وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأسواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر، ثم عاد

كل ما كان مما ذكر وزيادة، ونزل عقيب ذلك مراد بك إلى دمياط وضرب عليها الضرايب العظيمة وغير ذلك».

ثالثا: الخلاصة

كان للعلاقات الطبقية ولممارسات الحكم التى سادت المجتمع المصرى فى أواخر القرن الثامن عشر آثار بعيدة المدى، امتدت إلى أبعد من الواقع القايم وقتها لتنال من آفاق التطور المستقبلية.

فلقد ولدت تلك العلاقات والممارسات حلقة مفرغة أدت آلياتها المتواصلة إلى استنزاف مصادر الثروة بالبلاد من عوامل مادية وقوى بشرية، فتقلص الفايض المصرى وانعدم التراكم أو كاد وانكمشت القاعدة الإنتاجية للبلاد واجهدت قواها العاملة.

كما أدت أنماط السيطرة على أدوات الإنتاج والسلوك الاقتصادى والإدارى للطبقة الحاكمة إلى تجريد المجتمع المصرى من القدرة على إفراز قوى إنتاجية تناضل ضد النظام القايم لتغيير العلاقات الطبقية القايمة، فلقد أدى وقوع الشرايح الرئيسية فى الطبقة المتوسطة المصرية فى علاقة تبعية للطبقة الحاكمة أن أصبحت تلك الشرايح تتصف بالعجز والعقم والمحافظة، كما أجهض قوى التقدم فى مصر قيام التنظيمات الأهلية بها على أسس غير طبقية وبلوغ طبقاتها العامة حالة من الفقر والاستنزاف فى غياب قيادة منظمة ومحركة من الطبقة المتوسطة.

تلكم كانت ـ فى رأينا ـ أخطر نتايج نظم الحكم والسيطرة على مصادر الثروة وعلى توزيعها، وأبعد التداعيات أثراً على النظام الطبقى المتأصل فى مصر وقتها. ولعل فى الأسطر التالية المقتطفة من مؤلف الأستاذ فوزى جرجس عن تاريخ مصر السياسى منذ العصر المملوكى تلخيصا بليغا لانعكاس تلك التداعيات على التقدم التقنى والنضج الاجتماعى للمجتمع المصرى وقتها، إذ أن فى أحداث التاريخ أبلغ تلخيص لكل ما يعتمل بالمجتمعات البشرية المعاصرة لبعضها البعض من أمور تحدد الوضع النسبى لكل منها ومحصلة مراعاتها ومصائر كل منها عند المواجهة والاصطدام. تأمل فى الأسطر التالية التى يرسم فيها فوزى جرجس مشهد المواجهة بين المماليك والفرنسيس:

«لم يكن هؤلاء المماليك، بل ورؤساؤهم الكبار بأقل عزلة عن الشعب نفسه، وليس أدل على هذا من أنه عندما حضر الأسطول البريطانى إلى ميناء الاسكندرية بحثًا عن الأسطول الفرنسى، سافر حاكم المدينة على

عجل إلى القاهرة، وأخبر مراد بك بما دار بينه وبين الرسول البريطاني، فنهره مراد بك وقال له دعهم ينزلون إلى البر، فسوف نفنيهم تحت سنابك خيولنا. ثم أمره بالعودة فوراً. وسد بوغاز رشيد بسلسلة غليظة، حتى لا تستطيع المراكب النصرانية اجتياز باب البوغاز. إن مراد بك لم يكن يدرى أن هناك ثورة حدثت فى فرنسا، وأن هناك صناعة حديثة متطورة أنتجت آلات حرب حديثة ومتطورة، وأن الجيش الفرنسى مشكل على أحدث الطرق العسكرية ويقوده قائد فذ له انتصارات عسكرية مذهلة.. لم يكن مراد بك يدرى شيئاً عن هذا، فقد كان يظن أن المسألة لا تتعدى فرساناً يقاتلون فرساناً. ولما كان المماليك خير من ركب جواداً ولعب بسيف، وتاريخهم عريق فى مثل هذه الحروب.. أليسوا هم الذين أوقفوا الزحف التترى تحت قيادة الظاهر بيبرس البندقدارى.. لذلك فليس هنا شك أن هزيمة الفرنسيين لن تستغرق منهم وقتاً طويلا أو مجهوداً عظيماً.. إن مراد بك لم يكن يدرك أن الاقطاع المتجمد يواجه الرأسماليةالصاعدة...*»

* انظر: الاقتصاد السياسى للقهر. عبد العزيز عز العرب دار المستقبل العربى. القاهرة ١٩٩٠ من ص ٤٠ إلى ص ١٤١.

موقف فرنسا من الصراع العثمانى الأوربى

قويت الاتصالات الفرنسية العثمانية منذ القرن السادس عشر واتسمت العلاقة بين الدولتين بالود والصداقة، ويرجع السبب فى ذلك أن أسرة الفالوا Valois [١] أرادات الاستعانة بالسلطنة العثمانية فى صراعها ضد دول أوروبا للسيطرة على إيطاليا[٢]. وقد تزايدت هذه الاتصالات فى عهد فرانسوا الأول ثم ابنه هنرى الثانى وقدم السلطان سليمان القانونى بالفعل المساعدات القيمة للفرنسيين. وكان رد الفعل الأوروبى ازاء هذه الاتصالات عنيفا فاعتبرها البابا «وصمة عار فى جبين فرنسا» وندد «بموقفها المزرى» على حد قوله لاتصالها بالمسلمين ويمكن تفسير ذلك بأن الدولة العثمانية نجحت فى ذلك الوقت فى تدعيم سيطرتها على البلقان بينما ما زالت أوروبا المسيحية متوثبة ومتحفزة ضد هذا المد الإسلامى الجارف الذى وصل إلى عقر دارها وكان البابا فى روما ما زال يسعى لتكوين الأحلاف الصليبية للتصدى لقوة الأتراك المسلمين، ولذلك كان اتصال أسرة فالوا بالسلطنة العثمانية أمرا غريبا على المجتمع الأوروبى فى ذلك الوقت ومن الصعب قبوله. ويمكننا القول بأن فرنسا أفادت بالفعل من هذه الاتصالات فقد قدمت لها السلطنة العثمانية

المساعدات القيمة أبان فترة الحروب الإيطالية، كذلك أثمرت هذه الاتصالات باستئثار الفرنسيين بالامتيازات التى منحت لهم عام ١٥٣٦م[٣].

شهدت السنوات الأولى من القرن السابع عشر بداية طيبة للعلاقات الفرنسية العثمانية خاصة فى عهد السلطان أحمد خان الذى قبل فى عام ١٦٠٤م تجديد الامتيازات الفرنسية، بينما نشط سفراء فرنسا فى الآستانة طوال القرن السابع عشر للعمل على تقوية النفوذ الفرنسى فيها. وإذا كانت فرنسا قد انشغلت فيما بعد بحرب الثلاثين عاما[٤] فى أوروبا، فقد انشغلت الدولة العثمانية بدورها باضطراب أوضاعها الداخلية ولكن بتولى الوزير كولبير Colbert مهام منصبه عمل على تقوية وتجديد الصلاة الفرنسية العثمانية والقضاء على كل ما يعكر صفو العلاقات بين البلدين. ونجح السفير الفرنسى جراردين Girardin عام ١٦٧٣م فى تجديد الامتيازات التى منحت للفرنسيين من قبل[٥].

وجدير بالذكر أن تجديد الامتيازات الفرنسية فى عام ١٦٧٣م لم يكن معناه استمرار العلاقات الودية بين الطرفين فقد تخللتها فترات من التوتر خاصة فى عهد الصدر الأعظم قره مصطفى الذى كان يتبع أسلوبا معاديا للأجانب وجاء ضرب الأسطول الفرنسى لجزيرة خيوة ١٦٨١[٦] ليزيد من استياء الباب العالى ضد الفرنسيين، ولذلك حرص السفير الفرنسى فى الآستانة على ارضاء الصدر الأعظم بالهدايا ليخفف من حدة غضب السلطان عليهم ولكن سرعان ما تحسنت العلاقة بين الدولتين فى عام ١٦٨٣م بفضل جهود الدبلوماسيين الفرنسيين فقوى النفوذ الفرنسى فى الآستانة حتى نهاية حكم لويس الرابع عشر وتوج الفرنسيون ثمرة جهدهم ونجحوا فى الحصول على عدة فرمانات عثمانية تخدم مصالحهم التجارية[٧] فنمت تجارتهم نموا ملحوظا منذ عام ١٦٨٥م[٨].

وقد ناقشت الدكتورة ليلى الصباغ الامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية للفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فذكرت أن مانتران Mentran رأى بأنها كانت منحة وكرما من الدولة القوية إلى فرنسا وقد أكد هذه الحقيقة المسئولون الأتراك[٩] بينما فسر البعض هذه الامتيازات بانها كانت بسبب تحول طريق التجارة نحو رأس الرجاء الصالح، واهتمام أوروبا بأمريكا القارة المكتشفة بدلا من الشرق مما دفع الدولة العثمانية لأن تكون أكثر مرونة فى علاقاتها التجارية، وأضاف فريق ثالث أن ضعف سلاطين الدولة بعد سليمان القانونى

كان من أهم الأسباب التى أدت إلى منح الأجانب الامتيازات ويمكن القول أن الأسباب السابقة دفعت السلطنة العثمانية لمنح الدولة الأوروبية الامتيازات خاصة فرنسا(١٠).

ويمكن القول انه حتى القرن السابع عشر حرص الطرفان على تحسين علاقاتهما. فالسلطنة العثمانية خشيت من انضمام فرنسا إلى الأحلاف المسيحية المعادية لها، كذلك أدرك ملوك أسرة البوربون Bourbon خاصة لويس الرابع عشر أهمية التحالف العثمانى ضد القوى السياسية فى أوروبا(١١).

وإذا كان القرن السابع عشر قد شهد تقاربا فرنسيا عثمانيا إلا انه شهد أيضا تعاظم خطرين على السلطنة العثمانية إلا وهما الخطر الروسى والنمساوى، فقد برزت قوة روسيا الجديدة بعد تولى بطرس الأكبر (١٦٨٢ ـ ١٧٢٥) الذى قام بالعديد من الإصلاحات ونجح فى أن يجعل روسيا تحتل مركزا سياسيا بين الدول الأوروبية، كما عمل على اتباع سياسة توسعية خارج بلاده فركز عملياته الحربية ضد كل من السويد، بولندا والسلطنة العثمانية وفى صراعه مع الأخيرة نجح فى الاستيلاء على حصن آزوف(١٢) عام ١٦٩٦ وانتزعه من أيدى القوات العثمانية(١٣).

ولم يقتصر الخطر المحدق بالسلطنة على العداء الروسى فحسب وإنما كان على الدولة مواجهة عدو آخر هى النمسا فكان على السلطان مصطفى خان الثانى أن يحارب فى جبهتين الأولى ضد روسيا والثانية ضد النمسا التى حشدت قواتها بقيادة القائد النمساوى أوجين دى سافوا ولكن الصدر الأعظم كوبريللى حسين أوقف القوات المتقدمة وأجبرها على التقهقر(١٥).

وبعد محادثات طويلة وقعت الدولة العثمانية معاهدة كارلوفيتز Carlowitz(١٦) عام ١٦٩٩م مع كل من روسيا ـ بولونيا ـ النمسا ـ البندقية. وتسجل هذه المعاهدة بداية انسحاب السلطنة العثمانية من الممتلكات التابعة لها واعترافها بذلك الانسحاب فى وثيقة رسمية(١٧) وهكذا بانتهاء القرن السابع عشر كانت السلطنة العثمانية قد بدأت تدخل مرحلة الضعف بصورة واضحة(١٨).

ومع مطلع القرن الثامن عشر كان على السلطنة العثمانية مراقبة نشاط روسيا والنمسا الطامعين فى أملاكها، فأولى السلطان أحمد خان الثالث(١٩) البحرية والأسطول اهتماما كبيرا فأكثر من المدارس البحرية وأصلح دار الصناعة فى استانبول خاصة وأن نشوب الحرب بين السويد وروسيا تم فى عهده ونجح ملك السويد شارل الثانى

عشر في دخول الأراضي الروسية. ؤوجدت السلطنة العثمانية أن الفرصة سانحة لها لتوجيه ضربة إلى قوة روسيا العسكرية فعملت على تشجيع ملك السويد، ولكن بطرس الأكبر نجح فى إلحاق الهزيمة به فى بلطاوة واضطر شارل الثانى عشر إلى اللجوء إلى السلطنة العثمانية عام ١٧٠٩م فتعقبته القوات الروسية ودخلت أراضى السلطنة العثمانية التى أعلنت بدورها الحرب على روسيا وتزعم بلطه جى محمد باشا حصار القوات الروسية بجانب نهر بروت حتى كاد بطرس الأكبر أن يقع فى الأسر(٢٠). ولكن سرعان ما وقعت معاهدة بين الطرفين هى معاهدة فلكزن عام ١٧١١م وبمقتضاها أخلى بطرس الأكبر آزوف Azov وتعهد بعدم التدخل فى شئون المنطقة(٢١). ثم جدد يوسف باشا الصدر الأعظم المعاهدة بين البلدين وعقد معاهدة جديدة تضمنت وقف الحرب بين البلدين لمدة ٢٥ عاما.

ولكن كان من الصعب على بطرس الأكبر أن يتخلى عن طموحه وسياسته التوسعية فنشبت الحرب من جديد بين الطرفين وانتهت بتوقيع معاهدة ادرنة عام ١٧١٣م وفيها تنازلت روسيا عن كافة أراضيها حول البحر الأسود(٢٢).

وكما تجددت الحرب بين السلطنة العثمانية وروسيا فقد تجددت مع النمسا أيضا بسبب رغبة السلطان فى الاستيلاء على كورفو فتقدمت القوات العثمانية إلى كارلوفيتز ولكن القوات النمساوية ألحقت بها الهزيمة واستولت على بلجراد عام ١٧١٧م واضطرت السلطنة لعقد معاهدة بساروفيتز Passarowitz عام ١٧١٨م (٢٣)حيث تنازلت فيها للنمسا عن أجزاء كبيرة من أراضيها(٢٤).

وقد سادت فترة من الهدوء بين السلطنة العثمانية والدول الأوروبية بعد توقيع معاهدة بساروفيتز، ولكن سرعان ما واجهت السلطنة العثمانية خطرا جديدا تمثل فى الحرب التى دارت بينها وبين فارس فى عهد السلطان محمود خان الأول(٢٥)، وطلب الشاه طهماسب توقيع معاهدة الصلح عام ١٧٣٢م ولكن القائد نادر شاه عارض المعاهدة وعزل الشاه وولى ابنه عباس الثالث بدلا منه وأقام نفسه وصيا عليه ثم قام بعدها بمحاصرة بغداد والموصل وحاول الوزير طوبال التصدى له ولكنه قتل، وبعدها دارت محادثات بين الطرفين وتم الاتفاق فى عام ١٧٣٦م فى مدينة تفليس على أن ترد السلطنة العثمانية كل ما أخذته من فارس وأن تكون حدود البلدين وفقا لمعاهدة ١٦٣٩م المبرمة مع مراد الرابع(٢٦).

ونلاحظ من خلال ذلك أن السلطنة العثمانية قد وزعت جهودها العسكرية ضد

القوات الأوروبية المتحالفة ضدها متمثلة فى روسيا والنمسا وكذلك اضطرت إلى مواجهة الفرس الذين كانوا يتحينون الفرصة لتوجيه الضربات إليها باعتبارها أكبر قوة إسلامية سنية موجودة فى ذلك الوقت.

هذا ولم يستمر الهدوء الذى ساد بين السلطنة العثمانية وروسيا طويلا فسرعان ما نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب مملكة بولونيا فقد تم الاتفاق سرا بين روسيا والنمسا وبروسيا عام ١٧٢٢م على عدم تعيين ملك وطنى فى بولونيا خوفا من اتحاد الأهالى ولكى يستمر اضعافها فيتم اقتسامها بعد ذلك، فلما توفى أوجست الثانى ملك بولندا انتخب الأهالى فى عام ١٧٣٣م ستانسلاس لكزينسكى ملكا عليهم بمساعدة فرنسا التى أرادت الابقاء على بولندا وعدم تقسيمها فأعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولندا ونادت بأوجست الثانى ملكا على البلاد فسارعت فرنسا بإعلان الحرب على النمسا دفاعا عن بولندا وسعت فرنسا لدى الباب العالى بواسطة المسيو دى بونفال Bonneval قائد الطوبجية لاستمالته للدفاع عن بولندا والانضمام إلى فرنسا لأن بولندا مثلت حاجزا بين روسيا وأوروبا، فوضحت له نوايا روسيا تجاه السلطنة العثمانية ورغبتها فى احتلال الآستانة، ولما شعرت النمسا بمساعى فرنسا أسرعت بدورها فى أرضائها فوقعت معها معاهدة «ويانة» فى عام ١٧٣٥م وأخذت النمسا تستعد مع روسيا لمواجهة السلطنة العثمانية فأغارت روسيا على القرم عام ١٧٣٦م كما احتلت كذلك ميناء آزوف وغيره من الثغور البحرية وحاول الصدر الأعظم مهاجمة القوات الروسية ولكنه اضطر لتوجيه جهوده صوب النمسا التى أغارت بدورها على البوسنة والصرب ونجحت القوات العثمانية فى النهاية فى إجبار النمسا على التراجع وطلب الصلح عام ١٧٣٧م فقد سارعت النمسا بطلب وساطة المسيو فيلينوف Villeneuve السفير الفرنسى فى الآستانة لكى يقنع السلطنة العثمانية بقبول عقد الصلح الذى تم فى عام ١٧٣٩م ووقعت كذلك معاهدة بلجراد التى تنازلت فيها النمسا عما استولت عليه من الصرب بمقتضى معاهدة بساروفيتس(٢٧)، بينما تعهدت روسيا بهدم قلاع آزوف وعدم تجديدها فى المستقبل وعدم إنشاء سفن سواء كانت حربية أم تجارية بالبحر الأسود أو بحر آزوف وكذلك أن تكون تجارتها على سفن أجنبية وأن ترد للسلطنة العثمانية كل ما ضمته من الأقاليم والبلدان السابق استيلاؤها عليها، وبذلك نلاحظ أن السلطنة العثمانية نجحت فى معاهدة بلجراد فى استرداد جزء كبير مما فقدته من قبل فى معاهدة كارلوفيتز(٢٨).

يتضح لنا مما سبق الدور الهام الذى لعبه السفراء الفرنسيون فى توجيه سياسة السلطنة العثمانية وفق مصالح بلادهم السياسية فقد طالبوها بمساندة بولندا ثم عقدوا صلحا منفردا مع النمسا، كذلك لعبوا دورا فى الوساطة بين السلطنة العثمانية وأعدائها وذلك وفق ما تقتضيه مصالحهم لا مصالح السلطنة العثمانية.

ولما كانت فرنسا نفسها تخشى من نمو وتصاعد الخطر الروسى فقد نشط سفيرها فى الآستانة المسيو فيلينوف لاقناع السلطنة العثمانية بمدى خطورة روسيا وتعاظم قوتها ونجح فى اقناع السلطنة العثمانية بالتحالف مع السويد ضد روسيا وعقد الباب العالى بالفعل محالفة مع السويد فى عام ١٧٤٠م، وفى العام نفسه نجح السفير الفرنسى فى الحصول على حق تجديد الامتيازات الممنوحة للتجار الفرنسيين وأرسل السلطان العثمانى محمد سعيد مبعوثا إلى الملك لويس الخامس عشر ليقدم له صورة المعاهدة بين الدولتين وهى مطابقة لمعاهدة عام ١٦٧٣م ولكن مع بعض التسهيلات الجديدة وحرص السلطان على ارسال الهدايا الثمينة مع البعثة العثمانية فأحسن الملك مقابلة البعثة وأرسل معها عند عودتها مركبتين حربيتين ومدفعية فرنسية ومعلمين فرنسيين لتدريب الجيش العثمانى على النظام العسكرى الجديد الذى أدخله لوفوا Louvois الفرنسى الشهير فى القوات الفرنسية آنذاك(٢٩).

لقد ازداد هذا التقارب الفرنسى من الباب العالى عندما نشبت حرب الوراثة النمساوية(٣٠) فى أوروبا، وحاولت فرنسا تحريض الباب العالى على محاربة النمسا فعرضت عليه احتلال المجر واسترجاع الأملاك العثمانية لكى تعود السلطنة العثمانية إلى ما كانت عليه من اتساع فى عهد سليمان القانونى، ولكن السلطان محمود لم يقبل تغيير مسلكه السلمى بل انه استمر متمسكا بمعاهدة الصلح مع النمسا مظهر حرصه على السلام.

حرصت فرنسا حتى منتصف القرن الثامن عشر على التقرب من السلطنة العثمانية لعدة أسباب منها رغبتها فى تجديد امتيازاتها التجارية والحصول على المزيد منها، وكذلك للإفادة من السلطنة ودفعها لمحاربة منافسيها خاصة روسيا والنمسا للحيلولة دون توسعهما، كذلك نلاحظ أن السلطنة العثمانية حتى منتصف القرن الثامن عشر ورغم ما منيت به من هزايم إلا أنها واصلت رد ودفع الخطر الأوروبى وعملت على التصدى له. ولكن اختلف الأمر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر فقد تزايد العداء

بين السلطنة العثمانية وروسيا بصورة خطيرة خاصة بعد تولى كاترين الثانية الحكم والتى عملت على اتباع سياسة بطرس الأكبر التوسعية وسارت على نهجه فى محاربة السلطنة العثمانية فأعلنت الحرب عليها فى عام ١٧٦٨م، كما عملت على تحريض الرعايا المسيحيين التابعين للسلطنة العثمانية على الانفصال عنها.

استمرت الحرب بين الطرفين ست سنوات منيت خلالها السلطنة العثمانية بالعديد من الهزائم الفادحة واضطرت فى النهاية إلى القبول بتوقيع معاهدة كتشك كينارجى Kutchek Kainardji عام ١٧٧٤م وبمقتضى هذه المعاهدة تحول البحر الأسود من بحيرة عثمانية إلى بحيرة روسية وتقرر لروسيا الحق فى إنشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود وبذلك أصبحت روسيا إحدى دول البحر الأسود المعترف بها كما تقرر لها الحق فى إنشاء قواعد عسكرية بحرية وبرية على سواحل البحر الأسود كما تقرر لها الحق فى أن تستخدم سفنها التجارية المضايق للخروج من هذا البحر إلى البحار العامة (البحر المتوسط) والدخول منها إليه. وقد ورد فى المعاهدة مسألتان الأولى هى الحقوق الملاحية لروسيا فى البحر الأسود والمضايق والثانية هى الوجود العسكرى البحرى والبرى فى البحر الأسود. وقررت المعاهدة السماح للرعايا الروس بممارسة التجارة فى جميع ولايات السلطنة العثمانية وأن يطبق عليهم نظام الامتيازات مثل رعايا بريطانيا وفرنسا، وقد فاقت معاهدة كينارجى المعاهدات السابقة وشكلت نموذجا للعلاقة بين السلطنة العثمانية وروسيا.

ثم دخلت السلطنة العثمانية فى حرب جديدة ضد روسيا عام ١٧٨٨م شاركت فيها النمسا وانتهت بتوقيع معاهدة ياسى Jassy عام ١٧٨٢م التى حصلت روسيا بمقتضاها على عدد من الموانى عند مصب نهر الدانوب وكان السبب المباشر لهذه الحرب الأخيرة أن كاترين الثانية دأبت بعد معاهدة كينارجى على اشعال الفتنة بين رعايا السلطنة العثمانية الأرثوذكس فى البلقان وبحر إيجة وأمدتهم بالأسلحة والمال فاضطرت السلطنة العثمانية لاعلان الحرب عليها.

وجدير بالذكر أن فرنسا خلال الحرب التركية (١٧٦٨ ـ ١٧٤٤م) خشيت سقوط السلطنة العثمانية فعمل البارون دى توت على تحصين الدردنيل وإصلاح القلاع وامدادها بالمدافع الضخمة بحيث جعل المرور من المضايق أمرا مستحيلا ثم حول

عدة مراكب تجارية إلى سفن حربية وأسس مدرسة لتخريج ضباط البحرية واهتم بتدريبهم على أحدث الأسلحة. فقد خشيت فرنسا انهيار السلطنة وما يترتب على ذلك من تصاعد النفوذ الروسى، كذلك أرادت الحفاظ على تجارة أسكلات (موانى) الشرق ومصالحها التجارية فيها ودأب السفير الفرنسى فرجين على تحريض السلطان العثمانى ضد روسيا.

لقد تعرضت السلطنة العثمانية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر لتآمر دولتين كبيرتين: روسيا من الشمال والنمسا من الغرب ودخلت السلطنة العثمانية فى عدة حروب أخرى طاحنة مع روسيا التى اتخذت من حماية المسيحيين الأرثوذكس ذريعة لمحاربة السلطنة العثمانية ولم يوقف من عمليات سحق السلطنة العثمانية والقضاء عليها فى نهاية القرن الثامن عشر سوى قيام الثورة الفرنسية وانصراف روسيا والنمسا إلى مشاكل أوروبا.

وبذلك يمكننا القول أن الفترة التى أعقبت معاهدة كتشك كينارجى وحتى نهاية القرن الثامن عشر من أحلك الفترات التى عانت منها السلطنة العثمانية ولا ننسى تشجيع الروس للحركات الانفصالية عن السلطنة فى الولايات العربية خاصة فى الشام ومصر، أى أن دورهم فى تشجيع الولايات على الانفصال عن السلطنة العثمانية لم يقتصر على الولايات والمناطق التى يقطنها أغلبية مسيحية فقط.

فرنسا وفكرة تقسيم السلطنة العثمانية

دافع الساسة الفرنسيون عن فكرة الإبقاء على السلطنة العثمانية وعارضوا فكرة تقسيمها ومن أبرز أنصار هذه الفكرة السفير الفرنسى فى الآستانة سان بريبيه Saint Priest الذى مكث فترة طويلة فى منصبه مما أتاح له فرصة مراقبة الطامعين فى السلطنة من جيرانها خاصة النمسا وروسيا. وقد تمتع سان بريبيه بثقة سلاطين السلطنة العثمانية فكلفوه بالوساطة بينهم وبين كاترين الثانية وجوزيف الثانى وقد أرسل دى بريبيه العديد من التقارير إلى الحكومة الفرنسية منبها ومحذرا من تزايد الخطر النمساوى وموضحا أطماعها فى الدانوب كذلك نبه لحالة الضعف الشديدة التى وصلت إليها السلطنة العثمانية وأظهر تخوفا كبيرا من أطماع روسيا فى ممتلكاتها.

كذلك ناقش الساسة الفرنسيون والقناصل مسألة سقوط السلطنة العثمانية فقدم مور القنصل الفرنسى فى الاسكندرية تقريرا فى عام ١٧٨٣ ١٧٨٣م تنبأ فيه بسقوط السلطنة العثمانية، ولكن الكونت

فرجين Vergenne وزير الخارجية الفرنسية لم يتفق معه فى الرأى وأكد أن الامبراطورية العثمانية ليست وشيكة الانحلال بالصورة التى تنبأ بها كل من مور أو سان برييه فى الآستانة ولكنه فى الوقت نفسه نبه على ضرورة المحافظة على علاقات الود والصداقة مع السلطنة العثمانية.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من مساندة فرنسا للسلطنة العثمانية ودعوتها للإبقاء على السلطنة العثمانية ومنع انهيارها، إلا أن الشعوب المسيحية الخاضعة للسلطنة العثمانية قد نظرت إلى فرنسا باعتبارها المنقذ لها من سيطرة السلطنة العثمانية وهيمنتها عليهم وخاصة بعد المساعدات القيمة التى قدمتها الحكومة الفرنسية للثوار الأمريكيين من أجل الحصول على استقلالهم عن بريطانيا، وندلل على ذلك بالرسالة التى أرسلها مواطنو كاندى [كريت] فى ١٢ يونيو عام ١٧٨٥م إلى الملك لويس السادس عشر يطلبون منه فيها المساعدة والتدخل ومساندتهم ضد السلطنة العثمانية كما فعل من قبل مع ثوار أمريكا وقد وجد هذا الاتجاه تشجيعا من بعض الساسة الفرنسيين فكتب البارون دى برتيه Bertier رسالة يوضح فيها للحكومة الفرنسية أهمية كاندى ومطالبا بتقديم يد المساعدة إلى أهالى الجزيرة للتخلص من السيطرة العثمانية.

ولكن فرنسا ظلت على سياستها التى انتهجتها إلا وهى المحافظة والإبقاء على السلطنة العثمانية وحذر الدوق لوزرن Lauzern الذى أرسل مبعوثا إلى كاترين الثانية فى روسيا من أطماع الأخيرة فى ممتلكات السلطنة العثمانية فكتب فى تقريره الذى رفعه إلى حكومته «أن الأمبراطورة تريد طرد الأتراك من أوروبا، وتريد أن يكون مقر عرشها فى القسطنطينة».

وإذا كان السفير الفرنسى سان برييه قد تبنى لمدة ستة عشر عاما فكرة المحافظة والإبقاء على السلطنة العثمانية إلا أن خلفه شوازيل جوفييه Choisoul-Gouffier كان له رأى آخر فقد رأى ضرورة تقسيم الامبراطورية العثمانية وأن تكون مصر من نصيب فرنسا.

ويمكننا القول انه فى القرن الثامن عشر قد ظهرت عدة مشاريع لتقسيم السلطنة العثمانية، فمنها المشروع الروسى الذى يتلخص فى أن يكون لروسيا حق الزعامة على المسيحيين التابعين للسلطنة العثمانية وهذا بالطبع يعنى إحياء الامبراطورية البيزنطية القديمة بزعامة روسيا والعمل على إعادة مجدها القديم(٤٤). أما المشروع الثانى وهو المشروع اليونانى الذى تضمن استبعاد السلطنة العثمانية من أوروبا وتقسيم

ممتلكاتها بين روسيا والنمسا على أن يكون البلقان من نصيب النمسا أما استانبول وتراقيا ومقدونيا وبلغاريا واليونان فتكون من نصيب روسيا. ويبدو أن الساسة الفرنسيين أعجبوا بالمشروع الأخير لأنه بمقتضاه تحصل فرنسا على مصر وسوريا وتشارك بريطانيا فى تجارة حوض البحر المتوسط الشرقى، وتأكيدا لهذا المشروع سحبت فرنسا مستشاريها العسكريين من الجيش العثمانى عام ١٧٨٦م ثم ما لبثت أن وقعت معاهدة صداقة وتجارة فى عام ١٧٨٧م مع روسيا.

ولكن رغم هذا التغير فى السياسة الفرنسية وبعد قبول فرنسا توقيع معاهدة الصداقة مع روسيا إلا أن الخط العام للدولة ظل قائما على سياسة المحافظة على ممتلكات السلطنة العثمانية وكذلك المحافظة على الوضع القائم فيها وعدم فتح باب مناقشة تقسيم السلطنة لما سيؤدى إليه من قلاقل. ونستدل على ذلك أن فرنسا أعادت خبراءها العسكريين إلى السلطنة العثمانية فعندما أظهر السلطان العثمانى سليم الثالث. ميلا نحو الإصلاح وإخراج البلاد من عزلتها والأخذ بأسباب المدينة الأوروبية خاصة من فرنسا استدعى السفير الفرنسى فى الآستانة عام ١٧٩٦م، عددا من المهندسين والضباط الفرنسيين لتدريب فرق الفرسان العثمانية على الطراز الأوروبى فكان من الطبيعى أن ينظر الروس لهذه التجديدات بعين الحسد والحقد.

وسرعان ما تغيرت العلاقة بين السلطنة العثمانية وفرنسا وذلك بمجىء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، فأسرعت السلطنة العثمانية بإبرام تحالف دفاعى مع روسيا عام ١٧٩٨م للدفاع عن استانبول وكانت مدة التحالف هذا ثمانى سنوات، عقد بين السلطان سليم الثالث والقيصر بول الأول وخرج بذلك السلطان سليم الثالث عن السياسة العليا التى رسمها حكام السلطنة العثمانية.

وهكذا شهدت السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تحولا كبيرا فى العلاقات الفرنسية العثمانية.

مصر فى مخططات الساسة الفرنسيين

يرجع اهتمام فرنسا بمصر فى القرنين السادس عشر والسابع عشر إلى حرصها على التعرف على إمبراطوريات الشرق العظيمة خاصة الامبراطورية العثمانية والفارسية والصينية والهندية فقد كان الاهتمام بمصر فى ذلك الوقت جزءا من الاهتمام الأكبر والأهم بالامبراطورية المهيمنة على مصر ألا وهى السلطنة العثمانية. أما فى

القرن الثامن عشر فقد اختلف الوضع فقد اهتمت فرنسا بمصر لذاتها فقد لفتت ثروات مصر الزراعية، وموقعها الجغرافى الهام اهتمام الساسة الفرنسيين، ويرجع الفضل فى ذلك إلى كتابات الرحالة الفرنسيين والقناصل الذين كتبوا بإفاضة عنها فلم تعد معرفة الفرنسيين بها قاصرة على مدن مصر السفلى وأهم المزارات المسيحية فيها كما كان الحال عليه فى القرنين السابقين وإنما اكتملت صورة مدن مصر بعد أن جاب هؤلاء الرحالة مدن مصر العليا وتعمقوا فيها مسجلين مشاهداتهم وملاحظاتهم مؤكدين على ضرورة الاستيلاء على هذا البلد الغنى بموارده ومن هنا ظهرت فكرة غزو مصر لدى الساسة فى فرنسا فى القرن الثامن عشر.

وجدير بالذكر أن فكرة غزو مصر لا يمكن أن تنسب إلى القرن الثامن عشر فحسب وإنما روج لها بعض الرحالة والساسة منذ القرن السابع عشر فدعا الرحالة الفرنسى الأب كوبان فى النصف الأول من القرن السابع عشر إلى غزو مصر ونشر رحلته عن مصر فى كتاب عن الحروب الصليبية حرض فيه وعمل على إثارة حماس العالم المسيحى لغزو مصر مذكرا الأوروبيين بأمجاد جودفرى بويون وغيره. كذلك دعا إلى اتحاد أوروبا ضد السلطنة العثمانية وتحرير الشرقى المسيحى منها.

ثم تجددت هذه الفكرة فى عهد لويس الرابع عشر إذا عرض عليه الفيلسوف الألمانى ليبنتز Leibnitz مشروعا لغزو مصر عام ١٦٧٥ م موضحا فوايده خاصة وأنه سيمكن فرنسا من احتكار تجارة الهند وجاء رد السفير الفرنسى أرنولد دى بونبون Arnauld De Pomponne بأن الملك اتطلع على المشروع ولكن «مشروعات الحروب المقدسة لم تعد مناسبة منذ عهد لويس التاسع».

والواقع أن ليبنتز نادى بغزو مصر وعكف على وضع مشروعه بعد نجاح موقعة سان جوتار عام ١٦٦٤ م فقدمه إلى الوزير الفرنسى ورغم أن الأخير أجابه برفض المشروع إلا أن ليبنتز ظل يراسل لويس الرابع عشر موضحا أهمية غزو مصر حتى عام ١٦٧٦ م وما زالت تقاريره ومذكراته محفوظة فى مكتبة هانوفر. وقد حاول ليبنتز إثارة حماس لويس الرابع عشر فأكد له «أن الغزو سيؤدى إلى القضاء على منافسة هولندا له لأن مصر هى الميدان الذى من الممكن توجيه ضربة منه إلى هولندا، وانها هى الطريق الحقيقى إلى الهند وباحتلالها سوف يمتلك زمام التجارة وينتزعها من يد الهولنديين» كذلك أكد له «انه سيتمكن من

بسط سلطان فرنسا وسيادتها في بلاد الشرق وتكسبون عطف المسيحية وتستحقون ثناءها.

ويمكننا القول أن فكرة غزو مصر في القرن السابع عشر لم تقتصر على ليبنتز وحده وإنما نادى بها سفراء فرنسا في الآستانة نخص منهم دنيس دى هاى Denis De Haye والماركيز دى نوانتيل De Nointel وجيرردان Girardin ، وقد أثيرت هذه الفكرة في عهد لويس السادس عشر حيث عكفت الحكومة الفرنسية على دراسة هذا المشروع دراسة جدية. وقد وجدت التقارير الخاصة بغزو مصر في المكتبة الوطنية في باريس، كذلك وجد مخطوط يناقش هذه الفكرة.

وجدير بالذكر أن السفير الفرنسي في الآستانة سان بربيه الذى دافع عن فكرة الإبقاء على الامبراطورية العثمانية وعدم تقسيمها بين الدول الأوروبية دعا لغزو مصر فكتب في ١٧ يوليو عام ١٧٦٨ م معللا فكرة الغزو «لأن مصر تعتبر دولة ذات طابع مستقل».

ولا شك أن فكرة الغزو نمت حسب أحوال فرنسا الداخلية فعندما هزمت فرنسا في حرب السنوات السبع وفقدت ممتلكاتها في العالم الجديد والهند ظهرت هذه الفكرة بصورة قوية ونستدل على ذلك مما كتبه الدوق شوازيل إلى الكونت فرجين عام ١٧٦٦ م يطالب «بغزو مصر لكى تكون بديلا عن أمريكا الضائعة والهند». وعندما ظهرت مشروعات تقسيم السلطنة العثمانية بين روسيا والنمسا رحب دى شوازيل بالفكرة عام ١٧٦٩م على أن تكون مصر من نصيب فرنسا وبعد مضى أكثر من عشرين عاما على كتابات دى شوازيل ومقترحاته عن غزو مصر نجد أن السياسى الفرنسى الشهير تاليران Talleyrand يثنى عليه فيكتب في عام ١٧٩٧ م أى قبيل الحملة الفرنسية «أن الدوق دى شوازيل كان من القلايل الذين امتازوا بأن لديهم حاسة نحو المستقبل فاقتراحه بغزو مصر كان اقتراحا صائبا من أجل تنمية التجارة ولتعويض فرنسا عما فقدته من مستعمرات في أمريكا والهند».

وكما ذكرنا من قبل أن فكرة الغزو أصبح لها صفة رسمية منذ عهد لويس السادس عشر ففى عام ١٧٧٧ م أرسل البارون دى توت للعمل مفتشا لأسكلات الشرق ولكن كانت له مهمة أخرى سرية إلا وهى بحث إمكانية غزو مصر فزار المدن الساحلية الهامة في مصر كأبى قير والاسكندرية ودمياط ورشيد فدون ملاحظاته حول تحصينات هذه المدن وأكد

أهمية غزو مصر «لأنه مشروع هين» على حد قوله ولكن بعثة دى توت لم تكن لها أية نتايج مباشرة لانشغال فرنسا بتدعيم ثوار أمريكا للاستقلال عن بريطانيا.

وخلال عام ١٧٧٧ ـ ١٧٧٨م قدم سان بريبه عدة تقارير إلى الوزير فرجين تضمنت جميعها غزو مصر موضحا «خصوبة أراضيها حيث ينمو فيها النبات دون زراعة وبذلك نتمكن من تعويض جميع محاصيل مستعمراتنا التى فقدناها فى كندا كما أن القوة الحاكمة من السهل القضاء عليها». وفى عام ١٧٨٠م وضع القس رينل Raynal كتابا أوضح فيه أهمية الاستيلاء على مصر لتعويض فرنسا عما فقدته بعد هزيمتها فى حرب السنوات السبع.

وأثناء حرب الاستقلال الأمريكية وضع البارون ولدنيه Waldner عام ١٧٨٢م مشروعا بالاستيلاء على مصر واستبعاد تجارة بريطانيا من البحر الأحمر والهند. وفى عام ١٧٨٣م تخوف مور القنصل الفرنسى فى الاسكندرية من غزو النمسا لمصر وإمكانية تعاونها مع الامبراطورة كاترين الثانية فى روسيا فكتب «أن تجارة الشرق خاصة مصر تعطى نشاطا وحيوية كبيرة للبحرية، وأن احتلال مصر يعوضنا عن منتجات أمريكا» «أن أسطولا فرنسيا مكونا من ١٢ إلى ١٥ سفينة فى السويس قادر على أن يحول فرنسا إلى سيدة الموقف فى البحر الأحمر»، وطالب مور بتدعيم السيطرة الفرنسية على مصر العليا ووضع قوة عسكرية فرنسية عند الشلال الأول لمد النفوذ على بلاد النوبة ووضع فصايل من الجنود من القاهرة حتى أسوان، كذلك توزيع قوات عسكرية فى الفيوم ودمنهور لمراقبة عرب البحيرة وتركيز قوات بين الاسكندرية وطرابلس.

وفى عام ١٧٨٣م أرسلت فرنسا بعض ضباط البحرية ليتعرفوا على النقاط الحربية الهامة فى مصر فقدمت البعثة برياسة الكونت بونفال Bonneval ثم تبعه برفاليه La Prevalay الذى حاول عقد اتفاق مع المماليك ولكنه فشل فأرسلت الحكومة الفرنسية تروجيه عام ١٧٨٥م للتفاوض مع المماليك.

وفى عام ١٧٨٤م أوضح السفير الفرنسى فى الآستانة شوازل جوفييه فى مذكرة إلى فرجين وزير الخارجية. مدى الضعف الذى أصاب السلطنة العثمانية وأعرب عن تخوفه من تزايد النفوذ الروسى والبريطانى وأعرب عن أسفه من أن الملك لويس السادس عشر لم يكن لديه طموح الامبراطورة كاترين امبراطورة روسيا ولا جوزيف الثانى امبراطور النمسا.

ومن الطريف انه في سنة ١٧٨٦م استقدم إبراهيم بك أعدادا كبيرة من المماليك من جورجيا والقوقاز فتخوف شوازل من ذلك وكتب إلى حكومته «لقد أرسلت روسيا إلى إبراهيم بك ٥٠٠ جندى وأننى أخشى من المد الروسى».

وقبيل نشوب الثورة الفرنسية خرج مشروع غزو مصر من نطاق السرية وأصبح يناقش علنيا في باريس ففي عام ١٧٨٧م قدمت مذكرتان إلى الحكومة الفرنسية الأولى مجهولة الكاتب والثانية كانت بتوقيع ريمون ليبون Raymond Lebon أوضحت المذكرات أهمية الاستيلاء على رودس «لأنها مدخل أوروبا وآسيا كما أنها في مواجهة الميناء القديم الشهير الاسكندرية». وأكد ريمون ليبون في مذكرته أهمية رودس كطريق تجارى إلى السويس «أن مركز جزيرة رودس كطريق تجارى تسمح بقيام نشاط تجارى وصناعى سواء مع فارس عن طريق البحر الأسود أو مع مصر عن طريق ميناء رشيد» كما أن رودس سوف تتيح لنا الحصول على منتجات الهند عن طريق البحر الأحمر وتصل هذه المنتجات إلى القاهرة بواسطة القوافل.

أما المذكرة الثانية وكانت عن احتلال رودس أيضًا «من أجل مركزها بين مصر والبحر الأسود»، «ولو أحكمت فرنسا السيطرة على رودس فانها تستطيع أن تكون عن طريق البحر الأحمر تجارة تدر عليهم الأرباح».

وعندما قامت الثورة الفرنسية عين ماجالون Magallon قنصلا في مصر عام ١٧٩٣م ولعب دورا هاما في تنبيه حكومة بلاده إلى أهمية الاستيلاء على مصر فكتب يقول «ولابد من انهاء عبث الحكام المماليك بمصالح فرنسا التجارية، ولابد للجمهورية أن تستخدم القوة لغزو مصر للمزايا والفوايد السياسية والاقتصادية التى سوف تجنيها فرنسا من سيطرتها على مصر وعلى البحر الأحمر». وأوضحت تقارير ماجالون مزايا الاستيلاء على مصر لخصوبة أراضيها وتحويلها إلى مستعمرة زراعية وسوق لتوزيع السلع. وذكر في أحد تقاريره «أن اجمل هدية تقدم إلى الشعب الفرنسي هي غزو مصر». وأوضح ماجالون في تقرير كتبه في ١٠ أكتوبر عام ١٧٩٥م «أن الفترة الزمنية التى يمكن للقوات الفرنسية أن تتحرك فيها من فرنسا إلى الهند عبر مصر والبحر الأحمر قبل أن تتمكن القوات البريطانية من مطاردتها تستغرق نحو ٤٥ يوما قبل أن يكون لدى بريطانيا فسحة من الوقت لتتخذ أى إجراء مضاد».

إذا كنا قد استعرضنا موقف فرنسا الرسمي من فكرة غزو مصر فينبغي لنا أن

نذكر ما كتبه الرحالة الفرنسيون عن هذه الفكرة نخص بالذكر منهم كلا من سونيني دى مانكور وأوليفيه، الأول زار مصر بعد نشوب الثورة الفرنسية والثاني زارها في عهد حكومة الإدارة ولنقرأ ما سجله سونيني «لابد من غزو مصر للإفادة من ثرواتها، فضلا عن أن بريطانيا استأثرت بالهند وأصبحت ممتلكاتها فريسة في يدها، فمن الأفضل لفرنسا أن تستولى على مصر، فهي تقع على ساحل افريقيا، وتعتبر همزة الوصل بين آسيا وأوروبا، ومن الممكن أن تكون مركزا لتجارة العالم لو استولت عليها فرنسا، فمصر هي مهد العلوم والفنون وسوف تنتعش تجارتها مما يتيح لفرنسا أن تكون أكثر دول العالم ثراء بسبب التجارة».

أما أوليفيه فقد كتب «مصر هى الانحطاط والجهل والبؤس والطغيان، انها تنحنى دايما أمام اقدام الأجانب، طوال تاريخها، وذلك بسبب موقعها الجغرافى وأراضيها الخصيبة ولا نستطيع أن نعدد الغزوات التى تعرضت لها مصر، وهى من السهل غزوها»، كذلك دعا أوليفيه لانفصال مصر عن الباب العالى لأن ذلك «سيؤدى إلى استقرار الفرنسيين وتجارتهم ولا سيما أن المماليك لا يكفون عن التطاحن، والسلطنة العثمانية عاجزة عن القضاء على سلالة العبيد الآسيوية بسبب انتشار الفوضى ولابد من غزو مصر لإعادتها إلى عظمتها والإفادة من طريق البحر الأحمر، وفتح الموانى للملاحة مع الهند ولابد وأن تعود للإسكندرية مكانتها السابقة» وعدد أوليفيه الفوايد التى سوف تعود على فرنسا من الغزو «ستصبح مصر أغنى دولة فى العالم وفى نفس الوقت سيضيف الغزو مجدا عسكريا لفرنسا». «وينبغى علينا ألا ننتظر سقوط السلطنة العثمانية لتكون مصر من نصيبنا أن الغزو سيتيح لنا الحصول على المنتجات الفارسية والصينية والحبشية» «لابد من جيش من العلماء والعسكريين ليصاحبوا الحملة المعدة لاحتلال مصر» «وسوف ينظر إلينا الشعب المصرى على اننا محرروه» «أن سكان مصر أصيبوا بالعمى ولا يعرفون مصالحهم الحقيقية وانه من مصلحتهم إبعاد سلالة المماليك الذين جلبوا عليهم العار، لابد من إحلال أمة جديدة حرة تفتح أبوابها أمام التجارة وتعمل على تطوير الصناعة، يجب ألا نترك مصر غارقة فى يد البرابرة».

نلاحظ مما كتبه الرحالة الفرنسيون تركيزهم على مصالح فرنسا التجارية والفوايد التى ستعود عليها من جراء غزو مصر، ولكنهم حرصوا على أن يحيطوا أطماعهم بهالة من المبادىء الإنسانية مثل انقاذ شعب مصر من «الطغاة المماليك» وإدخال المدنية الحديثة فى البلاد. ولا شك

أن هذه المبادىء ما كانت تذكر إلا لخدمة أهدافهم السياسية ولا ننسى أن القرن الثامن عشر هو عصر ظهور الحركة الفكرية فى فرنسا وما استتبع ذلك من نشر الأفكار الحرة فنادى المفكرون بأن فرنسا عليها التزام حضارى ازاء الشعوب المتخلفة، ولكن فى حقيقة الأمر أن فرنسا أرادات بعد هزيمتها المريرة فى حرب السنوات السبع وانتزاع ممتلكاتها فى الهند واستبعاد نفوذها من أمريكا الشمالية أن تعوض ما فقدته وقد وجدت فرنسا بالفعل البديل فى الهند فسعت فى أعقاب حرب السنوات السبع فى تكوين امبراطورية استعمارية كبيرة فى الهند الصينية، كذلك سعت للبحث عن أماكن جديدة تعوضها عما فقدته فى أمريكا ولا شك أن مصر بحكم موقعها الجغرافى كانت تصلح خير قاعدة لانطلاق النفوذ الفرنسى فى آسيا وافريقيا وتذكرنا هزيمة فرنسا فى حرب السنوات السبع وما أعقب ذلك من رغبة ملحة لدى الساسة والمفكرين لبناء امبراطوريات استعمارية جديدة بما حدث لفرنسا بعد ذلك فى فترة متأخرة فى القرن التاسع عشر عندما منيت بهزيمة فادحة من قبل ألمانيا وفقدت الالزاس واللورين فجند الساسة الفرنسيون طاقتهم لصرف انظار الشعب الفرنسى عن هذه الهزيمة بالتوسع فيما وراء البحار وتكوين امبراطوريات استعمارية فرنسية وان كانت النزعة الاستعمارية قد ظهرت بصورة أوضح فى القرن التاسع عشر.

ولا شك أن تقارير القناصل الفرنسيين وكتابات الرحالة قد أسهمت بدور كبير فى تأكيد فكرة غزو مصر ولكن ينبغى ألا ننكر أن ضعف أحوال مصر الداخلية كان من أهم العوامل التى ساعدت على اتمام هذه الفكرة فقد شهد القرن الثامن عشر ضعف السلطة المركزية، وانتشار المنازعات بين المماليك بعضهم وبعض وبين الأوجاقات مما أدى إلى انتشار المذابح فى الشوارع، وشجع البدو على الاغارة على القوافل التجارية، كذلك ساعدت الأحوال الاقتصادية السيئة على تأكيد فكرة الاستيلاء على مصر خاصة بعد تدهور الصناعة والزراعة والتجارة واهمال الجسور والترع وتقلص مساحة الأراضى الزراعية والقحط بسبب انخفاض مياه الفيضان. وعبر المؤرخ المصرى الجبرتى عن تدهور الأحوال الاقتصادية اصدق تعبير «لا يجد الزبال شيأ يكنسه فى مصر».

وأخيرا فى عهد حكومة الإدارة تقرر غزو مصر ولا شك أن كتابات تاليران أكدت كلها أهمية مصر لأنها «سوف تحل محل جزر الانتيل ونحولها إلى مستعمرة فرنسية» كما أن الأدميرال روزيلى قدم عدة خرايط بحرية إلى مونج مفتش العلوم والفنون فى

إيطاليا عن مصر، كذلك قدم عدة تقارير عن أوضا ع البلاد الاقتصادية، أضف إلى ذلك مذكرات تروجه عن مصر ورسايل ماجالون وكتابات غيرهم من القناصل والرحالة الفرنسيين تم تجميع كل هذه التقارير فى دوسيه كامل عن مصر وعرض على نابليون بصفته القائد الموكل إليه مهمة الغزو*.

والآن نأتى إلى مجمل سير الحملة من فرنسا إلى الإسكندرية.

كانت الحملة مؤلفة من اثنين وثلاثين ألف جندى من البرية والبحرية، تحملها ١٣ قايقاً و ١٤ بارجة و ٤٠٠ سفينة لنقل العساكر والمهمات، وتقرر أن تسير السفن من ثغور طولون ومارسيليا وجنوا وكورسيكا،، وسيفاتافتشيا، فى إيطاليا.

ولقد أظهر نابليون، بإجماع الباحثين والمدققين، مهارة عظيمة، ونظراً ثاقباً، وقريحة وقادة. فى تجهيز هذه الحملة، إذ رووا أنه فكر فى كل شيء من دقايق الأمور، فلم يترك صغيرة ولا كبيرة الا رتبها. وبوّبها وأحصاها. فبدأ باختيار زهرة القواد والصناع، وأرباب الحرف اللازمة للجيش، وجلب من روما المطبعة العربية واليونانية، وأحضر معها فئة من العارفين بصف الحروف وطبعها، وجمع عدة آلات وأدوات علمية. ولم ينس انتقاء مكتبة جامعة للكتب عن مصر والشرق، ليقرأها مع ضباط جيشه أثناء سفرهم.

وانتهت كافة التجهيزات فى ١٣ أبريل سنة ١٧٩٨ وأمضى الأمر بتكوين «جيش الشرق» وتعيين نابليون بونابرت قائداً عامًا، وفوض له الاستيلاء على الديار المصرية، وطرد الانكليز من جميع البلاد التى يمتلكونها فى الشرق ما استطا ع لذلك سبيلا وعلى الأخص القضاء على تجارة الإنجليز فى البحر الأحمر. وفوّض له أيضًا حفر برزخ السويس، واتخاذ الوسايل اللازمة لضمان امتلاك البحر الأحمر واختصاص جمهورية فرنسا به.

وكادت حادثة الاعتداء على سفير فرنسا فى فينا توقف سير هذه الحملة، لأن حكومة الجمهورية خافت من تحرك النمسا فأصدرت الأوامر لنابوليون ولكنه اكتفى بكتابة خطاب شديد إلى الكونت «كوبنزل»، فهدأت الأحوال وبرح باريس فى ٣ مايو ووصل طولون فى ٩ منه والجدول الآتى فى الصفحة التالية، يبين مجموع القوة الفرنسية وطريقة نقلها على السفن من الموانيء المختلفة وكان تكوين القوة (من الأسلحة) من ٢٤,٣٠٠ من المشاة (البيادة) و ٤,٠٠٠ خيالة (سوارى) وطوبجية ٣,٠٠٠ ونحو ألف من

* انظر: مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن ١٨ د. إلهام محمد على ذهنى. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٢.

موانى السفر	بوارج	فرقاطات	سفن رطرادت	نقالات	جنود	خيول
طولون	١٣	٧	٦	١٠٦	٢٠,٠٠٠	٤٧٠
مرسيليا			٢	٣٠	٣,٢٠٠	٦٠
كورسيكا			١	٢٠	١,٢٠٠	
جنوا		١	١	٣٥	٣,١٠٠	٧٠
سفاتافيتشيا		١	١	٤١	٤,٣٠٠	٨٠
المجموع	١٣	٩	١١	٢٣٢	٣١,٨٠٠	٦٨٠

الاتباع، والمجموع بالضبط ٣٢,٣٠٠٠ (لا أربعين ألفًا كما يتساهل المؤرخون) وكانت قيادة الاسطول تحت رياسة الفيس أميرال برويز Brueys وتحت قيادة الكونت أميرالات Decrés, Blanquet-Duchyl, Ville-neuve ورياسة أركان حرب الاسطول لغانتوم Ganteaume وأما الجيش البرى فكان برتيه Berthier رئيس أركان الحرب وكافاريللى على المهندسين، ودومرتين Doumartin على الطوبجية وتحت رياسته على الفرق القواد Songis و Faltrier و Desaix و Kleber و Dugua وعلى الأورط Lannes و Murat و Lounusse و Vial و Veaux و Rampon و Davout و Friant و Belliard و Dumas و Leclerc و Verdier و Andreossy ومن ياوران نابوليون الضباط Junot و Beauharnais (ابن زوجته) و Louis Bonaporte (أخوه) و Sulkowski و Jullien و Duroc و Croizier.

وأهم ما فكر فيه نابوليون أنه ارتأى أن تكون معه بعثة علمية محضة لدراسة طبيعة البلاد المصرية، وبحث آثارها ونباتها وحيوانها، ونيلها وأرضها، وسمائها وسكانها، وكانت هذه البعثة تتألف من نحو مائة عالم من مشهورى علماء فرنسا الذين امتازوا بدراسة خاصة فى كل فرع من فروع العلوم، وكانت هذه البعثة تحت رياسة الرياضى الشهير صديق نابوليون مونج Monge أحد أعضاء الأكاديمية وكان معه من رجال الاكاديمية Berthollet و Dolo-mieu و Denon ومن مهندسى الكبارى والقناطر Le Pére وجيرار ومن الرياضيين Corancez، Costaz، Fourier ومن علماء الفلك Nouet و Beauchamp و Méchin ومن علماء الطبيعة والنباتات Saint-Hilaire Geoffroy و Savigny ومن الكيماويين Descotils و Champy ومن الرسامين والموسيقيين والشعراء وعلماء فن المعمار عدد كثير.

وفى اليوم التاسع عشر من شهر مايو نشرت سفن أسطول هذه الحملة أعلامها وسارت تمخر عباب البحر المتوسط، قاصدة

جزيرة مالطة وكان نابوليون وياورانه فى السفينة أوريان ـ Orient ـ «المشرق» التى يسميها الجبرتى «نصف الدنيا» ومعه قائد الاسطول برويس، ومعه أيضًا بها من رجال البعثة العلمية مونج وبرتللو، ومن القواد كفاريللى المهندس وغيرهم. وهنا نذكر أن الحكومة الانكليزية علمت بأمر هذه الحملة ولكنها لم تكن على بينة من معرفة الجهة التى تقصدها لما اتخذته الحكومة الفرنسية من وسائل التكتم الزائد. وكان الفكر الراجح لدى حكومة انكلترا، أن هذه العمارة الفرنسية تنوى السفر من مياه البحر المتوسط إلى جبل طارق قاصدة احتلال ايرلنده. ومع ذلك فقد أصدرت الحكومة الانكليزية للأميرال نلسون أمرًا بمراقبة هذه الحملة، وأصدرت إليه الأوامر الصريحة بأن يفعل كل ما فى امكانه لأسر، أو اغراق، أو حرق، هذه العمارة الفرنسية مهما كلفه ذلك، ما دام قادرًا على تسيير سفنه ولديه من الزاد والمؤونة والذخيرة ما يكفيه، وكان نلسون يخالف حكومته فى ظنها من حيث وجهة العمارة الفرنسية، وبعد أن أجبرته زوبعة كبيرة على الالتجاء بسفنه إلى جزيرة سردينيا، حيث رمم بعضها، التى أضرت بها هذه الزوبعة، ـ تمكنت العمارة الفرنسية من السفر دون أن يقف لها الاسطول الانجليزى على أثر. ثم قصد نلسون شواطىء إيطاليا وكتب فى ١٥ يونيو على مقربة من نابولى قائلا: «إذا كانت السفن قد مرت من سيسيليا (جزيرة صقلية) فانها لابد وأن تقصد تنفيذ مشروع الاستيلاء على الاسكندرية، لكى ترسل من مصر حملة إلى الهند بناء على اتفاق مع «تيبو صاحب» وليس تنفيذ هذه الخطة بالأمر العسير.

أما العمارة الفرنسية فوصلت مالطة فى ٩ يونيو (١٧٩٨) وأنزلت قوة فى اليوم الثانى لاحتلال الجزيرة لحفظ مواصلاتها مع فرنسا وكانت هذه الجزيرة مستقلة تحت إدارة حكومة تدعى «فرسان مالطة» وهم جماعة من المسيحيين من جميع ممالك أوروبا، أشبه بفرسان الحروب الصليبية، وقفوا أنفسهم للدفاع عن صوالح النصرانية، لما شبت الحروب بين الدول الإسلامية وممالك أوروبا المسيحية. وكان لقبهم فى الأول فرسان «رودس»، فلما فتح السلطان سليمان جزيرة رودس، منحهم الامبراطور شارلكان جزيرة مالطة ـ وكانوا يتقربون إلى ممالك أوروبا، ويستدرون خيرات أبنائها، بدعوى انهم يحاربون قرصان أفريقيا، ويقون السفن المسيحية والمسافرين فيها، من المسلمين، ودام هذا حالهم حتى فاجأهم نابليون بخيله ورجله، وبعد مقاومة ضعيفة استولى على

الجزيرة وترك فيها أحد قواده الجنرال فوبوا Vaubois ومعه ثلاثة آلاف جندى كحامية فى الجزيرة، وقبل أن يبرح الجزيرة، فكر فى أن يوطد العلاقات الودية فى المياه اليونانية فى ألبانيا وأبيروس. وكان فى حروبه مع البندقية قد استولى على جميع الجزر والسواحل والثغور التى كانت ملكا لتلك الجمهورية فى بحر الادريتيك سنة ١٧٩٧، وحينذاك راسله على باشا والى «ينينا» المشهور، ولم يكن إذ ذاك قد خرج عن طاعة الدولة، مؤكداً له حسن ولائه. فكان أول خاطر لنابوليون قبل مبارحته مالطة، لتوطيد علاقاته الحسنة فى ألبانيا وأبيروس، هو أن بعث بخطاب إلى على باشا والى ينينا وأوفد به أحد ضباطه.

واستعاض نابليون، عن القوة الفرنسية التى تركها فى الجزيرة (٣٠٠٠ جندى) بقوة تعادلها من المالطيين والفرنسيين، الذين كانوا مع فرسان الجزيرة، وغنم من الجزيرة نحو ١٢٠٠ مدفع وكميات كبيرة من الذخائر، أخذت منها الطوبجية الفرنسية ما رأته لازمًا فى حملتها على مصر. وكان فى الجزيرة نحو ثمانمائة من الاتراك الأَسرى فأطلق نابليون سراحهم، وأحضرهم لمصر فى السفن لارسالهم إلى بلادهم. وقد عمل هذا، كما يظهر من منشوراته فى مصر، بقصد التودد للمسلمين ولحكومة الباب العالى. ثم ضم إلى الحملة عدداً وافراً من المالطيين والأَسرى المغاربة الذين يعرفون اللغة العربية والفرنسية بصفة تراجمة، وكان لهم شأن فى حوادث مصر كما سيأتى ذكره فى مكانه، وأرسل من مالطة فى سفينة عدة آثار غالية وغنائم بقصد إيصالها إلى فرنسا، فغنمها الانجليز قبل أن تصل إلى فرنسا.

وفى ١٩ يونيو أقلعت العمارة الفرنسية من مالطة قاصدة جزيرة كريد. أما نلسون فانه تتبع العمارة الفرنسية باسطوله، وقد روى كتاب الانجليز أن نلسون كان فى ٢٠ يونيه ماخراً باسطوله جنوب جزيرة صقلية، وكانت العمارة الفرنسية قد خرجت فى اليوم السابق من مالطة، بحيث كان الاسطولان على مقربة من بعضهما، ولكن لم ير أحدهما الآخر. وكانت وجهة الاسطول الانجليزى ثغر الاسكندرية ليدرك العمارة الفرنسية، كما قرر نلسون ذلك فى ذهنه. وقال كتاب الانجليز إن نلسون كان فى صباح يوم ٢٤ يونيو على مسافة بضع فراسخ من العمارة الفرنسية، جنوبى جزيرة كريد، ولكن لم يرها أيضًا واستمر قصداً الاسكندرية.

فى يوم ٢٦ يونيو وصلت العمارة الفرنسية إلى جزيرة كريد، وهناك فى صبيحة اليوم التالى اجتمعت بها الفرقاطة التى كان قد بعث بها للاستعلام فى جهات نابولى وأخبر نابوليون بان نلسون على رأس أسطول

ضخم. كان قريباً من مياه نابولى فى ٢٠ يونيو، وأنه سار قاصداً مالطة. فلما وصل هذا النبأ إلى مسامع نابوليون أصدر أوامره فى الحال بالسفر إلى جهة أفريقية وعند ذلك كشف الغطاء للجنود والضباط عن الجهة التى تقصدها الحملة، بعد أن بقى سرها مكتوماً عن الجميع، إذ أصدر الجنرال بونابرت أمراً وزعه على جميع السفن لتتلوه الجنود. نأتى على تعريبه ـ

منشور إلى الجيش البرى

هذا المنشور كتب وطبع فى الباخرة أوريان فى ٢٢ يونيه ولكنه لم يوزع على الجيش إلا فى يوم ٢٨ قبل مساء اليوم الذى أنزلت فيه الجنود.

من المعسكر العام على ظهر الباخرة أوريان ٤ مسيدور سنة ٦ للثورة (٢٢ يونيه سنة ١٧٩٨).

من بونابرت عضو الانستيتوناسيونال، وقائد عام جيش مصر.

أيها الجنود:

انكم ستخوضون غمار حرب سيكون لها تأثير عظيم على المدنية وتجارة العالم أجمع. وستضربون انكلترا ضربة حساسة فى صميم فؤادها، على أمل أن تتمكنوا بعد من إيصال هذه الضربة للقضاء على حياتها.

سنضطر إلى قطع مسافات متعبة على الاقدام، وسنقاتل فى عدة مواقع، وسنفوز فى جميع المعارك، لأن العناية معنا.

وبعد وضع أقدامنا فى أرض مصر ببضعة أيام سنمحى من صحيفة الوجود أولئك البكوات المماليك الذين يعضدون التجارة الانجليزية دون سواها، والذين أهانوا تجارنا، وعاملوا سكان وادى النيل بالظلم والاستبداد.

واعلموا أن الشعب الذى سنعيش معه يدين بدين الإسلام، وأول قواعدهم (أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله) فلا تعارضوهم فى معتقدهم، وعاملوهم كما عاملنا اليهود والإيطاليين، واحترموا مشايخهم وعلماءهم، كما احترمنا الرهبان والقساوسة.

وليكن فى نفوسكم من التسامح للتقاليد التى يقضى بها الشرع، وللمساجد، مثلما كان لكم من التسامح مع الكنائس والصوامع والبيع، ومع المتدينين بدين عيسى وموسى. ولقد كانت الجيوش الرومانية قبلكم تحمى الأديان وترعاها. وستجدون فى هذه الديار عادات تخالف العادات فى أوربا، فلابد من أن تألفوها وتعتادوها. واعلموا أن الناس الذين ستكونون بينهم، يعاملون النساء على غير مألوفنا، وقد أجمعت الأمم على أن من يتعدى على حرمة المرأة، إنما هو حيوان وبهيم.

وأما النهب والسلب، فلا يغنى الا فئة قليلة من الأفراد، ولكنه يحط من قدرنا، وينقص من شرفنا، ويبغض فينا قلوب الناس الذين من مصلحتنا أن نكون معهم على صفاء ووداد».

«بونابرت»

الحملة الفرنسية في الاسكندرية

كان ظهور السفن الفرنسية، بمن تقل من جنود وضباط وقواد وعلماء، وذخائر وبنادق ومدافع، فاتحة عصر جديد لمصر، بدأ بالاحتلال الفرنسى، تحت قيادة أعظم القواد الحربيين الذين أظهرهم هذا الوجود.

كان الثغر الاسكندرى فى ذلك الوقت بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانه على عشرة آلاف نسمة تقريبا، وكانت تجارته قد اضمحلت، وثروته قد نزفت وقلت، وكان الرئيس إذ ذاك فيها «والمشار إليه بالإبرام والنقض»، هو السيد محمد كريم السكندرى، وهو رجل كان كما رواه الجبرتى فى ترجمة حياته، فى أول أمره قبانيا يزن البضايع فى حانوت بالثغر، وعنده خفة فى الحركة وتودد فى المعاشرة، فلم يزل يتقرب إلى الناس، بحسن التودد، ويستجلب خواطر حواشى الدولة، وغيرهم من تجار المسلمين والنصارى، ومن له وجاهة وشهرة، فى أبناء جنسه، حتى أحبه الناس، واشتهر ذكره فى الاسكندرية ورشيد ومصر، واتصل بصالح بك حين كان وكيلا لدار السعادة، وله الكلمة النافذة فى ثغر رشيد ثم اتصل بواسطته إلى مراد بك فتقرب إليه، ووافق الغرض منه، وقلده أمر الديوان والجمارك بالثغر فعلت كلمته، ونفذت أحكامه.

وقد سبق أن قلنا إن الأميرال نلسون الانكليزى جاوز باسطوله العمارة الفرنسية جنوبى كريد ولم يرها، فقصد الاسكندرية لكى يدركها على ظنه، فوصلها قبل العمارة الفرنسية بثلاثة أيام فقط. لا بعشرة كما رواه الجبرتى، وتابعه المؤرخون الحديثون، بغير تمحيص ولا تحقيق. وللجبرتى العذر فى أغلاطه التاريخية، فانه انما كان يكتب فى القاهرة ويقول «وردت مكاتبات على يد السعاة من الاسكندرية». ومع ذلك فلو أنهم قرأوا الجبرتى حق قراءته، أى أنهم درسوا كل كتابه، ولم يكتفوا بالنقل، لوجدوا إن الجبرتى فى وفيات سنة ١٢١٥ عند ترجمة حياة مراد بك، يقول بعد ذكره وصول العمارة الانكليزية ومغادرتها المياه المصرية ما نصه «فما هو إلا أن غابوا فى البحر نحو الأربعة أيام الا والفرنسيس قد حضروا وكان ما كان» وهو قريب من الصواب أو هو الصواب بعينه. ومن أغلاطهم التى لا تغتفر تقريرهم

إن القوة التى قدم بها نابليون كانت تبلغ أربعين ألفًا. وأن عدد البوارج كان أربعمائة سفينة، مع أن البيان الرسمي موجود فى كتب القوم، ومنها يظهر فى الحال أن القوة التى برح بها أوروبا كانت ٣٢ ألفًا فقط، وأنه ترك منها فى مالطة ثلاثة آلاف اعتاض عنها بألفين من المالطيين، وأن عدد السفن لم يزد على ٣٢٠ سفينة.

فلما ألقى الاميرال نلسون مراسيه فى الاسكندرية ولم يجد العمارة الفرنسية بعث بقارب وفيه (على رواية الجبرتى) عشرة أنفار، فوصلوا إلى البر، واجتمعوا بالسيد محمد كريم، ومن معه من أعيان البلدة، فكلموهم، واستخبروهم عن غرضهم فأخبروا أنهم انكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس لانهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولا ندرى أين قصدهم، فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم، ولا تتمكنون من منعهم، فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول وظن أنها مكيدة منهم، وجاوبهم بكلام خشن، فقالت رسل الانكليز «نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر، لا نحتاج منكم الا الامداد بالماء والزاد بثمنه»، فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس، ولا لغيرهم، عليها سبيل، فعادت رسل الانكليز وأقلعوا فى البحر ليمتاروا من غير الاسكندرية، وليقضى الله أمرًا كان مفعولا.

ولو كان السيد محمد كريم أو غيره فى الاسكندرية واقفًا على شىء من حوادث أوروبا، ومنازعات الانكليز مع الفرنسيس، لامدّ أسطول نلسون بما أراد من ماء ومؤونة، لا سيما وقد طلبوا شراء ذلك بالمال، ولترك لهم حريتهم حتى يتخابر مع حكام البلدة البكوات، ونائب السلطان، ولو تم ذلك، وبقيت العمارة الانكليزية ثلاثة أيام أخرى، لكان لها، مع نابوليون وحملته، حال الله بها أعلم.

ويظهر أن رواية الجبرتى هى أصح الروايات، لأن الذى حمل نلسون على الاقلاع من مياه الاسكندرية، هو حاجته الشديدة للزاد والماء، بدليل أنه أقلع فى الحال إلى شواطىء آسيا الصغرى فجزيرة سراقوزه، حيث امتار وعاد إلى الاسكندرية ثانية، فوصلها فى أول أغسطس، أى بعد نزول الفرنسيس أرض مصر بشهر كامل.

وفى اليوم الأول من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ وصلت العمارة الفرنسية إلى مياه الاسكندرية عند مطلع الفجر، فبرزت أمام الجنود والقواد مآذن الثغر ومبانيه مجلببة بازار الفجر، وراء قاعدة من زرقة البحر، وأدرك الجيش أنه وصل إلى محط رحاله، ونهاية أسفاره، ولما راتفع ذيل النهار، وعلت الشمس فى الافق. أبصر أهل الثغر سفن العمارة الفرنسية، فأدركوا حين ذلك أن الانكليز صدقوهم ولم يخدعوهم، وكان أول ما عمله نابوليون أن بعث بالفرقاطة La Junon إلى البر للوقوف على حال البلدة، ولطلب قنصل فرنسا، وكان فى ذلك الوقت هو ابن أخ «ماجللون» الذى سبقت الاشارة إليه، فعارض السيد محمد كريم فى ذهاب القنصل، ولكنه عاد فسمح به، ويقول الجبرتى، وتابعه المؤرخون الحديثون، إنه ذهب مع القنصل بعض أهل البلد، ولم يرد ذكر ذلك فى الكتب الفرنسية التى وقفنا عليها وهى أحق بالمعرفة، فلما وصل القنصل إلى بارجة الأميرال أخبر نابوليون أن العمارة الانكليزية، تحت قيادة نلسون، كانت هنا منذ ثلاثة أيام (أى ٢٨ يونيه سنة ١٧٩٨) وروى له ما قاله الانكليز من تفتيشهم على العمارة الفرنسية، وأن الترك قد داخلهم الفزع، فأخذوا فى تحصين المدينة، وإقامة المتاريس، وأن المسيحيين فى الثغر فى أشد درجات الخطر، بحيث صار من اللازم الإسراع فى احتلال المدينة. ولم يكن نابوليون فى حاجة للتحريض على الإسراع، فانه ما كاد يسمع بنلسون قريبًا من الاسكندرية، حتى داخله الفزع، وأصدر أمره فى الحال بالتحول إلى جهة العجمى. وبرج مرابوت (قلعة قايتباى) لانزال الجنود ليلا إلى البر فعارضه الاميرال فى ذلك لأن الجو قد تغير فى آخر النهار قائلا، إن نلسون لا يمكن أن يعود قبل بضعة أيام.

قال بوريين فى مذكراته عن ذلك اليوم (وكان بوريين مرافقًا لنابوليون فى باخرته) «فلما قال الاميرال إن نلسون لا يعود قبل بضعة أيام، عارض نابوليون واحتد قائلا «يلزمنا أن لا نضيع دقيقة واحدة، فقد أعطانى الحظ ثلاثة أيام فإذا لم أنتهزها خسرنا كل شيء».

فاضطر الاميرال إلى أن يصدر أمره بانزال الجنود فى الحال فبدأ فى ذلك العمل على الرغم من هياج البحر وغرق بعض العساكر. قال بوريين فى مذكراته:

«كانت الساعة الثانية من صبيحة يوم ٢ يوليو حين وضعنا أقدامنا فى أرض مصر عند نقطة تبعد نحو ثلاثة فراسخ من الاسكندرية (جهة المكس) وفى الساعة الثالثة بدأ

بالزحف على الاسكندرية ثلاثة آلايات تحت قيادة كليبر وبون ومورات تحت رياسة القائد العام».

وغريب مع هذا التدقيق في التاريخ، وكون بوريين كان كاتب يد نابوليون فهو شاهد عيان، أن يوجد بين المؤرخين من يقرر أن موعد نزول الجيوش الفرنسية كان في يوم ٣ يوليو لا في ٢ منه، كما يقول به «بريبه» في كتابه (تاريخ مصر من سنة ١٧٩٨ إلى ١٩٠٠) وكذلك محمد مختار باشا وهو من خيرة الكتاب المحققين. وصاحب التوفيقات الإلهامية، وهو ممن يعتمد على تدقيقهم في التاريخ، يقول أيضاً إن نزول الجنود الفرنسية في أرض مصر كان في يوم الثلاثاء ١٩ محرم، الموافق ٣ يوليو، مع أنه قرر وصول العمارة إلى الاسكندرية يوم الاحد ١٧ محرم فكأنه يرى أن الجنود لم تنزل في مساء ذلك اليوم، ولا يتفق هذا مع إسراع نابوليون، وخوفه من نلسون. والجبرتي يقول «وردت الأخبار بأنه في يوم الاثنين ١٨ محرم وردت مراكب وعمارات للفرنسيس، فأرسو في البحر». وهو في هذا الخطأ التاريخي مخطىء ومعذور معاً.

ونقطة الخلاف هي هل كان دخول نابوليون مدينة الاسكندرية يوم الاثنين (٢ يوليو ١٨ محرم على رواية بوريين وهو شاهد عيان، وعليه أكثر اعتماد كتاب الافرنج)، أو في يوم الثلاثاء (٣ يوليو و ١٩ محرم).

ومما جاء في مذكرات «بوريين» عند نزوله من السفينة أنه لما مد الأميرال يده لمساعدة نابوليون على النزول إلى القارب، رأى القارب قد ابتعد عن مكانه فصرخ قائلاً «إن حظي بدأ يخونني» ! ولكنه بعد صعوبة ومخاطرة وضع قدمه في أرض مصر الساعة الأولى بعد منتصف الليل!.

وتكوّن الجيش الزاحف على الاسكندرية في الساعة الثالثة من صباح يوم الاحد ٢ يوليو (١٨ محرم سنة ١٢٢٣) من ثلاث فرق فقط (منو) على الجناح الأيسر (وكليبر) في القلب، (وبون) في الجناح الأيمن، وكان نابوليون بونابرت القائد العام، يسير على قدميه لانه لم يكن قد أنزل من الخيول القادمة مع الحملة جواداً واحداً.

أما أهل الاسكندرية فقد أزعجهم ظهور الاسطول في النهار، ولكنهم لم يكونوا ينتظرون أن يداهمهم العدوّ ليلاً، إذ المألوف عندهم أن الجيوش التي تنزل أرض مصر تأتي من جهة أبي قير، وأنه يلزمها عدة أيام لافراغ شحن هذه السفن، وتنظيم قوة لمهاجمة المدينة.

إلا أنه لما انزلت الجنود الفرنسية في البر ليلا في تلك الليلة المقمرة أسرع بدويّ على فرسه بالسير إلى الاسكندرية، وأبلغ الخبر للسيد محمد كريم...

فأخذ معه نحو عشرين من المماليك الانكشارية (على رواية الفرنسيين إذ ليست لدينا رواية من مصادر أخرى) فالتقت هذه القوة الصغيرة عند مطلع الفجر بطليعة من الجيش الفرنسى فظنوها كل القوة القادمة، فهاجمها الانكشارية وقتلوا ضابطها وقطعوا رأسه وعادوا بها ظافرين إلى شوارع الاسكندرية.

وأخذ بعض عربان قبيلة الهنادى وهم على خيولهم يناوشون تلك المقدمة، ويقطعون حبل مواصلاتها مع القوى التى بقيت لانزال بقية الجيش.

وما زال بونابرت سائراً برجاله حتى أشرفوا على مدينة الاسكندرية، فكان أول ما لاح لهم فى نور الفجر عمود السوارى ثم المنائر والمبانى، وصعد نابوليون فى الساعة الثامنة صباحاً، على قاعدة عمود السوارى لاستطلاع المدينة، واعداد الحملة عليها.

ويمكن القول إن الاسكندرية لم تكن محصنة، ولم يكن لها جيش كاف للدفاع، لا من جانب العثمانلية، ولا من المماليك. فلم يأت ظهر ذلك اليوم، حتى كان نابوليون قد دخل المدينة ونزل فى دار القنصل الفرنسي. والتجأ السيد محمد كريم، ومن بقي حوله من الملتفين به إلى حصن فرعون ـ وأما الأهالى فسلموا. ودارت المخابرات مع السيد محمد كريم طول ليلة الاثنين. وانتهى الأمر بان جاء هو، ومن معه مستسلمين. وهكذا سقطت الاسكندرية في يد نابوليون بونابرت.

قال كتاب الفرنسيس: أما السيد محمد كريم فانه قبل أعتاب نابوليون وقال له إنه أصبح عبده ومولاه، وخطب بين يديه، فرضى عنه نابوليون وطلب منه أن يكون خادماً للجمهورية الفرنساوية، مساعداً لها على إبادة المماليك، وتأييد سلطة خليفة المسلمين، سلطان آل عثمان !!! فأجابه السيد كريم إلى ما طلب، فعينه قومندانًا للبوليس فى الثغر فقام بواجبه خير قيام إذ أعاد النظام فى المدينة وجمع السلاح وقدم للجيش الفاتح كل ما يحتاجه.

ويؤيد الاعتقاد بأن نابوليون وضع لنفسه أساس هذه السياسة، الخطاب الذى بعث به إلى إدريس بك قبودان السفن العثمانية فى الميناء، وكانت ثلاث سفن فقط، وكبراهن السفينة المسماة «عقاب بحرى» وهى سفينة القبودان، إذ كتب له فى اليوم الاول من وصول العمارة الفرنسية لمياه اسكندرية يقول ما نصه:.

«ان البكوات أكثروا من سوء معاملتهم لتجارنا، وقد جئت للمطالبة بحقوقنا وسأكون غداً فى الاسكندرية، فلا يكون ذلك داعيًا لقلقك لأنك تابع صديقنا العظيم، ومولانا سلطان تركيا، ولتكن خطتك تبعاً لمقتضيات هذه السياسة. أما إذا بدر منك أقل معاملة عدائية للجيش الفرنسى، فاننى سأعاملك معاملة الأعداء وتكون أنت السبب فى ذلك، الامر الذى هو أبعد الاشياء عن مرادى وفؤادى».

وقد روى سرهنك باشا فى كتابه «حقائق الأخبار عن دول البحار» رواية أخرى، لم يذكر فيها بالطبع هذا الخطاب، ولكن قال فى باب البحرية بمصر فى عهد ولاة الدولة العثمانية ما يأتى «وفى عهد السلطان سليم خان الثالث ازدادت أهمية البحرية العثمانية بما أدخل فيها من الإصلاحات وكانت عنايته السلطانية موجهة لزياد قوة «الدوننمة»، فعززها بالسفن الجسيمة التى أمر بتشييدها، كالغلايين والفراقيط والشهدية، وغير ذلك وخصص بعضها لحماية الثغور وأرسل بعضها للديار المصرية فكان فى ثغر الاسكندرية منها ثلاث سفن حربية تحت قيادة إدريس بك قبودان السفينة المسماة «عقاب بحرى» عندما فاجأ بونابرت الديار المصرية بجيوشه وأساطيله، ولما طلب بونابرت من إدريس بك أن يرفع العلم الفرنساوى بدلا من العثمانى، توقف عن إجابة هذا الطلب وطلب الاقلاع عن الميناء فصرح له نابليون بذلك، فاقلع إلى الآستانة وأخبر بما حصل وكان أبو بكر باشا والى مصر وقتئذ قد هرب إلى غزة» قبل أن يصله خطاب من بونابرت نصه:

«إن الإدارة التنفيذية للجمهور الفرنساوى طالما طلبت من الباب العالى معاقبة البكوات المماليك لسوء معاملتهم للتجار الفرنسيين، فكان جواب الباب العالى دائما أن أولئك المماليك أشخاص أدنياء طماعين، ولا يحترمون مبادىء العدل وأن الباب العالى لا يكتفى فقط لعدم السماح لأولئك المماليك باساءة أصدقائه الصادقين من الفرنسيس، بل يشمهلم برعايته وعنايته كلما تيسر له ذلك.

فلذلك قررت الجمهورية الفرنسية إرسال جيش عظيم للقضاء على مظالم المماليك فى مصر، كما اضطرت إلى عمل مثل ذلك مراراً فى خلال القرن الحالى مع باى تونس ومع الجزائر، فأنت الذى كان من الواجب أن تكون السيد المطاع على البكوات، وقد أصبحت بغير جاه ولا نفوذ، جدير بأن تتلقى نبأ قدومى بالسرور والانشراح.

وأنت بالطبع تعلم أننى لم آت للتعرض للدين والشرع، ولا للقيام بأمر ضد السلطان، وكذلك لابد أنك تعرف أن الأمة الفرنسية هى الحليفة الوحيدة للسلطان فى أوربا. فهلم إذًا إلى مقابلتنا والعن معنا المماليك وعنصرهم الخبيث»

«بونابرت»

لما استقر قدم نابوليون بالاسكندرية شرع أولا فى وضع نظام لحكومتها فكان أول ما عمله أن أصدر أمرًا إلى القواد يقضى باحترام الدين، وحقوق الأهالى وممتلكاتهم، وقد جاء فى هذا الأمر.

«يريد القائد العام أن يترك للأتراك (يريد الأهالى) الحرية التامة فى تأدية واجباتهم الدينية فى المساجد كما كانوا يفعلون من قبل، ويشدد كذلك فى أن لا يدخل أى فرنسى، جندى كان أو غير جندى، فى المساجد ولا أن يحتشدوا على ابوابها، وعليكم أيها القواد أن تصدروا الأوامر لكل ضابط فرقة بتلاوة هذه الاوامر على الجنود وأن يقرأ عليهم أيضاً الامر الخاص بتجنب النهب والتعدى ولكم أن تعاقبوا كل مخالف لهذه الاوامر بالقتل رميًا بالرصاص، ومن المهم جدًا أن يدفع الجنود ثمنًا لكل ما يبتاعونه فى المدينة، وأن لا يسب الترك ولا يتعرض لهم إذ يجب علينا أن نكون معهم على صفاء وأن لا نحارب إلا المماليك».

وترك أمر الأحكام والفصل فى القضايا للقضاة المسلمين ثم شكل ديوانًا أو مجلسًا بلديًا، مؤلفًا من المشايخ وأعيان البلدة. قال أحد المؤرخين: إن نابوليون اختار سبعة من كبار الاسكندرية ولم يذكر منهم إلا اثنين هما السيد محمد كرّيم السابق ذكره والشيخ محمد المسيرى كبير علماء الاسكندرية وفوض إليهم النظر فيما تحتاجه المدينة وأمرهم أن يجتمعوا كل يوم مرة لتقدم لهم الشكاوى ويتقاضى الناس أمامهم.

وفيما يلى حكم نابوليون على هذين الرجلين الذين كانا لهما شىء من النفوذ فى الاسكندرية عند قدوم نابوليون توطئة لما سيظهر من امرهما فيما بعد قال:

«كان الشيخ محمد المسيرى عالمًا وشريفاً ومن كبار رجال الدين فى المدينة وكان رجلا حكيما واسع المعرفة متعمقًا فى اصول الدين معروفًا بالطهارة والذمة.

ولما كان أوسع معرفة وأكثر خبرة من مواطنيه فقد كانت آراؤه صائبة عادلة. وإدارته حسنة بخلاف الذين كانوا يحيطون به. وهكذا كان لكريم نفوذه بفضل جرأته

وشجاعته وقوة أعوانه وعبيده وسعة ثروته أما الشيخ المسيرى فكان نفوذه مستمداً من علو نفسه وشفقته ورقة قلبه وفضائله وعدله الذى كان ظاهرا فى كل أعماله.» .

وتوالى صدور أوامر نابوليون بتلك السرعة المدهشة والذكاء الباهر فكان من أوامره:

أمر بتشكيل قومسيون لتحديد قيمة النقود المختلفة

أمر بابدال سبائك الذهب والفضة التى مع الحملة وصكها نقوداً من نقود البلاد

أمر بجمع الضرائب التى كانت مفروضة من قبل وجباية مبلغ قدره ماية وخمسون ألف فرنك (ستة آلاف جنيه) كغرامة حربية.

أمر بإنشاء كورنتينة.

أمر بإنشاء مطابع مختلفة للغات الفرنسية والعربية والتركية واليونانية.

لا شك أن نابوليون قد أثبت بهذه النظامات والأوامر، شديد رغبته فى إرضاء المصريين والتقرب إليهم بكل الوسائل، ولكن ضريبة مبلغ ماية وخمسين ألف فرنك على مدينة الاسكندرية، فى حالها التى كانت عليها، تعد من باهظ المغارم التى تنوء تحت حملها البلاد وقت فتحها.

ولم يخسر الفرنسيون فى فتح الاسكندرية أكثر من نحو أربعين قتيلا مع ثمانين إلى ماية من الجرحى. ولكى يبعث نابوليون الحماسة فى قلب الجيش أمر أن يدفن جميع الذين قتلوا فى الاستيلاء على الاسكندرية بجانب عمود السوارى، وأن تحفر أسماؤهم عليه! وذكر المؤرخون أنه قتل من عساكر الانكشارية والأهالى نحو ماية نسمة.

وكان أول ما فكر فيه نابوليون هو تحصين ثغر الاسكندرية لإتقاء البوارج الانكليزية، فأصدر أمره للضابط كريتين Cretin أحد رؤساء الفرق الهندسية، فقام بذلك الأمر خير قيام، وأظهر من المهارة والعلم، ما جعل نابوليون يطريه اطراء عالياً فى مذكراته، التى كتبها بعد ذلك بسنين طوال.

(١) حكمت أسرة الفالوا فرنسا فى الفترة من عام ١٢٢٨ وحتى عام ١٥٨٩م.

(٢) امتدت الحروب الإيطالية من عام ١٤٩٤م إلى عام ١٥٥٩م.

(٣) الهام ذهنى: مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر، الهيئة العامة للكتاب ١٩٩١م ص ٢٨، ص ٣٦.

(٤) نشبت هذه الحرب فى ١٦١٨م وانتهت بتوقيع صلح وستفاليا ١٦٤٨م وخلال هذه الفترة ضعف النفوذ الفرنسى فى الآستانة حتى أن البندقية تقاسمت حق حماية الكنائس مع فرنسا فى عهد مراد الرابع.

(٥) إلهام ذهنى: المرجع السابق ص ٣٦.

(٦) دأب المغاربة على مهاجمة السفن الفرنسية والتجأ بعضهم إلى خيوه فطاردتهم السفن الفرنسية وضربت الجزيرة بالمدافع.

(٧) شملت هذه الفرمانات منع سفن شمال افريقيا من مهاجمة السفن الفرنسية ـ اعفاء السفير الفرنسى من رسوم الجمرك ـ منح ملك فرنسا حق حماية الأماكن المقدسة.

(٨) ليل الصباغ: الجاليات الأوروبية فى بلاد الشام فى العهد العثمانى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر. بيروت ١٩٨٩م جـ١ ص ١٦٦، ص ١٦٧.

(٩) فى عام ١٦٧٠م أرسل لويس الرابع عشر السفير الفرنسى دى نواتيل إلى الآستانة لتجديد الامتيازات فأكد له الصدر الأعظم أن هذه الامتيازات «منحة سلطانية» «وليست معاهدات اضطرارية» واجبة التنفيذ: إلهام ذهنى ص ٣٩.

(١٠) المرجع السابق: جـ ١ ص ١٩٨، ص ٢٣٢.

(١١) المرجع السابق: ص ١٦٧.

(١٢) يقع الحصن عند مصب نهر الدون.

(١٣) زينب راشد: تاريخ أوروبا الحديث، القاهرة ١٩٨٦، جـ١ ص ٢٩٥.

(١٤) ١٦٩٥م ـ ١٧٠٣م (١١٠٦ هـ ـ ١١١٥هـ).

(١٥) محمد فريد: تاريخ الدولة العثمانية، القاهرة ١٩١٢م ص ١٤١.

(١٦) تنازلت الدولة فى المعاهدة عن آزوف لروسيا فصار لها يد فى البحر الأسود وتركت الدولة بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا ـ وتركت بادوليا لبولندا ـ وتركت دلماسيا وقسما من المورة للبندقية.

(١٧) عبد الوهاب بكر: الدولة العثمانية ومصر فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، القاهرة ١٩٨٢م ص ٣٢.

(١٨) عبد العزيز نوار: الشعوب الإسلامية ص١٦١.

(١٩) ١٧٠٣ ـ ١٧٣٠م (١١١٥ ـ ١١٤٣هـ).

(٢٠) الميرالاى إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية تقديم ومراجعة حسن الزين، القاهرة ١٩٨٨م ص ١٩٦، ص ١٩٩.

(٢١) قدمت كاترين زوجة بطرس الأكبر إلى بلطة چى باشا مجوهراتها لكى يفك الحصار عن زوجها فقبلها وقبل توقيع الصلح.

(٢٢) محمد فريد: المرجع السابق ص ١٤٣.

(٢٣) تنازلت الدولة العثمانية عن بلجراد للنمسا وجزء من الصرب وآخر من الافلاق وأعيدت بلاد المورة إلى الدولة العثمانية.

(٢٤) إسماعيل سرهنك: المرجع السابق ص ٢٠٣.

(٢٥) ١٧٣٠ ـ ١٧٥٤م (١١٤٣ ـ ١١٦٨)هـ.

(٢٦) محمد فريد: المرجع السابق ص ١٤٧، ص ١٤٨.

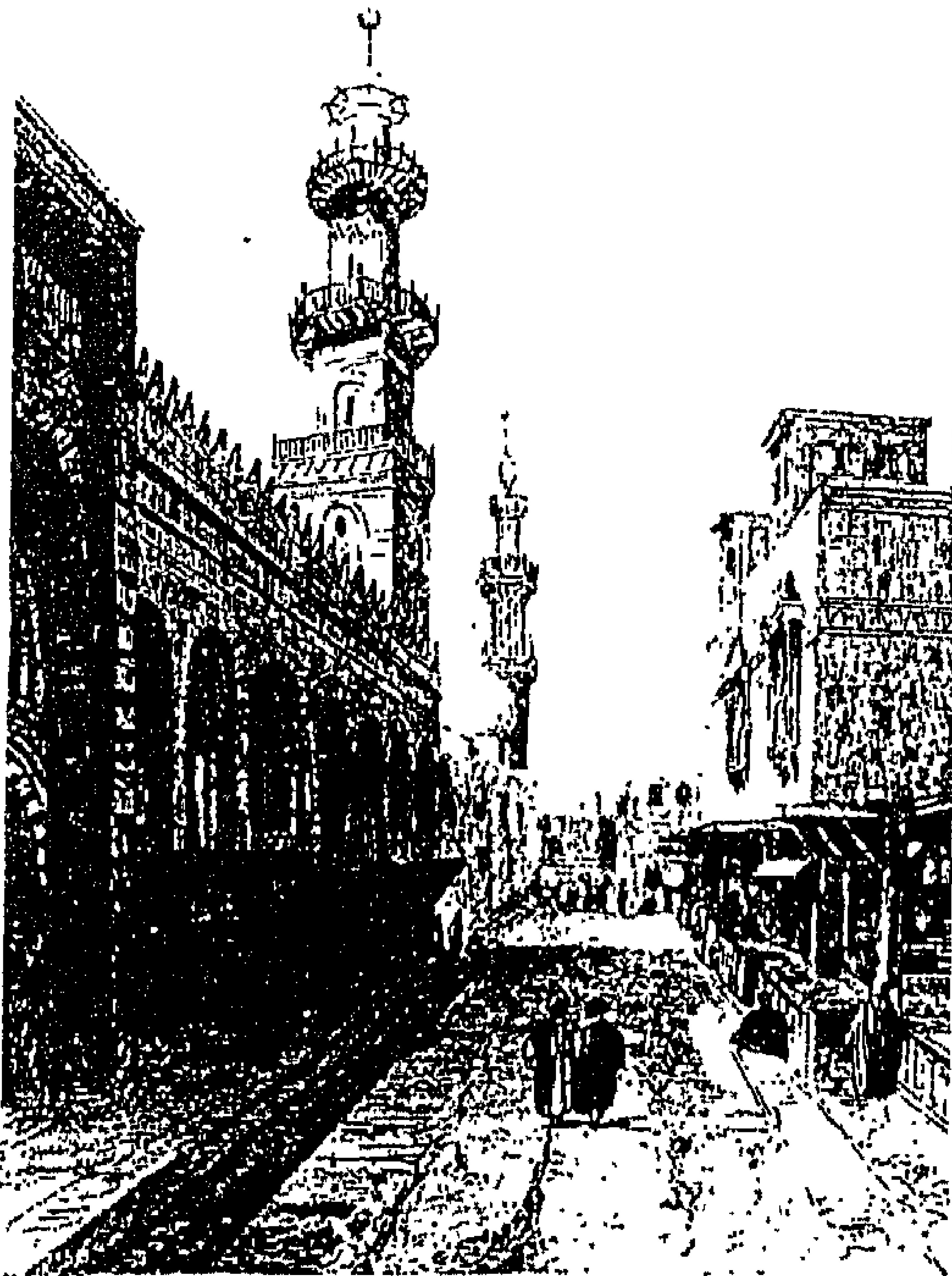
(٢٧) محمد فريد: المرجع السابق ص ١٤٨، ص ١٤٩.

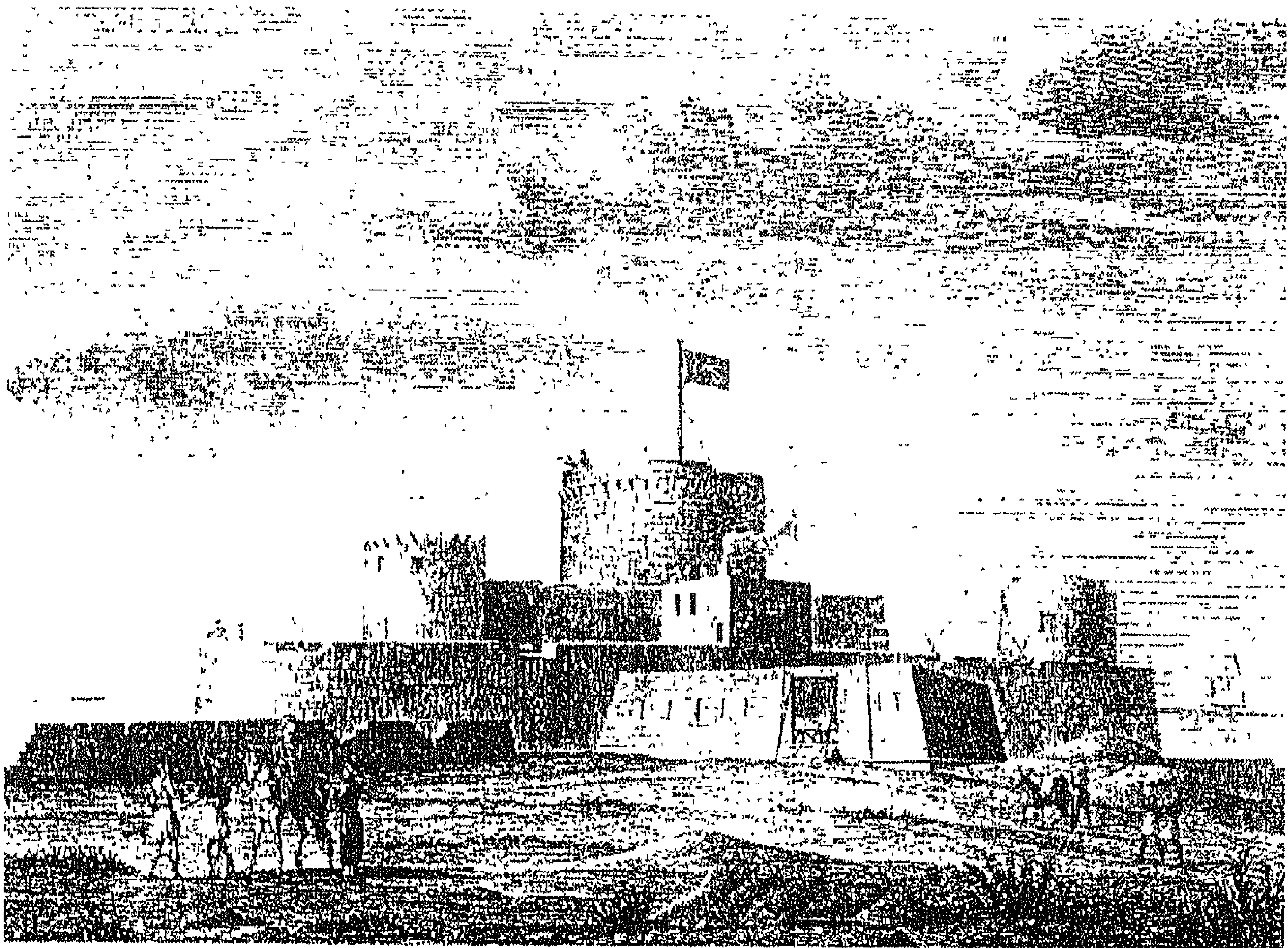
(٢٨) عبد العزيزى الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة فى ١٩٨٠م جـ١ ص ١٩٥.

(٢٩) محمد فريد ـ المرجع السابق ص ١٤٩.

(٣٠) استمرت هذه الحرب فى أوروبا من عام ١٧٤٠ ـ ١٧٤٨م.

(*) مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن ١٨. د. إلهام محمد على ذهنى الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٢.





* قلعة الاسكندرية قبل الغزوة الفرنسية

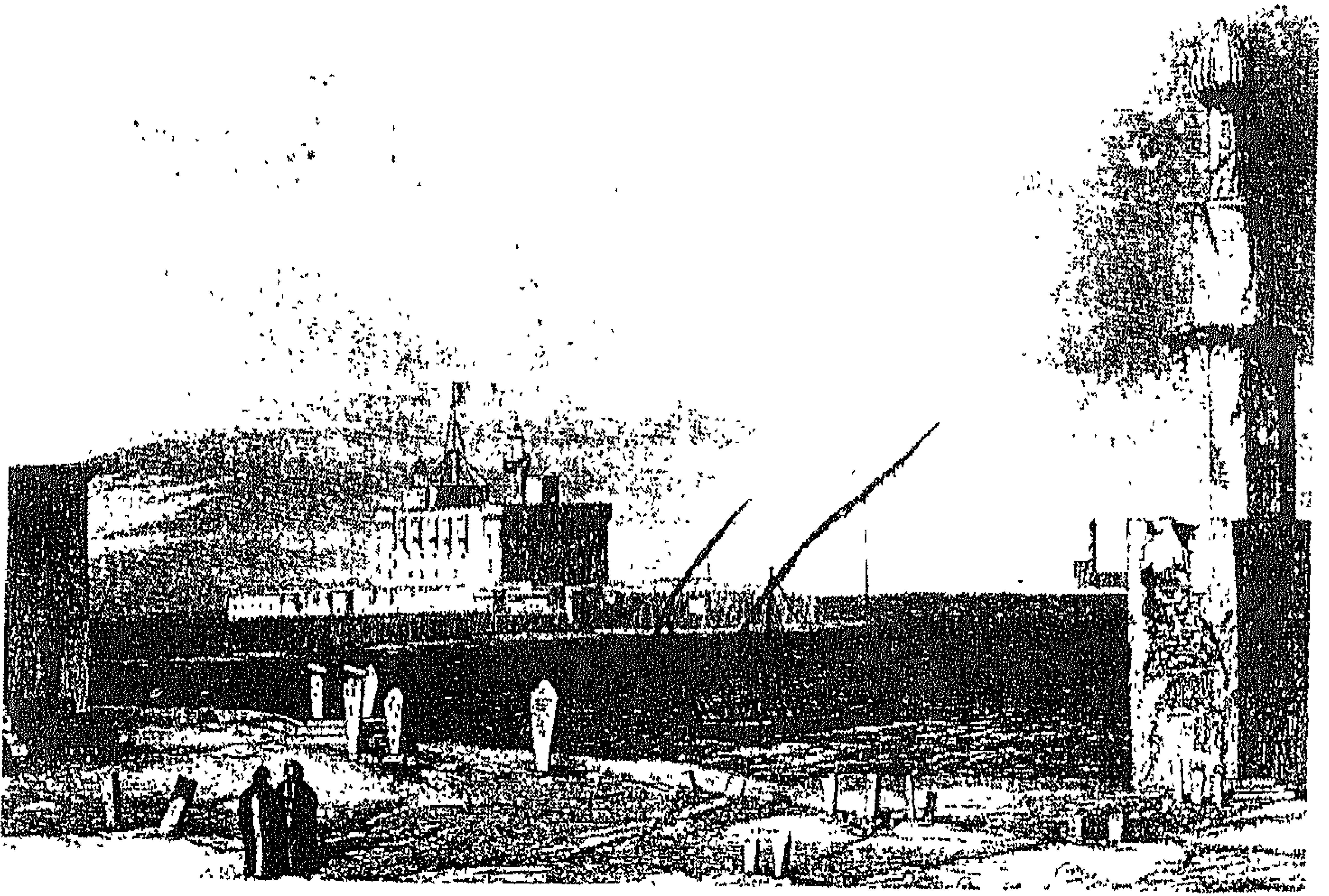
١٢١٣هـ.

١٥١٤ق.

١٧٩٨م.

غاية الفيضان قيراط٢٣/ذراع ٢٢.

□ في ١٧ محرم/ يونيو وصل الجيش الفرنساوى إلى اسكندرية، وفى ١٩ منه استولى عليها، وفى ٢٣ قام يقصد القاهرة، وفى ٢٦ وصل الرحمانية، وفى ٢٩ كانت واقعة شبرخيت، وهى أول واقعة بين بونابرطة والمماليك، وفى ٧ صفر كانت واقعة الأهرام بينهم، وفى ١١ منه دخلت الفرنساوية المحروسة وهرب أبو بكر باشا، الوالى، إلى غزة. وفى ١٢ ربيع الأول ابتداء محاربة الفرنساوية للمماليك بالوجه القبلى. وفى ١٧ ربيع أول اعدم الأميرال نيلسون الانكليزى الدونما الفرنساوية فى أبى قير. وفى ربيع الثانى أعلنت الدولة العلية الحرب على فرانسا □ فى ١٠ [جماد أول] ثورة أهالى المحروسة على الفرنساوية وإطلاق قنابلهم على الثائرين بالجامع الأزهر وبجامع السلطان حسن □ من ١٦ إلى ١٩ [من رجب] امر بونابرطة باستكشاف برزخ السويس بقصد إعمال قنال يجمع البحر الأحمر بالمتوسط على نية معاكسة الانكليز فى الهند □ وفى ٤ رمضان استيلاء الفرنساوية على العريش، وفى ٢٥ منه استيلاؤهم لغاية جزيرة أنس الوجود، وفى ٣٠ منه استولوا على يافا ثم قتلت المساجين بامر بونابرطة. وفى ١٣ شوال ابتداء حصار عكا □ وفى ١١ [ذى القعدة] حاصرت العساكر العثمانية بدمشق الجنرال كليبر فخلصه بونابرطة □ وفى٢ [من ذى الحجة] وصلت الدونما الانكليزية والعثمانية أمام عكا، وفى ١٤ منه كان خروج أحمد باشا الجزار على الفرنساوية، وفى ٢٤ منه استولوا على القصير.



* قلعة الاسكندرية بعد الغزوة الفرنسية

ذكر دخول الفرنساوية الاسكندرية
سنة ثلاث عشرة ومايتين وألف [١٧٩٨م]

وهى أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقايع النازلة والنوازل الهايلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور. وتوالي المحن، واختلاف الزمن وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع. وتتابع الأهوال، واختلاف الأحوال وفساد التدبير، وحصول التدمير، وعموم الخراب، وتواتر الأسباب، «وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»(*).

(*) هذه الآية الكريمة وردت فى أواخر سورة هود برقم ١١٦، وفيها تحريف فى كلمة مهلك، وصوابها ليهلك، وعلى ذلك فنص الآية ما يأتي: «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم، وأهلها مصلحون».

وفى يوم الأحد العاشر من شهر محرم الحرام من هذه السنة: وردت مكاتبات على يد السعاة من ثغر الإسكندرية، ومضمونها: أن فى يوم الخميس ثامنه* حضر إلى الثغر عشرة مراكب من مراكب الإنكليز، ووقفت على البعد بحيث يراها أهل الثغر، وبعد قليل حضر خمسة عشر مركبا أيضًا، فانتظر أهل الثغر ما يريدون؛ وإذا بقايق* صغير واصل من عندهم،و وفيه عشرة أنفار، فوصلوا البر، واجتمعوا بكبار البلد، والريس إذ ذاك فيها والمشار إليه بالإبرام والنقض السيد محمد كريم الآتى ذكره، فكلموهم واستخبروهم عن غرضهم، فأخبروا أنهم إنكليز حضروا للتفتيش على الفرنسيس، لأنهم خرجوا بعمارة عظيمة يريدون جهة من الجهات، ولا ندرى أين قصدهم! فربما دهموكم فلا تقدرون على دفعهم، ولا تتمكنون من منعهم! فلم يقبل السيد محمد كريم منهم هذا القول، وظن أنها مكيدة، وجاوبوهم بكلام خشن، فقالت رسل الإنكليز نحن نقف بمراكبنا فى البحر محافظين على الثغر لا نحتاج منكم إلا الإمداد بالماء والزاد بثمنه؛ فلم يجيبوهم لذلك، وقالوا هذه بلاد السلطان، وليس للفرنسيس ولا لغيرهم عليها سبيل؛ فاذهبوا عنا، فعندها عادت رسل الإنكليز، وأقلعوا فى البحر ليمتاروا(*) من غير الإسكندرية، وليقضى الله أمرا كان مفعولا.

ثم إن أهل الثغر أرسلوا إلى كاشف(*) البحيرة ليجمع العربان، ويأتى معهم للمحافظة بالثغر. فلما قريت هذه المكاتبات بمصر حصل بها اللغط الكثير من الناس، وتحدثوا بذلك فيما بينهم، وكثرت المقالات والأراجيف.

* وصول الأسطول الإنجليزى للأسكندرية بحثا عن الأسطول الفرنسى.

(*) قايق: من المصدر التركى (قايمق) بمعنى الانزلاق، والقايق هو القارب الصغير يجرى فى الماء بالمجاديف أو بالشراع.



* محمد كريم

(*) ليمتاروا: الامتيار: جلب الطعام وهى مشتقة من ميره بمعنى التموين بالطعام والماء.

(*) كاشف. كان الكشاف يحكمون الولايات الصغيرة التى لم تبلغ مرتبة السنجقية والتى كانت تسمى كاشفيات، فكانوا فى الغالب من اتباع السناجق ولذا فإنهم فى بعض

ثم ورد فى ثالث يوم بعد ورود المكاتيب الأول مكاتبات مضمونها أن المراكب التى وردت الثغر عادت راجعة. فاطمأن الناس، وسكن القيل والقال. وأما الأمرا فلم يهتموا بشى من ذلك، ولم يكترثوا به اعتماداً على قوتهم وزعمهم أنه إذا جاءت جميع الإفرنج لا يقفون فى مقابلتهم، وأنهم يدوسونهم بخيولهم.

فلما كان يوم الأربعا العشرون* من الشهر المذكور وردت مكاتبات من الثغر، ومن رشيد ودمنهور بأن فى يوم الاثنين ثامن عشره وردت مراكب وعمارات للفرنسيس كثيرة ـ فأرسوا فى البحر، وأرسلوا جماعة يطلبون القنصل، وبعض أهل البلد ـ فلما نزلوا إليهم عوقوهم عندهم، فلما دخل الليل تحولت منهم مراكب إلى جهة العجمى، وطلعوا إلى البر، ومعهم آلات الحرب والعساكر، فلم يشعر أهل الثغر وقت الصباح إلا وهم كالجراد المنتشر حول البلد، فعندها خرج أهل الثغر، وما انضم إليهم من العربان المجتمعة، وكاشف البحيرة. فلم يستطيعوا مدافعتهم، ولا أمكنهم ممانعتهم ولم يثبتوا لحربهم. وانهزم الكاشف ومن معه من العربان.

ورجع أهل الثغر [الاسكندرية] إلى التترس فى البيوت والحيطان، ودخلت الأفرنج البلد، وانبث فيها الكثير من ذلك العدد، كل ذلك وأهل البلد لهم بالرمى يدافعون، وعن أنفسهم وأهليهم يقاتلون ويمانعون. فلما أعياهم الحال، وعلموا أنهم مأخوذون بكل حال، وليس ثم عندهم للقتال استعداد لخلو الأبراج من آلات الحرب والبارود،

الأحيان، كانوا يشرفون على بعض مناطق من الولايات الكبيرة، أو ينوبون عن السناجق فى حكم هذه الولايات، وقد وصل عدد هؤلاء الكشاف فى مصر فى القرن الثامن عشر إلى أربعة وعشرين كاشفا، ومن أهم مهمات الكاشف، الإشراف على الرى، وجرف الجسور، وشق الترع والمصارف، وجمع الأموال الاميرية وغير ذلك.

* من الثابت أن الاسطول الانجليزى وصل قبل الاسطول الفرنسى بثلاثة أيام فقط وليس عشرة أيام كما يذكر الجبرتى هنا [انظر التقديم].

وقد وصلت الحملة الفرنسية إلى سواحل مصر الشمالية قرب الأسكندرية فى يوم الأحد ١٧ محرم سنة ١٢١٣هـ = الاول من يوليو سنة ١٧٩٨م. وفى ١٩ محرم استولت الحملة على الاسكندرية.

وفى مخطوطة لمجهول بمكتبة جامعة القاهرة تحت اسم «قصة حياة أحمد باشا الجزار» وهى قيد النشر بتحقيق / عبد العزيز جمال الدين، تذكر وقائع نزول الحملة الفرنسية على مصر وردّ فعل ذلك على الشام كما يلى:ـ

وفى سنة ألف ومايتين وثلاث عشر [١٧٩٨م] وردت الأخبار إلى الديار الشامية أن مراكب الفرنساوية تملكوا بلدة الاسكندرية، فتحسب الجزار جدا لذلك، وشرع يهتم فى تحصين عكا ويستحضر للحصار، ولما تأكدت الأخبار أن الفرنساوية ضبطوا مصر [القاهرة] ايضا وأن مراد بيك وبقية الغز هربوا حينئذ فأمر الجزار بتحصين

المدن التى تحت حكمه وأمر بخروج النصارى من جميع بلاده، ثم منع ورود المراكب إلى اسكلاته، وانقطع بسبب ذلك ورود البضايع المصرية إلى الشام وفى أثناء ذلك وردت مراكب الانكليز إلى عكا وطرابلس وصحبتهم فرمان من الدولة العلية وهذه صورته.

(صورة فرمان من الدولة العلية ممنوح لسر عسكر العمارة الانكليزية حتى يتعاون معه حكام ساحل الشام ضد الفرنساوية ويزودوه باحتياجاته من المؤن).

إلى جميع المدن من السلطان سليم خان يخبر بالاتحاد الذى بين الانكليز والإسلام على الفرنساوية اللئام.

اقضى قضاة المسلمين نائب أفندى بطرابلس وأعيانهم عموما زيد قدرهم المنهى إليكم أنه لا يخفاكم أن بهذه السنة قد هجم الكفرة والطغاة البغاة الفرنساوية على أخذ الاسكندرية ومصر القاهرة وما يليها، والآن وقد اختلسوا يافا وغزة والرملة وتوابعهم وعلى عزمهم الغائب الفاسد الخايب الغير صايب، تدمير أمة المسلمين المؤمنين، وبواحدانية رب العالمين مقرين، وبرسالة رسوله معترفين. ولذلك اقتضى من وجود الصداقة الصادقة والمحبة الواثقة، وحسن معروف سيادة المحب الصادق الصدوق والخل الموافق الموثوق أجل الأحباب وسمهرى الانساب سعادة أخينا المحترم سلطان الانكليز المفخم المتحد معنا بالارتباط سوية، على تدمير الأمة الفرنساوية، لغزير مراحمه ووفور مكارمه فسمح وجاد بجوده فى الوداد، وسير من فيض كرمه سر عسكرا، ثم ومن لدنا سر عسكر العمارة العثمانية والمراكب البحرية، صحبة افتخار الأمراء الكرام فى الطائفة المسيحية، وعظيم الكبراء الفخام فى الملة العيسوية، مصلح مصالح جماهير الأمة النصرانية، جناب محبنا المحترم سينور سميث الاكرم. وهو بالتفويض الخاقانى مشير مطلق، مشيد موفق، ناظم ومنظم قطب تلك الديار بوجه المناظرة والاعتبار.

فليعلم كل منكم تفويض محبته بالالتفات من لدنا من سائر الجهات، فمهما مرّ عليكم من مراكبه واتباعه فسيروا له الإكرام الزايد والإنعام الوافر. وليعلم الخاص والعام زود صداقته مع الإسلام، والإعانة لنا منه على الدوام، على تدمير الفرنساوية اللئام، تعلموا ذلك وتعتمدوه غاية الاعتماد والسلام.

حرر فى جماد الثانى سنة ١٢١٣ [١٧٩٨م].

ثم حضر ايضا فرمان إلى سائر البلدان من السلطان سليم خان وهذه صورته.

«صورة فرمان من السلطان سليم خان إلى سائر البلدان»

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

يا جماعة الموحدين وملة المسلمين.. أعلموا أن الطائفة الفرنساوية جعل الله تعالى ديارهم دارسة وأعلامهم ناكسة «منكسة» لأنهم الكفرة الطغام، والفجرة البغاة لا يؤمنون بوحدانية رب السماء والأرض، ولا برسالة الشفيع يوم العرض بل تركوا

وكثرة العدو وغلبته ـ طلب أهل الثغر الأمان فأمنوهم، ورفعوا عنهم القتال، ومن حصونهم أنزلوهم، ونادى الفرنسيس بالأمان فى البلد، ورفع بنديراته [أعلامه]، وطلب أعيان الثغر فحضروا بين يديه، فألزمهم بجمع السلاح، وإحضاره إليه، وأن يضعوا الجوكار فى صدورهم فوق ملبوسهم: (الجوكار ثلاث قطع من جوخ أو حرير أو غير ذلك مستديرة فى قدر الريال سودا [زرقا] وحمرا وبيضا توضع بعضها فوق بعض بحيث تكون كل دايرة أقل من التى تحتها حتى تظهر الألوان الثلاثة كالدواير المحيط بعضها ببعض).

واتحدوا تحت راية الشيطان، فلا دين يجمعهم ولا حاكم يرعاهم، وقد قهروا من لم يبعهم ويتبعهم، فبقيت سائر طوائف الافرنجة من جورهم فى هرج ومرج، وهوج وموج، وهؤاء يهرون كهرير الكلاب وينهشون نهش الدياب، وقد جمعوا على تلك الطوايف الجماهير، قاصدين تخريب قواعد ديانتهم ونهب نسائهم وأموالهم، فجرى الدما بينهم كالماء وقد نالت منهم الفرنساوية المراد وحكموا بهم بالجور والفساد، ثم اتصل فسادهم وشرورهم قصدهم إلى الأمة المحمدية والملة الأحمدية. وقد وقع بيدنا بواسطة بعض جواسيسنا الكتب التى كتبها لهم مدير جمهورهم ورئيس عساكرهم بونابارته، فاسمعوا خرافاته وما يقوله من الفساد المبين:

ننهى إليكم أن ركن العالم قوى متين ذو الصلابة فى الدين فإذا وصلتم إلى اقطارهم وملكتم ديارهم ينبغى لكم بأن تعاملوهم بمقتضى حالهم فالضعيف منهم بادروه بالحرب والقتل والنهب. والقوى انصبوا له شرك الحيل والمكر [وأوعدوا] كبارهم بعدم التعرض لدينهم وعرضهم وأموالهم، وألقوا الفتن بينهم، وسلطوا الأدنى على الاشراف والقوا الفساد والانفاق بالحيل والاتفاق بينهم، وعلى الخصوص خاقانات العجم وبنى عثمان بأى وجه كان ليقع النزاع والجدال والشرور والقتال وتخرج



* بونابرت والي جواره كفاريللى (الثانى من اليمين) بعد احتلال الاسكندرية.

الأديان كلها ونكروا الآخرة وشدتها، ولا يعتقدون يوم الحشر والنشر، ويزعمون أن لا يهلكنا إلا الدهر، وما هى إلا أرحام تدفع وأراضى تبلع، وليس وراء ذلك مكث ولا حساب، ولا بعث ولا عقاب، ولا سؤال ولا جواب، حتى أنهم نهبوا أموال كنايسهم وتجملات صلبانهم وغاروا على قسوسهم ورهبانهم وزعموا أن الكتب التى جاءت بها الأنبياء هى كفر صريح، وليس القرآن والتورية [التوارة] والإنجيل إلا زور واقاويل، والمعتبر من الأنبياء كموسى وعيسى ومحمد وغيرهم ليس هو صحيح، وما جاء إلى الدنيا نبى ولا رسول، بل هم مفترين على الحق جهول، والناس كلهم متساويين فى الإنسانية متشاركين فى البشرية، ليس لأحد على أحد فضل ولا مزية، وكل منهم فى ذاته يدبر نفسه وأمر معاشه فى حياته، وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأى الهازل بنوا قواعد جديدة وقوانين أكيدة، وثبتوا على ما وسوس لهم الشيطان وهدموا قواعد الأديان وحللوا لأنفسهم سائر المحرمات وأباحوا لأنفسهم ما تميل إليه الشهوات، وضلوا فى شقاقهم العوام الذين هم كالهوام، وقد افتتنوا بين الملل والقوا الفساد بين الملوك والدول وبالكتب المزورة والاباطيل المزخرفة يخاطبون كل طائفة إننا منكم وعلى دينكم وملتكم، ويوعدونهم بالمواعيد الباطلة، ويحذرونهم بالتحذيرات الهائلة، وقد انهمكوا فى الفسق والفجور وركبوا مطية الغدر والغرور، وخاضوا فى بحر الضلال والطغيان،

الناس عن طاعة السلطان والرعايا من أوامر الحكام، فيخرب بذلك نظامهم وينقطع عقد انتظامهم فيتشتت بذلك شملهم وتنفذ خزائنهم وأموالهم وحينئذ تملكون قيادهم. ولأجل اضلالهم ينبغى أن تعينوا الضعفا منهم على الأقويا لأنه إذا اضمحل حال الاقويا بإعانة الضعفا هانت عليكم إبادتهم، لكون بين الفرنساوية والإسلام اختلاف تام. وبمقتضى صلابة دينهم لا يمكنهم موافقتنا قطعا وبغير دفع الاديان جميعا لا يجوز لنا الركون إليهم والاعتماد عليهم، وبعد أن نظفر بهم بسبب الحيل التى تقدمت، فنهدم كعبتهم وبيت مقدسهم وجميع جوامعهم ومساجدهم، ونقتلهم بالتمام سوى الصبيان والفتيان من النسوان. ثم نقسمهم بيننا ونقسم ديارهم وأملاكهم. ونحول بقية أحوال الناس إلى أحوالنا. وهكذا تمحى قواعد الإسلام وتندرس رسوم آثارهم من وجه الأرض قاطبة عربا وعجما غربا وشرقا.

انتهت عباراتهم الخبيثة سطر بسطر فعليهم من الله دائرة السوء، فلا يستطيعون مضيا ولا نصيرا. فهذا قصد الفرنساوية من الحادهم ومكرهم وشرهم وكفرهم فكيف لا يكون فرضا على كل واحد من المسلمين ابدا المروة، فيا غزاة الموحدين ويا ابطال الحرب والضرب ورجال الغزو والنهب ويا أركان الشريعة المحمدية وقواعد الملة الحنفية، بل يا كل المسلمين المؤمنين بالله تعالى وبرسوله، أقرنوا القوة والهمة المحمدية لحرب هذه الفرنساوية، لأن فى زعمهم أن زمرة الموحدين كالكفرة الذين حاربوا وحوربوا ولم يعلم الملاعين أن الإسلام مغروس فى قلوبنا ممزوج بدمنا.

أكفر بعد الإيمان، وضلال بعد هديان. وقد قال الله تعالى فى كتابه المبين: ﴿لا يتخذ المؤمنون [الذين يتخذون] الكافرين أولياء من دون المؤمنين﴾ فكونوا على حذر من كيدهم وتزويراتهم ولا تخافوا تهديدهم وتخويفاتهم، لأن الاسد لا يبالى بجمع الشعالب ولا الباز بسائر الاغارب، وكونوا على قلب واحد بعضكم مع بعض، كما قال الصادق: «المؤمن إلى المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا» وتغيروا فى الحرب والاشفاق، وارفعوا من بينكم الاشرار وأهل النميمة والنفاق أينما كنتم. ونحوما وجدتم قريبا أو بعيدا قفوا كلكم سوية بالإسلام، وتحققوا أن الطايفة الفرنساوية بقوة المال يفسدون من دينه ضعيف وعقله خفيف والمجبول على النفاق، ويعملون أمثال هذه الحيل والفسادات ليلقونها بين العباد، فعليكم أن تباشروا دفعهم وطردهم. وكونوا متفقين على تقوية الدين المبين وعلى حذر من الكافرين والضالين، لأن كل مفسد بين الأنام هو من الكفرة اللئام. وهذه الفرقة الملعونة قد فارقت جميع الأديان والملل وخالفت كل الكتب والنحل، وقالوا بالطبيعة وأنكروا الصانع ذو الصنايع البديعة والخلايق المتنوعة التى ظهرت فيهم قدرته الباهرة واختراعاته القاهرة الظاهرة، وانكروا نبوة عيسى وموسى وسائر الأنبياء والرسل والكتب المنزلة، ورفعوا عن انفسهم التكاليف والعبادات، وأرادوا رفع جميع الأديان من غير ملتهم ومذهبهم الفاسد، وهم قوم لا خلاق لهم ولا عقل ولا دين، فكيف يعتمد على قولهم أو يركن إلى عهدهم وأمانهم وإيمانهم، واحذروا الالتفاف إلى عهودهم ومواعيدهم، واعلموا بأنهم دهريون يقولون أن الارحام تدفع والأرض تبلع ولا حشر ولا نشر ولا حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار ولا إله ولا نبى. وعزموا على ظلم العباد وخراب البلاد بالحيلة والمكر والاستيلاء [على] ملوك الأرض ليغيروا الأديان ويحيلوا الناس إلى اعتقادهم ودينهم المخترع الفاسد

الضال. ولتكن سيوفكم بارقة وسهامكم راشقة واسنتكم فى الطعن متلاحقة ونبالكم فى ابدانهم متسابقة، والفرسان تجول فى حومة الميدان وتلقى الكفرة فى النار والنيران، لأن عون الله معكم وعينه ناظرة إليكم، وأنتم بنظر العلى محفوظين وبروحه تهزمونهم جميعا مجندلين. ونحن فى طرق السلطنة السنية اشهرنا الأوامر العلية فى جميع العساكر والاجناد، على سائر البلاد بحول الله وقوته وعظم قدرته. فعن قريب تجتمع عساكر وافرة وجنود متكاثرة وسفن كالجبال تمشى بقدرة الملك المتعال ذو الجلال ومدافع كالرعد القاصف والبرق الخاطف وشجعان لا يبالون بالموت حبا فى الدين ونصرة لدين الله. فلعل الله يأمر بالهلاك فى ديارهم وتجعلها كالهباء، كأنها لم تكن بقدرة الحى القيوم وقد خاب من حما ظلماء. وقطع دابر القوم الذين ظلموا والسلام.

فلما وصلت هذه الفرامين لم ينتبه أحد من المسلمين لضعف العثمانلى وخوفه من الافرنجة.

ثم فى هذه السنة بنفسها [١٢١٣هـ = ١٧٩٨م] حضر فرمان ايضا من الدولة العلية إلى أحمد باشا الجزار وهذه صورته.

فرمان الدولة العلية إلى الحاج الجزار أدام الله اجلاله

دستور مكرم مشير مفخم نظام عالم مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب، متمم مهام الأمور بالرأى الصايب ممهد بنيان الدولة والاقبال، مشيد اركان السعادة والإجلال، المتخوف بصنوف عواطف الملك المتعال. والى صيدا الحاج أحمد الجزار أدام الله اجلاله..

نعرفك بخصوص الكفرة ملة الفرنساوية الليام [اللئام] جعل الله دائرة الأسواء عليهم فإنهم فى العام الأول هجموا على أخذ مصر القاهرة، والآن وقد استولوا على يافا وغزة والرملة، فلزم أننا بمشيئة الله تعالى بارى البرية أن نصمم النية لمقابلتهم. وأمرنا بالتوفيقات الربانية بقيام سعادة الدستور الوقور، والعزم صاحب الأمر الاعظم وزير مطلق مشيد موفق مظهر الحق الاشرف الفاخر وتاج الوزراء العظام مالك زمام العالم صاحب التدبير الحسن المفوض له كافة تدابير المملكة العثمانية الخاقانية الحاج يوسف ضيا باشا المكرم أدام الله اجلاله، وخلد فى السعادة اقباله وبلغه من الدنيا آماله. ولأجل ذلك واصل إليكم دفتر ممهور بطلب ذخيرة تحضر سريعا من غير تقيد، فيلزم ارسالها على أوفق حال وأسرع مجال من دون إهمال ولا نكال. ثم عند وصول سعادته إليك يجب أن تباشر فى القيام إلى مدافعة الفرنساوية اللئام والى غزوهم وتدميرهم بالمجازاة والتذخير بوجه السرعة مصحوبا بالعسكر الغزير والجمع الوفير من دون تأخير.. عرفناك ذلك فاعتمده غاية الاعتماد والسلام.

وبصحبة هذا الفرمان حضر للجزار أمر من يوسف باشا الوزير الأعظم وهذه صورته.

صاحب التدبير الحسن المهتم بأمور خالصه حسنه أخينا الأكرم دام مكرما وفى طاعة الدولة مقيم.

من بعد ما وجب ولائق من واجبات الاتحاف بكل شوق واشفاق وتحنن وانعطاف، نعرفك أنه سابقا تقدم منك لدى سدة السعادة الدولة العلية والعواطف الملوكية بخصوص المواشكات مع اخواتنا أمير الحاج عبد الله باشا عظم زاده زيد قدره، والحاج إبراهيم باشا ودفع تصرفهم بأماكنهم واهمالهم لأماكن كثيرة، مع تفويضكم لواحق ايالاتكم وكفالتكم برفع يد الكفرة الفرنساوية عن مصر القاهرة، وممالك الدولة العلية دامت محروسة من كل بلية، وقد أنعمت الدولة عليكم بالتفويض التام ملخصة ذلك للخاص والعام وسائر الأنام. والآن قد صار الأمر بخلاف ذلك، ورجع الزعم الصايب اسراف، فلذلك حصلتم لدى الحضرة الهمايونية ممنوعين الاطراف. وعن ذلك؛ اقتضى صفر الاختيار ومعارضة الاقتدار، إننا قد صممنا النية أننا بنصف نيسان المبارك يتحرك ركابنا السعيد لمقابلة الفجرة البغاة والكفرة الطغاة وإن شاء الله الملك الجبار نشكلهم، وندمرهم أعظم دمار بحول الواحد القهار المعين للإسلام، وواصل إليكم دفتر ممهور بطلب ذخيرة حسب الأمر السلطانى للعسكر المنصور العثمانى، تباشروه بسرعة ولا تحجبوا أخباركم عنا والسلام.

* معركة سيدى جابر ١٣ مارس سنة ١٨٠١

ولما وردت هذه الأخبار مصر ـ حصل للناس انزعاج ، وعول أكثرهم على الفرار والهجاج.

* مراد بك

* ختم مراد بك وختم ابراهيم بك

وأما ما كان من حال الأمرا بمصر فإن إبراهيم بك ركب إلى قصر العينى وحضر عنده مراد بك من الجيزة لأنه كان مقيما بها، واجتمع باقى الأمرا والعلما والقاضى، وتكلموا فى شأن هذا الأمر الحادث ـ فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مكاتبة بخبر هذا الحادث إلى إسلامبول، وأن مراد بك يجهز العساكر، ويخرج لملاقاتهم وحربهم، وانفض المجلس على ذلك، وكتبوا المكاتبة وأرسلها بكر باشا مع رسوله على طريق البر ليأتيه بالترياق من العراق، وأخذوا فى الاستعداد للثغر وقضا اللوازم والمهمات فى مدة خمسة أيام، فصاروا يصادرون الناس، ويأخذون أغلب ما يحتاجون إليه بدون ثمن، ثم ارتحل مراد بك بعد صلاة الجمعة، وبرز خيامه ووطاقة إلى الجسر الأسود [بالجيزة] فمكث به يومين حتى تكامل العسكر وصناجقه وعلى باشا الطرابلسى وناصف

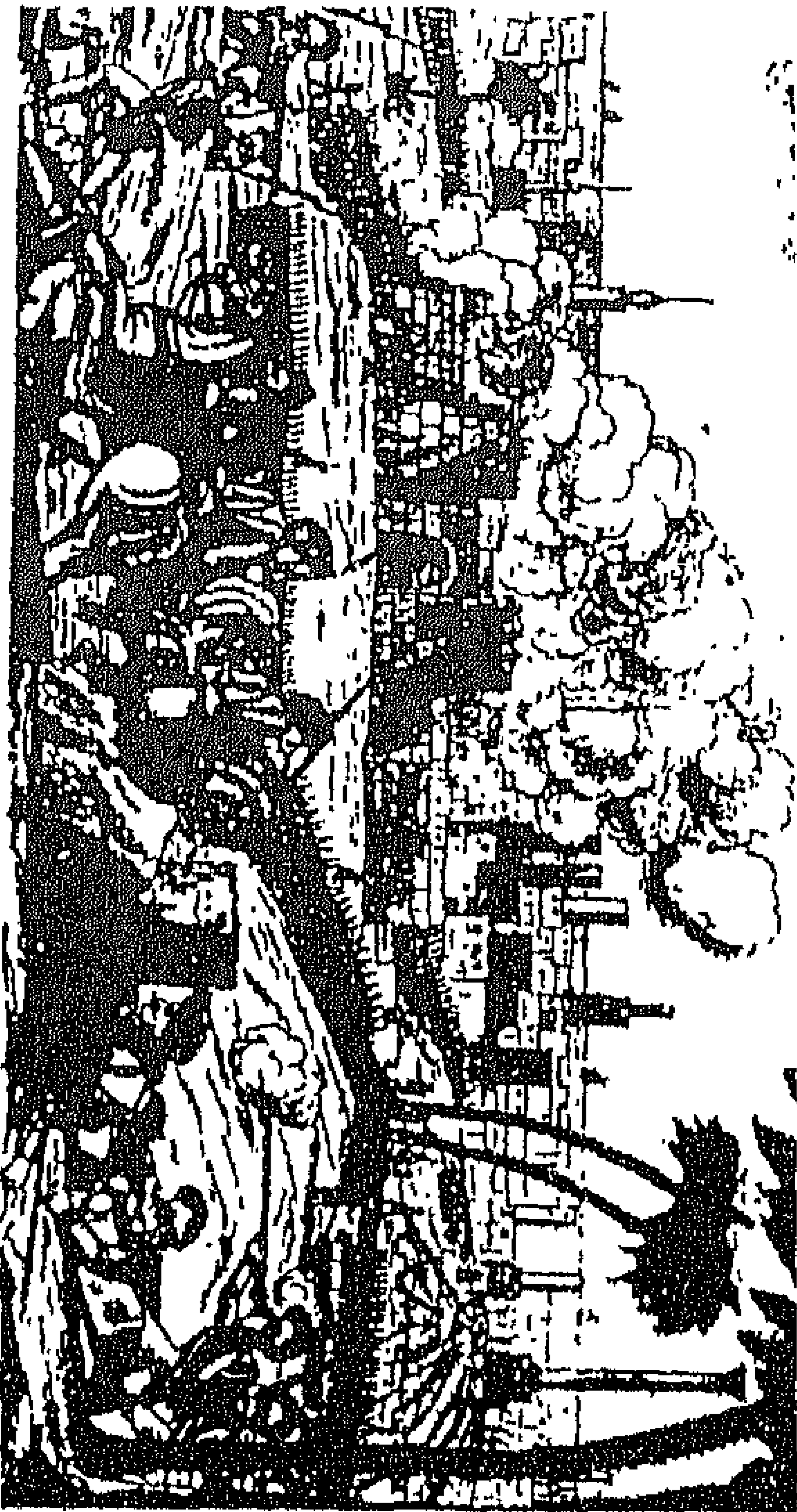
باشا؛ فإنهم كانوا من أخصايه ومقيمين معه بالجيزة، وأخذ معه عدة كثيرة من المدافع والبارود، وسار من البر مع العساكر الخيالة، وأما الرجالة وهم الألداشات(*) القلينجية والأروام والمغاربة، فإنهم ساروا في البحر مع الفلايين الصغار التي أنشاها الأمير المذكور.

ولما ارتحل من الجسر الأسود [عند الجيزة] أرسل إلى مصر بأمر بعمل سلسلة من الحديد في غاية الثخن والمتانة طولها مائة ذراع وثلاثون ذراعا لتنصب على البغاز عند برج مغيزل [عند رشيد] من البر إلى البر لتمنع مراكب الفرنسيس من العبور لبحر النيل، وذلك بإشارة على باشا، وأن يعمل عندها جسر من المراكب، وينصب عليها متاريس ومدافع ظنا منهم أن الإفرنج لا يقدرون على محاربتهم في البر، وأنهم يعبرون في المراكب ويقاتلونهم وهم في المراكب، وأنهم يصابرونهم ويطاولونهم في القتال حتى تأتيهم النجدة.

وكان الأمر بخلاف ذلك ـ فإن الفرنسيس عندما ملكوا الإسكندرية ساروا على طريق البر الغربي من غير ممانع، وفي أثنا خروج مراد بك والحركة ـ بدت الوحشة في الأسواق وكثر الهرج بين الناس والإرجاف، وانقطعت الطرق، وأخذت الحرامية في كل ليلة تطرق أطراف البلد، وانقطع مشي الناس من المرور في الطرق والأسواق من المغرب. فنادى الأغا والوالي بفتح الأسواق والقهاوي ليلا، وتعليق القناديل على البيوت والدكاكين. وذلك لأمرين: الأول ذهاب الوحشة من القلوب وحصول الاستيناس، والثاني الخوف من الدخيل في البلد.

(*) الالداشات: من التركية يولداش (يول) أي الطريق و(داش) أداة المشاركة، واليولداش هو الرفيق في الطريق. وتطلق على الزملاء وأعضاء الحزب الواحد وجمعها في العامية المصرية (ألاديش) ولهم فرقة من المشاة سلاحهم السيوف.
أما القلينجية فهم العسكر البحرية من
[illegible]

*الفرنساوية تحتل الاسكندرية



الجبرتي/ سنة ١٢١٣م

وفي يوم الاثنين: وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى دمنهور ورشيد* وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم ـ فذهبوا إلى فوة ونواحيها، والبعض طلب الأمان، وأقام ببلده وهم العقلا. وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالإسكندرية كتبوا مرسوما وطبعوه، وأرسلوا منه نسخًا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينا لهم، ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى* [المغاربة] الذين وجدوهم [الفرنسيس] بمالطة، وحضروا صحبتهم، وحضر منهم جملة إلى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ومعهم منه عدة نسخ، ومنهم مغاربة، وفيهم جواسيس، وهم على شكلهم من كفار مالطة ، ويعرفون باللغات.

وصورة ذلك المكتوب: *

بسم الله الرحمن الرحيم: لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه ـ من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته.

يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد ـ الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار في حق الملة الفرنساوية، ويظلمون تجارها بأنواع الإيذا والتعدى، فحضر الآن ساعة عقوبتهم، وأخرنا من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلاد الأبازة والجراكسة يفسدون في الإقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد في كرة الأرض كلها ـ فأمّا ربُّ العالمين القادر على

* وصول الفرنسيس إلى دمنهور ورشيد.

(*) اسرى مالطة: كانت مالطة حتى استيلاء نابليون عليها تحت حكم فرسان القديس يوحنا الذين عملوا على القرصنة البحرية ضد السفن الإسلامية، وأدى ذلك بالتالي إلى وقوع العديد من الاسرى المسلمين في ايديهم، وكان بعض الحكام المسلمين يتدخلون لفداء هؤلاء الاسرى. مثلما حدث من مولاى محمد حاكم مراكش في عام ١٧٦٧م الذى ارسل نائبه بأموال إلى مالطة حيث حرر ٣٦ من اسرى المسلمين. وقد استولى عليها بونابرت وهو في طريقه إلى مصر حيث اطلق سراح اسرى المسلمين فيها وجاءوا معه إلى القاهرة.

* كتب هذا المنشور وبونابرت في سفينة القيادة لوريان وترجمه المستشرق ڤينتور دو پارادى وهو على علم جيد بشؤن مصر التي عاش فيها سنوات عديدة في عهد على بك كما انه احد واضعى خطط فتح مصر. وبمقارنة المنشور مع ما نشره هنرى لورنس يلاحظ اختلاف في كلمتين فقط وهما .كلمة يتسلطون كما نشرها الجبرتي ولكن في النص الذى أورده لورنس يتسلطنون وكلمة الإيذاء التي اوردها الجبرتي هي البلص في نص لورنس.

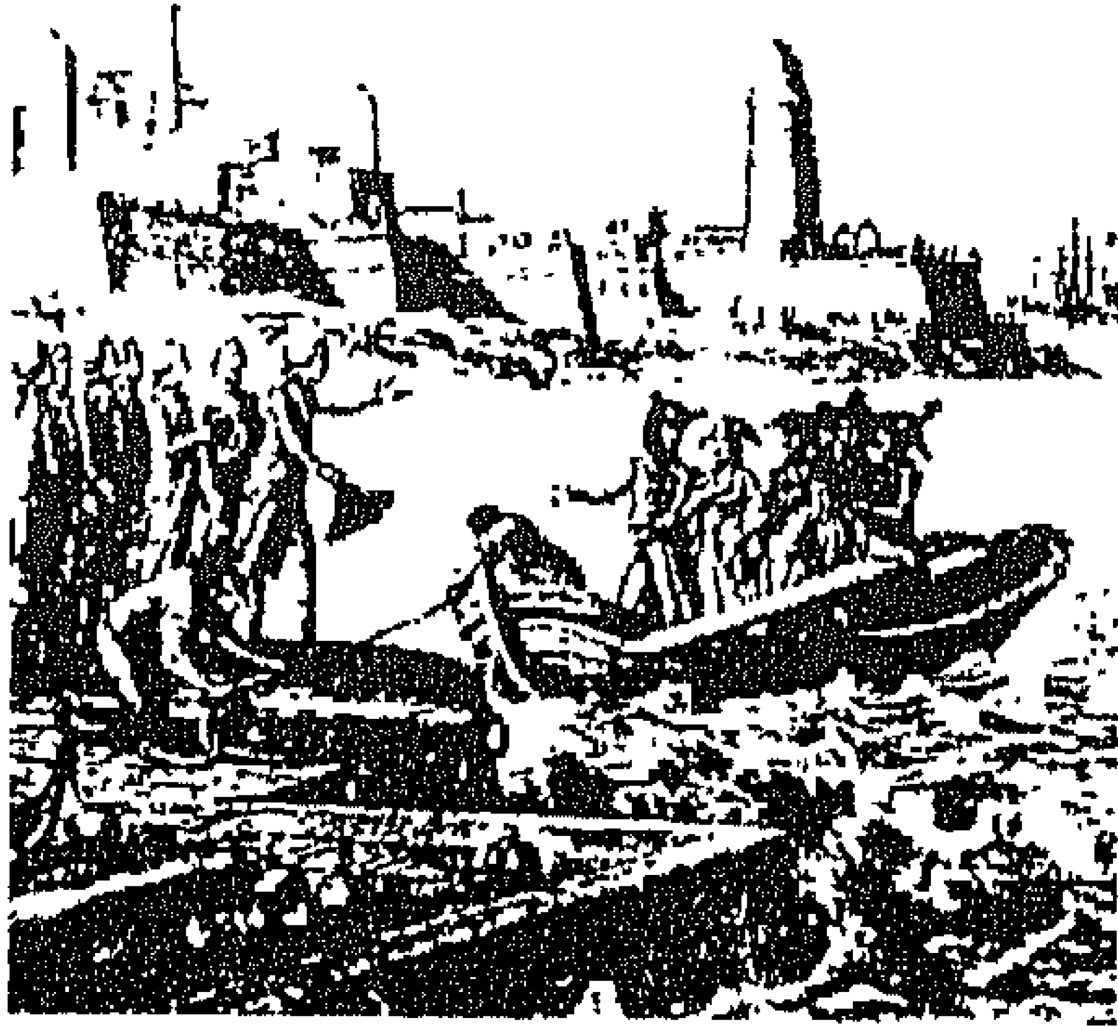
كل شيء فإنه قد حكم على انقضاء دولتهم. يا أيها المصريون قد قيل لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه، والقرآن العظيم.

وقولوا أيضا لهم إن جميع الناس متساوون عند الله، وإن الشى الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضايل والعلوم فقط، وبين المماليك والعقل والفضايل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم، ويختصوا بكل شى أحسن فيها من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة! فإن كانت الأرض المصرية التزاما للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم! ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم. ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية، وعن اكتساب المراتب العالية. فالعلما والفضلا والعقلا بينهم سيدبرون الأمور، وبذلك يصلح حال الأمة كلها. وسابقًا كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر، وما أزال ذلك كله إلا الظلم والطمع من المماليك.

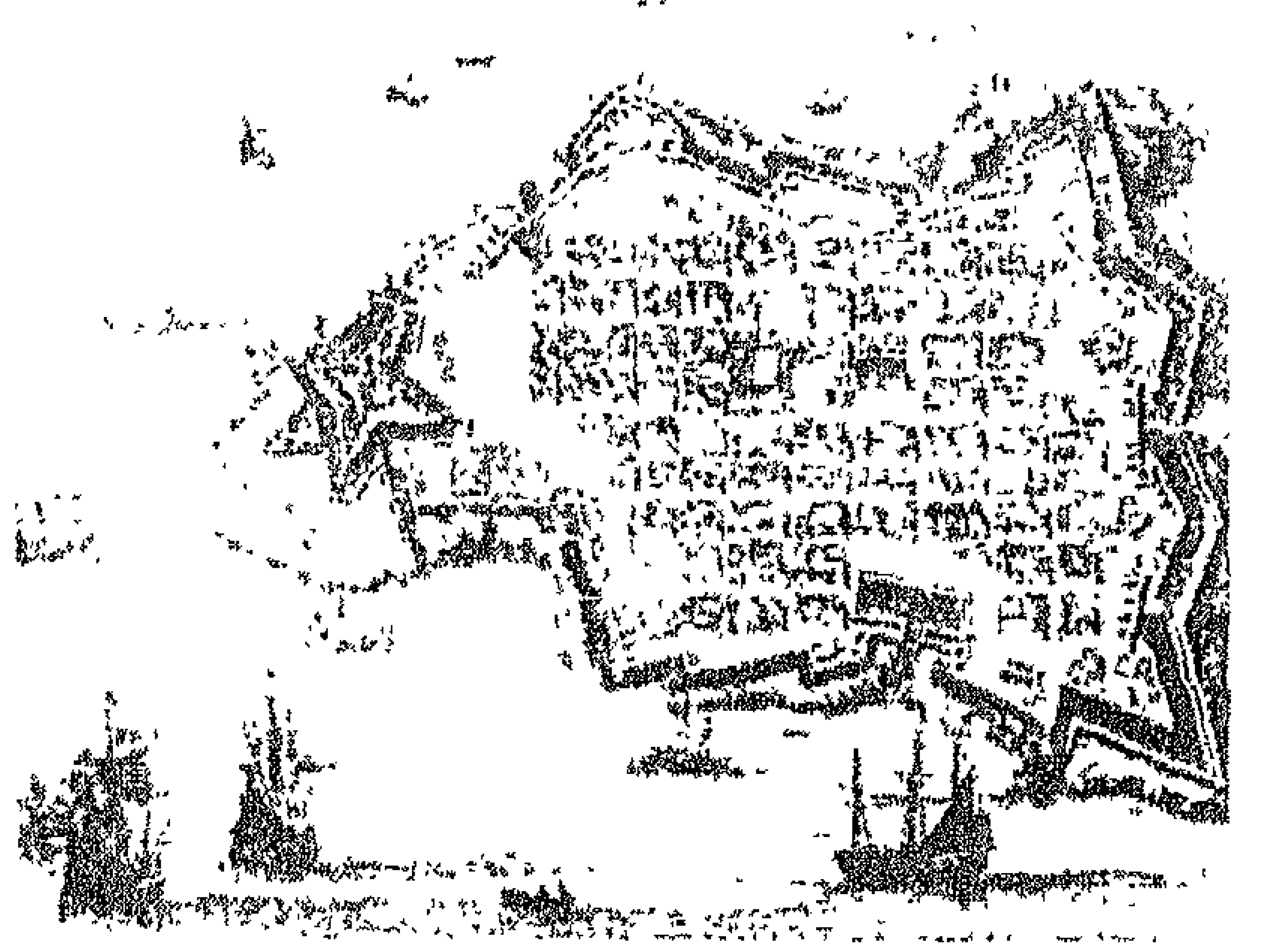
أيها المشايخ والقضاة والأيمة والجربجية وأعيان البلد ـ قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دايما يحث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطة، وطردوا منها الكواللرية [فرسان

٦٧ لمزيد من المعلومات راجع هنرى لورنس. الحملة الفرنسية فى مصر. ترجمة بشير السباعى ـ دار سينا للنشر ـ القاهرة ١٩٩٥ ص ١٣١ ومابعدها.

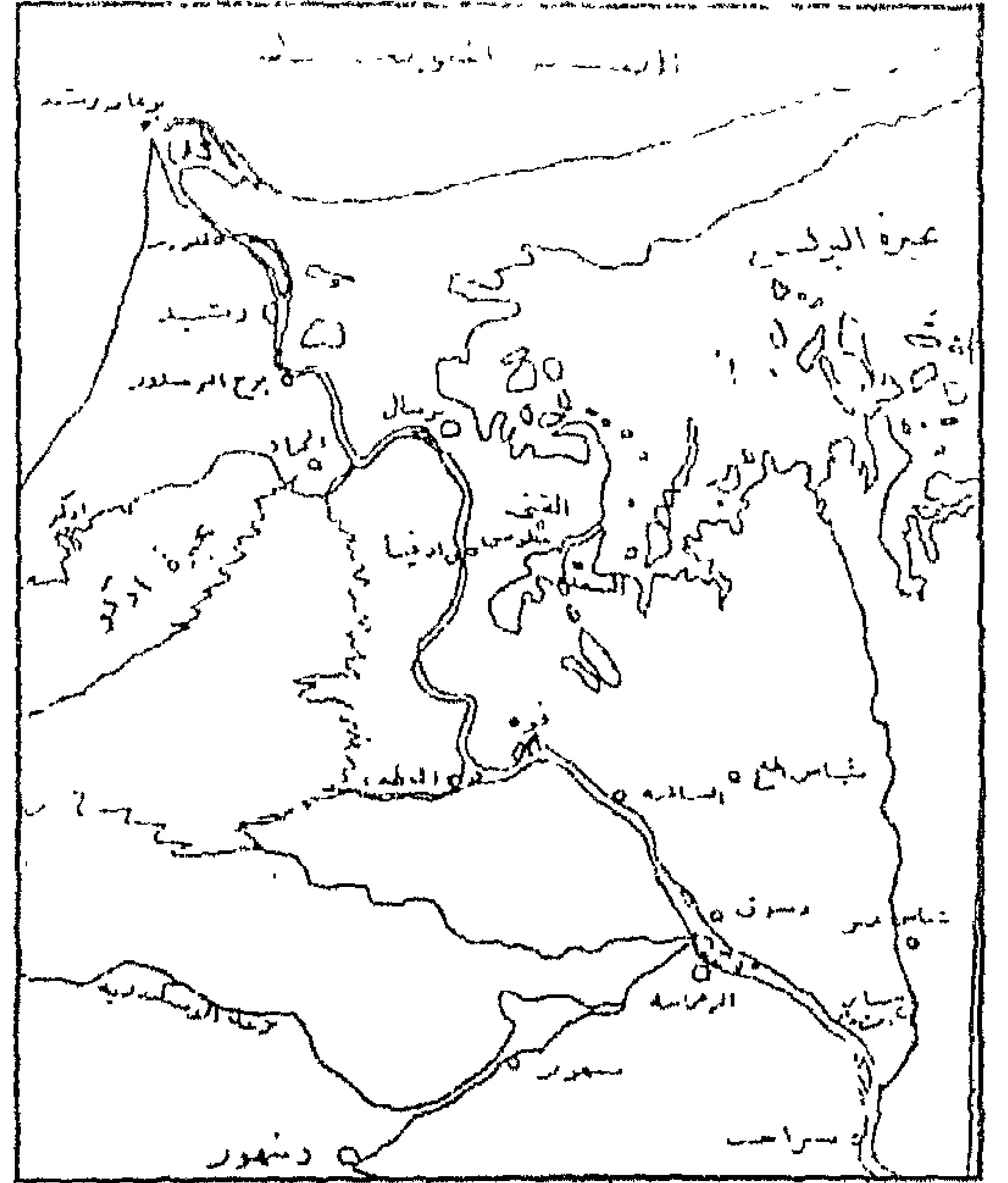
* احتلال مالطة.



الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



* قلعة مالطة.



* خط سير الحملة الفرنسية حتى الرحمانيه ودمنهور وشبراخيت

القديس يوحنا] الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى، وأعدا أعدايه ـ أدام الله ملكه ـ ومع ذلك إن المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره. فما أطاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم. طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير، فيصلح حالهم وتعلى مراتبهم، طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين المتحاربين. فإذا عرفونا بالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب. لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقاً إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر.

المادة الأولى: جميع القرى الواقعة فى دايره قريبه بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها عسكر الفرنساوية فواجب عليها أن ترسل للسر عسكر من عندها وكلا كيما يعرف المشار إليه أنهم أطاعوا، وأنهم نصبوا علم الفرنساوية الذى هو أبيض وكحلى وأحمر.

المادة الثانية: كل قرية تقوم على العسكر الفرنساوى تحرق بالنار.

المادة الثالثة: كل قرية تطيع العسكر الفرنساوى أيضا تنصب صنجاق [علم] السلطان العثمانى محبنا دام بقاه.

المادة الرابعة: المشايخ فى كل بلد يختمون حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك التى تتبع المماليك، وعليهم الاجتهاد التام لئلا يضيع أدنى شى منها.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

المادة الخامسة: الواجب على المشايخ والعلما والقضاة والأيمة أنهم يلازمون وظايفهم، وعلى كل أحد من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطميناً، وكذلك تكون الصلاة قايمة فى الجوامع على العادة. والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لإنقضا دولة المماليك قايلين بصوت عال. أدام الله إجلال السلطان العثمانى، أدام الله إجلال السلطان العثمانى، أدام الله إجلال العسكر الفرنساوى. لعن الله المماليك، وأصلح حال الأمة المصرية*.

* لاحظ هنا مصطلح (الأمة المصرية).

تحريراً بمعسكر إسكندرية فى ١٣ شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرنساوى يعنى: فى آخر شهر محرم سنة ١٢١٣ هجرية اهـ بحروفه.



* الشيخ بونابرته.

وفى يوم الخميس الثانى والعشرين من الشهر وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا إلى نواحى فوة، ثم إلى الرحمانية.

واستهل شهر صفر سنة ١٢١٣هـ (١٥ يوليو ١٧٩٨م)

وفى يوم الأحد: غرة شهر صفر وردت الأخبار بأن فى يوم الجمعة التاسع والعشرين من شهر محرم التقى العسكر المصرى مع الفرنسيس، فلم تكن إلا ساعة وانهزم مراد* بك ومن معه، ولم يقع قتال صحيح، وإنما هى مناوشة من طلايع العسكرين بحيث لم يقتل إلا القليل من الفريقين، واحترقت مراكب مراد بك بما فيها من الجبخانة والآلات الحربية، واحترق بها ريس الطبجية خليل الكردلى، وكان قد قاتل فى البحر قتالا عجيباً، فقدر الله أن علقت نار بالقلع وسقط منها نار إلى البارود، فاشتعلت جميعها بالنار،

* هزيمة مراد بك فى أول لقاء له مع الفرنسيس واحتراق سفن البارود التابعة له وحدوث ذعر شديد بين صفوف مماليكه.

واحترقت المركب بما فيه من المحاربين وكبيرهم، وتطايروا في الهواء.

فلما عاين ذلك مراد بك داخله الرعب، وولىّ منهزما، وترك الأثقال والمدافع وتبعته عساكره، ونزلت المشاه في المراكب، ورجعوا طالبين مصر، ووصلت الأخبار بذلك إلى مصر. فاشتد انزعاج الناس، وركب إبراهيم بك إلى ساحل بولاق، وحضر الباشا والعلما وروس الناس، واعملوا رأيهم في هذا الحادث العظيم، فاتفق رأيهم على عمل متاريس من بولاق إلى شبرا، ويتولى الإقامة ببولاق إبراهيم بك وكشافه ومماليكه ـ وقد كانت العلما عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم، ويقرون* البخارى وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقرا الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوايف وأرباب الأشاير، ويعملون لهم مجالس بالأزهر، وكذلك أطفال المكاتب، ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الاسما.

* المشايخ والعلما يقرون البخارى لنصرة الأمرا المماليك على الفرنسيس..

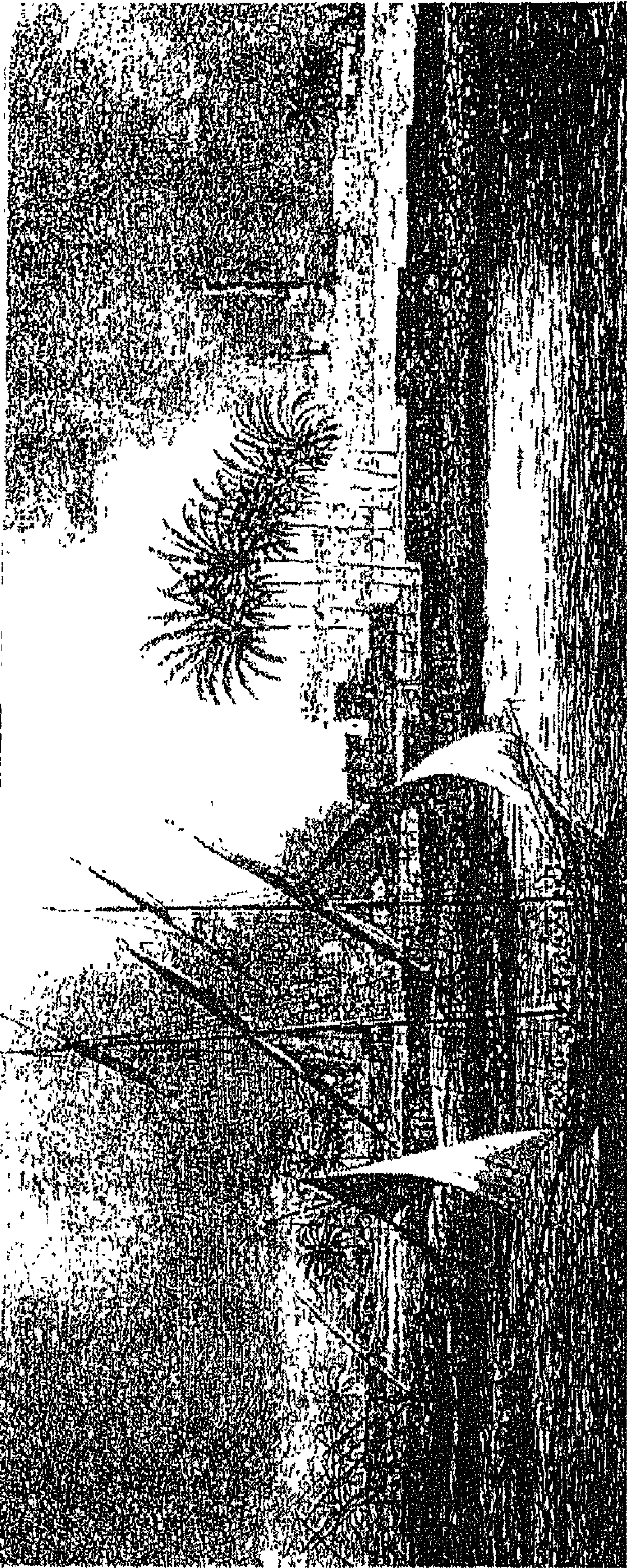
وفي يوم الاثنين: حضر مراد بك إلى بر إنبابة، وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل [بانبابه]، وتولى ذلك هو وصناجقه وأمراه وجماعة من خشداشينه، واحتفل في ترتيب ذلك وتنظيمه بنفسه هو وعلى باشا الطرابلسى ونصوح باشا، وأحضروا المراكب الكبار والغلايين التي أنشاها بالجيزة، وأوقفها على ساحل إنبابة، وشحنها بالعساكر والمدافع فصار البر الغربي والشرقي مملوين بالمدافع والعساكر والمتاريس* والخيالة والمشاة، ومع ذلك فقلوب الأمرا لم تطمين بذلك، فإنهم من حين وصول الخبر لهم من

* استعدادات عسكرية ضخمة لملاقاة الفرنسيس في نفس الوقت الذى أعد الأمرا المماليك أمورهم للهرب.

الإسكندرية شرعوا فى نقل أمتعتهم من البيوت الكبار المشهورة المعروفة إلى البيوت الصغار التى لا يعرفها أحد، واستمروا طول الليالى ينقلون الأمتعة ويوزعونها عند معارفهم وثقاتهم، وأرسلوا البعض منها لبلاد الأرياف، وأخذوا أيضا فى تشهيل الأحمال، واستحضار دواب للشيل، وأدوات الارتحال.

فلما رأى أهل البلدة منهم ذلك داخلهم الخوف الكثير والفزع، واستعد الأغنيا وأولو المقدرة للهروب، ولولا أن الأمرا منعوهم من ذلك وزجروهم وهددوا من أراد النقلة لما بقى بمصر منهم أحد.

وفى يوم الثلاثا: نادوا بالنفير العام وخروج الناس للمتاريس وكرروا المناداة بذلك كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق، وخرج الجميع لبرّ بولاق، فكانت كل طايفة من طوايف أهل الصناعات يجمعون الدراهم من بعضهم وينصبون لهم خيامًا، أو يجلسون فى مكان خرب أو مسجد ويرتبون لهم فيما يصرف عليهم ما يحتاجون له من الدراهم التى جمعوها من بعضهم، وبعض الناس يتطوع بالإنفاق على البعض الآخر، ومنهم من يجهز جماعة من المغاربة أو الشوام بالسلاح والأكل وغير ذلك، بحيث إن جميع الناس بذلوا وسعهم وفعلوا ما فى قوتهم وطاقتهم وسمحت نفوسهم بإنفاق أموالهم، فلم يشح فى ذلك الوقت أحد بشى يملكه، ولكن لم يسعفهم الدهر، وخرجت الفقرا وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام والكاسات، وهم يضجون ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة.

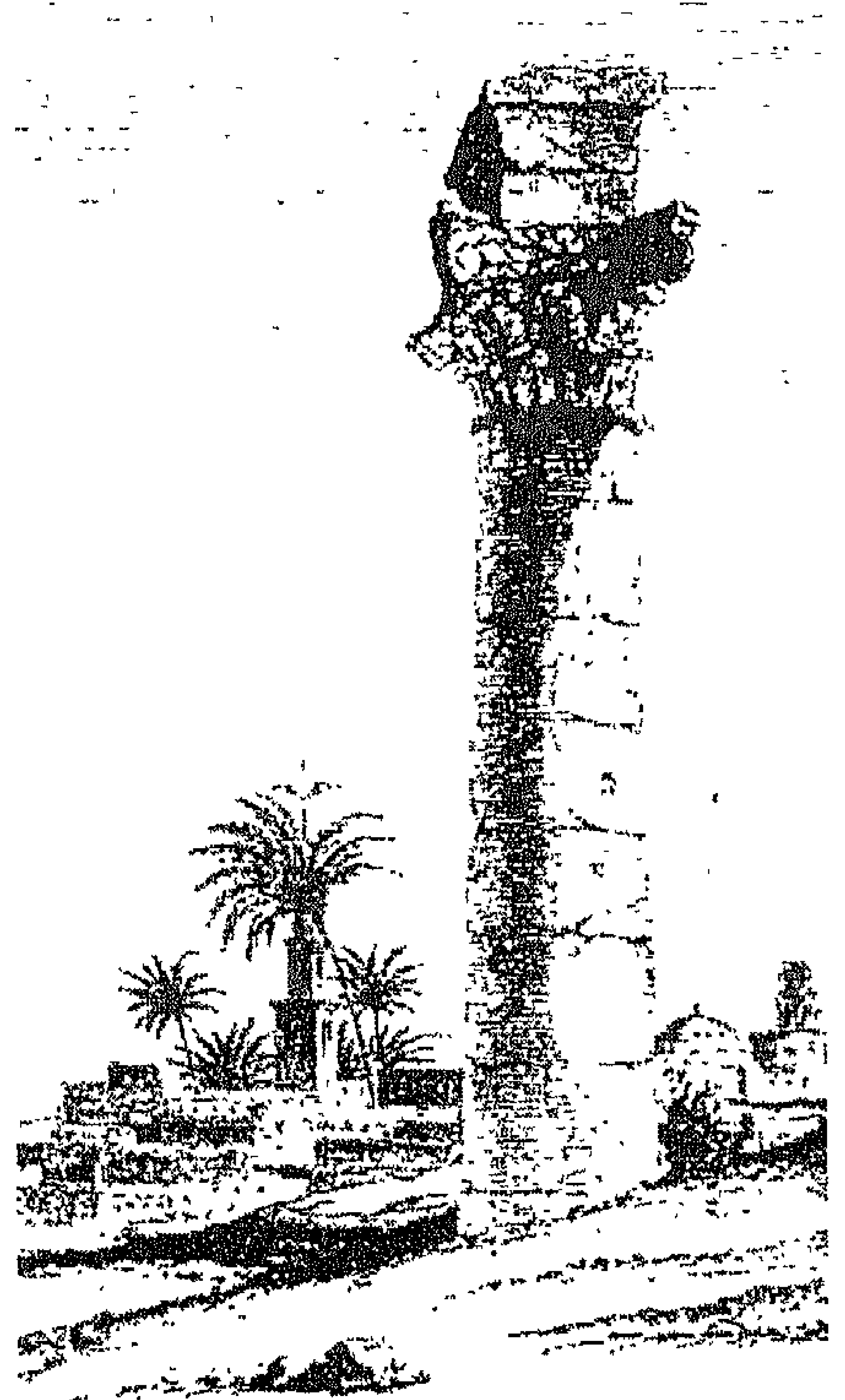


* جنود الحملة الفرنسية فى مراكب نيلية متوجهة من الاسكندرية إلى امبابه

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

وصعد السيد عمر أفندى [مكرم] نقيب الأشراف إلى القلعة، فأنزل منها بيرقا كبيراً سمته العامة البيرق النبوى، فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق وأمامه وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصى، يهللون ويكبرون، ويكثرون من الصياح ومعهم الطبول والزمور وغير ذلك.

وأما مصر فإنها باقية خالية الطرق لا تجد بها أحداً سوى النسا فى البيوت والصغار وضعفا الرجال الذين لا يقدرون على الحركة فإنهم مستترون مع النسا فى بيوتهم، والأسواق مصفرة والطرق مجفرة من عدم الكنس والرش، وغلا سعر البارود والرصاص بحيث بيع الرطل البارود بستين نصفا والرصاص بتسعين، وغلا جنس أنواع السلاح، وقل وجوده، وخرج معظم الرعايا بالنبابيت والعصى والمساوق، وجلس مشايخ العلما بزاوية على بك ببولاق يدعون ويبتهلون إلى الله بالنصر، وأقام غيرهم من الرعايا: البعض بالبيوت والبعض بالزوايا، والبعض فى الخيام.



* عمود السوارى بالاسكندرية سمى بهذا الاسم غالباً لان الفرنساوية دفنت تحته قتلاها من سوارى العسكر.

ومحصل الأمر أن جميع* من بمصر من الرجال تحول إلى بولاق، وأقام بها من حين نصب إبراهيم بك العرضى هناك إلى وقت الهزيمة سوى القليل من الناس الذين لا يجدون لهم مكانًا ولا مأوى، فيرجعون إلى بيوتهم يبيتون بها ثم يصبحون إلى بولاق.

* اضطراب الأحوال فى القاهرة والأقاليم.

وأرسل إبراهيم بك إلى العربان المجاورة لمصر، ورسم لهم أن يكونوا فى المقدمة بنواحى شبرا وما والاها. وكذلك اجتمع عند مراد بك الكثير من عرب البحيرة والجيزة والصعيد والخبيرية والقيعان وأولاد على والهنادى وغيرهم، وفى كل

يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقرا الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم في صعيد واحد.

وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام واشتغالهم بما دهمهم.

وأما بلاد الأرياف فإنها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضا، وينهب بعضهم بعضا، وكذلك العرب* غارت على الأطراف والنواحي، وصار قطر مصر من أوله إلى آخره في قتل ونهب وإخافة طريق وقيام شر وإغارة على الأموال وإفساد المزارع وغير ذلك من أنواع الفساد الذي لا يحصى، وطلب أمرا مصر التجار من الافرنج بمصر فحبسوا بعضهم بالقلعة، وبعضهم بأماكن الأمرا، وصاروا يفتشون في محلات الافرنج على الاسلحة وغيرها، وكذلك يفتشون بيوت النصارى الشوام والأقباط والأروام والكنايس والأديرة على الأسلحة، والعامة لا ترضى إلا أن يقتلوا النصارى واليهود فيمنعهم الحكام عنهم، ولولا ذلك المنع لقتلتهم العامة وقت الفتنة.

* البدو العرب ينتهزون اضطراب الأحوال وانصراف الناس للحرب ويقومون بأعمال السلب والنهب.



ثم في كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر، وتختلف الناس في الجهة التي يقصدون المجي منها: فمنهم من يقول إنهم واصلون من البر الغربي، ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقي، ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين. هذا وليس لأحد من أمرا العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم* القتال قبل دخولهم وقربهم ووصولهم إلى فناء المصر، بل كل من إبراهيم بك ومراد بك جمع

* إهمال الامراء المماليك لأمور الحرب.

عسكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه ينتظر ما يفعل بهم، وليس ثَمَّ قلعة ولا حصن ولا معقل، وهذا من سوء التدبير وإهمال أمر العدو.

ولما كان يوم الجمعة سادس الشهر وصل الفرنسيس إلى الجسر الأسود، وأصبح يوم السبت فوصلوا إلى أم (*) دينار فعندها اجتمع العالم العظيم من الجند والرعايا والفلاحين المجاورة بلادهم لمصر، ولكن الأجناد متنافرة قلوبهم، منحلة عزايمهم، مختلفة آراهم، حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم، مختالون في ريشهم مغترون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مرتبكون فى رويتهم، مغمورون فى غفلتهم*. وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم، وقد كان الظن بالفرنسيس أن يأتوا من البرين؛ بل أشيع فى عرضى إبراهيم بك أنهم قادمون من الجهتين، فلم يأتوا إلا من البر الغربى.

ولما كان وقت القايلة: ركب جماعة من العساكر التى بالبر الغربى، وتقدموا إلى ناحيه بشتيل* بلدة مجاورة لإنبابة فتلاقوا مع مقدمة الفرنسيس، فكروا عليهم بالخيول فضربهم الفرنسيس ببنادقهم المتتابعة الرمى، وأبلى الفريقان، وقتل أيوب بك الدفتردار وعبد الله كاشف الجرف، وعدة كثيرة من كشاف محمد بك الألفى ومماليكهم وتبعهم طابور من الإفرنج فى نحو الستة آلاف وكبيره (ويزه)* الذى ولى على الصعيد بعد تملكهم.

وأما بونابارته الكبير فإنه لم يشاهد الواقعة، بل حضر بعد الهزيمة، وكان بعيداً عن هولا بكثير. ولما قرب طابور

* أم دينار. قرية من قرى مركز إمبابه. محافظةالجيزة.

* اسباب خذلان جند المماليك من وجهة نظر الجبرتى.

* التصادم امام بشتيل (معركة الأهرام).

* ويزه. صواب الاسم. ديزيه ويظهر أن ويزه هو الاسم الذى كانت العامة تطلقه عليه

الفرنسيس من متاريس مراد بك ترامى الفريقان بالمدافع، وكذلك العساكر المحاربون البحرية، وحضر عدة وافرة من عساكر الأرنؤد من دمياط وطلعوا إلى إنبابة، وانضموا إلى المشاة، وقاتلوا معهم فى المتاريس، فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال - ضج العامة والغوغا من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم: يارب يالطيف، ويارجال الله، ونحو ذلك وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم. فكان العقلا من الناس يصرخون عليهم، ويأمرونهم بترك ذلك. ويقولون لهم إن الرسول والصحابة والمجاهدين إنما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح، فلا يستمعون، ولا يرجعون عما هم فيه، ومن يقرا ومن يسمع!





وركب طايفة كبيرة من الأمرا والأجناد من العرض الشرقى، ومنهم إبراهيم بك الوالى، وشرعوا فى التعدية إلى البر الغربى فى المراكب، فتزاحموا على المعادى لكون التعدية من محل واحد، والمراكب قليلة جداً، فلم يصلوا إلى البر الآخر حتى وقعت الهزيمة على المحاربين.



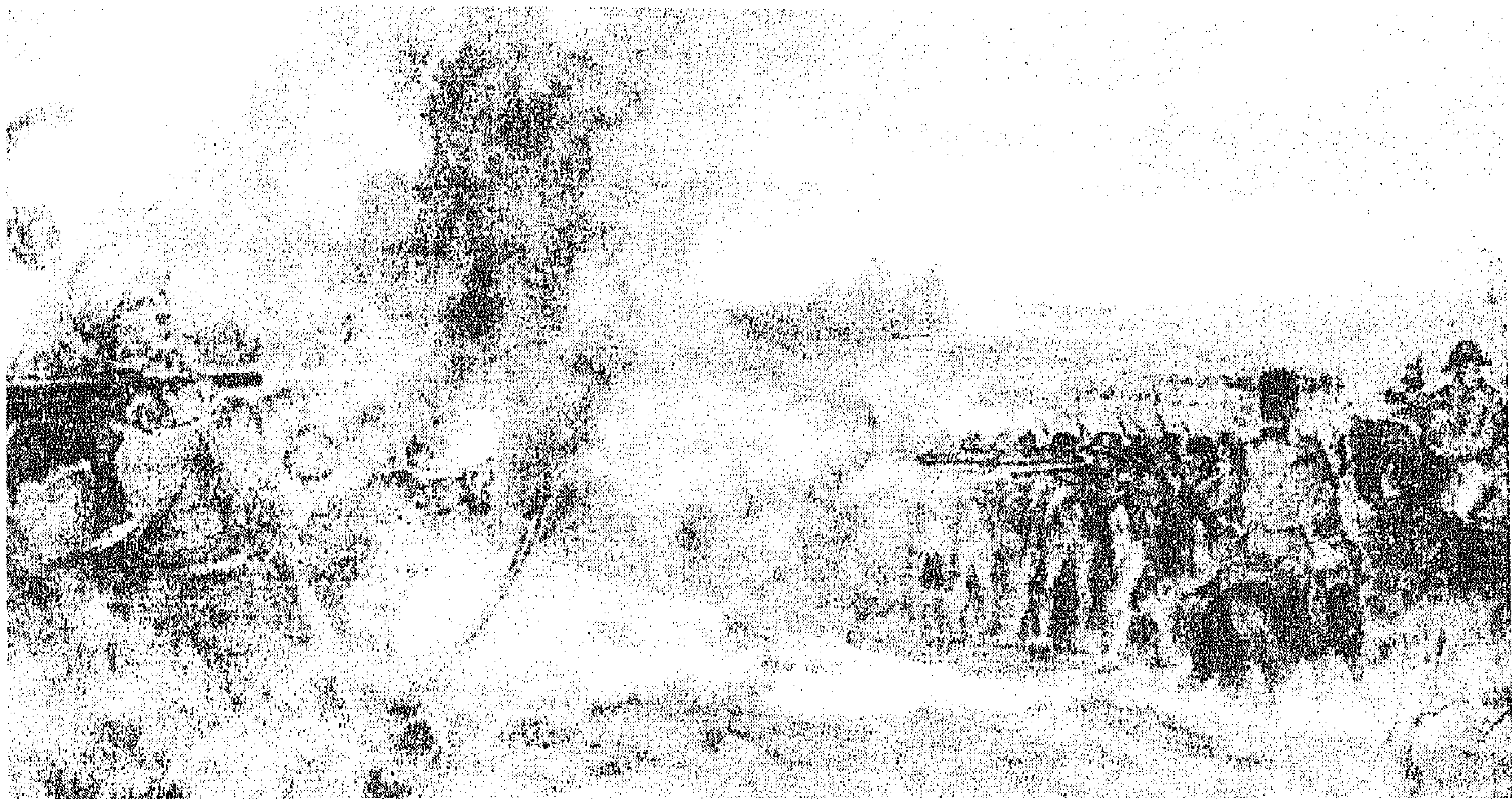
هذا والريح النكباء اشتد هبوبها، وأمواج البحر فى قوة اضطرابها، والرمال يعلو غبارها، وتنسفها الريح فى وجوه المصريين فلا يقدر أحد أن يفتح عينيه من شدة الغبار، وكون الريح من ناحية العدو، وذلك من أعظم أسباب الهزيمة كما هو منصوص عليه.



* من جنود الحملة الفرنسية. من أعلى لأسفل (سارى عسكر، طبجية، فرسان قواد كتائب.

ثم إن الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة* عندهم فى الحرب، وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه ودق طبوله، وأرسل

* تكتيكات الحرب الفرنسية واستخدام الطابور فى الالتفاف والحصار.





الجبرتي/ سنة ١٢١٣م



* معركة امبابة (الأهرام) ديرى بونابرت فى اقصى يمين اللوحة على جواده. (لوحة حديثة)
* لوحة من وصف مصر عن معركة امبابة ديرى بونابرت فى يمين اللوحة.
* لوحة أخرى لمعركة امبابة معاصر لعهدها



بنادقه المتتالية والمدافع واشتد هبوب الريح، وانعقد الغبار، وأظلمت الدنيا من دخان البارود وغبار الرياح، وصمت الأسماع من توالي الضرب، بحيث خُيِّل للناس أن الأرض تزلزلت والسما عليها سقطت. واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع ساعة، ثم كانت هذه الهزيمة على العسكر الغربي، فغرق الكثير من الخيالة في البحر لإحاطة العدو بهم وظلام الدنيا، والبعض وقع أسيرًا في أيدي الفرنسيس وملكوا المتاريس وفر مراد بك ومن معه إلى* الى الجيزة، فصعد إلى قصره وقضى بعض أشغاله، في نحو ربع ساعة ثم ركب وذهب إلى الجهة القبلية، وبقيت القتلى والثياب والأمتعة والأسلحة والفرش ملقاة على الأرض ببر إنبابة تحت الأرجل(*).



* فرار مراد بك.

* وهذه المعركة هي التي يطلق عليها الفرنسيون اسم «معركة الأهرام»

وكان من جملة من ألقى نفسه في البحر سليمان بك المعروف بالأغا، وأخوه إبراهيم بك الوالي. فأما سليمان بك فنجا، وغرق إبراهيم بك الصغير، وهو صهر إبراهيم بك الكبير، ولما انهزم العسكر الغربي حول الفرنسيس المدافع والبنادق على البر الشرقي، وضربوها، وتحقق أهل البر الآخر الهزيمة، فقامت فيهم ضجة عظيمة، وركب في الحال إبراهيم بك والباشا والأمرا والعسكر والرعايا، وتركوا جميع الأثقال والخيام كما هي لم يأخذوا منها شيأ*.



* هروب الباشا والأمراء إلى العادلية.

فأما إبراهيم بك والباشا والأمرا فساروا إلى جهة العادلية، وأما الرعايا فهاجوا وماجوا ذاهبين إلى جهة المدينة، ودخلوها أفواجا أفواجا، وهم جميعا في غاية الخوف والفزع وترقب الهلاك، وهم يضجون بالعويل والنحيب، ويبتهلون إلى الله من شر هذا اليوم العصيب، والنسا يصرخن بأعلى أصواتهن



من البيوت، وقد كان ذلك قبل الغروب.

فلما استقر إبراهيم بك بالعادلية أرسل يأخذ حريمه وكذلك من كان معه من الأمرا؛ فأركبوا النسا: بعضهن على الخيول، وبعضهن على البغال! والبعض على الحمير والجمال، والبعض ماش كالجوارى والخدم.

واستمر معظم الناس طول الليل خارجين من مصر: البعض بحريمه، والبعض ينجو بنفسه، ولا يسأل أحد عن أحد، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه فخرج تلك الليلة معظم أهل مصر: البعض لبلاد الصعيد، والبعض لجهة الشرق، وهم الأكثر. وأقام بمصر كل مخاطر بنفسه لا يقدر على الحركة ممتثلا للقضا متوقعا للمكروه، وذلك لعدم قدرته وقلة ذات يده وما ينفقه على حمل عياله وأطفاله ويصرفه عليهم فى الغربة، فاستسلم للمقدور، ولله عاقبة الأمور.



والذى أزعج قلوب الناس بالأكثر أن فى عشا تلك الليلة شاع فى الناس أن الافرنج عدوا إلى بولاق وأحرقوها وكذلك الجيزة، وأن أولهم وصل إلى باب الحديد يحرقون ويقتلون ويفجرون بالنسا.

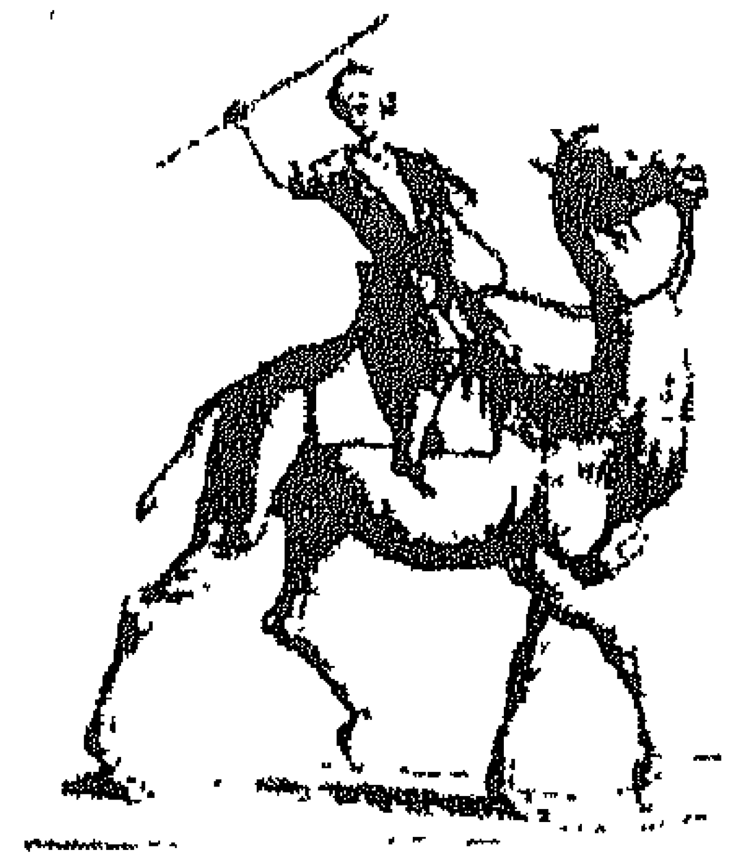
* مراد بك وعسكره يحرقون مراكبهم وبارودهم.

وكان السبب فى هذه الإشاعة أن بعض القلينجية من عسكر مراد بك الذى كان فى الغليون بمرسى إنبابة لما تحقق الكسرة أضرم النار فى الغليون الذى هو فيه، وكذلك مراد بك لما رحل من الجيزة أمر بانجرار الغليون الكبير من قبالة قصره ليصحبه معه إلى جهة قبلى، فمشوا به قليلا ووقف لقلة الماء فى الطين، وكان به عدة وافرة من آلات

الحرب والجبخانة فأمر بحرقه أيضا، فصعد لهيب النار من جهة الجيزة وبولاق فظنوا بل أيقنوا أنهم أحرقوا البلدين فماجوا واضطربوا زيادة عما هم فيه من الفزع والروع والجزع، وخرج أعيان الناس وأفندية الوجاقات وأكابرهم ونقيب الأشراف، وبعض المشايخ القادرين، فلما عاين العامة والرعية ذلك اشتد ضجرهم وخوفهم، وتحركت عزايمهم للهروب واللحاق بهم*.

* وصف مأساوى لأحوال المصريين بسبب الحرب التي فر منها الباشا والمماليك وتركوهم نهبًا للفزع والرعب، ونهب البدو العرب.

والحال أن الجميع لا يدرون أى طريق يسلكون، وأى جهة يذهبون، وأى محل يستقرون، فتلاحقوا وتسابقوا وخرجوا من كل حدب ينسلون، وبيع الحمار الأعرج أو البغل الضعيف بأضعاف ثمنه، وخرج أكثرهم ماشيا أو حاملا متاعه على راسه وزوجته حاملة طفلها، ومن قدر على مركوب أركب زوجته أو ابنته ومشى هو على أقدامه، وخرج غالب النسا ماشيات حاسرات وأطفالهن على أكتافهن يبكين فى ظلمة الليل، واستمروا على ذلك بطول ليلة الاحد وصبحها وأخذ كل إنسان ما قدر على حمله من مال ومتاع، فلما خرجوا من أبواب البلد، وتوسطوا الفلاة تلقتهم العربان والفلاحون، فأخذوا متاعهم ولباسهم وأحمالهم بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر به عورته، أو يسد جوعته.



فكان ما أخذته العرب شيآ كثيرا يفوق الحصر بحيث إن الأموال والذخاير التى جاءت من مصر فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها بلا شك، لأن معظم الأموال عند الأمرا والأعيان وحريمهم وقد أخذوه صحبتهم، وغالب مساتير الناس وأصحاب المقدرة أخرجوا أيضا ما عندهم، والذى

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

أقعده العجز، وكان عنده ما يعز عليه من مال أو مصاغ أعطاه لجاره أو صديقه الراحل، ومثل ذلك أمانات وودايع الحجاج من المغاربة والمسافرين، فذهب ذلك جميعه، وربما قتلوا من قدروا عليه، أو دافع عن نفسه ومتاعه، وسلبوا ثياب النسا وفضحوهن وهتكوهن، وفيهم الخوندات* والأعيان، فمنهم من رجع من قريب، وهم الذين تأخروا في الخروج، وبلغهم ما حصل للسابقين، ومنهم من جازف متكلا على كثرته وعزوته وخفارته ـ فسلم أو عطب، وكانت ليلة وصباحها في غاية الشناعة جرى فيها ما لم يتفق مثله في مصر، ولا سمعنا بما شابه بعضه في تواريخ المتقدمين ـ فما راء كمن سمعا.

* الخوندات مفردها خونده وهي بفتح الخاء والواو وسكون النون. وهي في الفارسية السيد العظيم والأمير واستعملت في العربية لقبا بمعنى السيد وايضا السيدة. وهي هنا كذلك.

ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ورجع الكثير من الفارين وهم في أسوأ حال من الهرج والفزع، فتبين أن الإفرنج لم يعدوا إلى البر الشرقي، وأن الحريق كان في المراكب المتقدم ذكرها، فاجتمع* في الأزهر بعض العلما والمشايخ وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة إلى الإفرنج، وينتظروا ما يكون من جوابهم، ففعلوا ذلك، وأرسلوها صحبه شخص مغربي(*) يعرف لغتهم، وآخر صحبته، فغابا وعادا، فأخبر أنهما قابلا كبير القوم وأعطياه الرسالة، فقراها عليه ترجمانه، ومضمونها الاستفهام عن قصدهم. فقال على لسان الترجمان، وأين عظماكم ومشايخكم؟ لم تأخروا عن الحضور إلينا لنرتب لهم ما يكون فيه الراحة؟. وطمنهم وبشّ في وجوههم فقالوا: نريد أمانا منكم! فقال: ارسلنا لكم سابقا، يعنون الكتاب المذكور، فقالوا وأيضاً لأجل اطمينان الناس*، فكتبوا لهم ورقة أخرى مضمونها:

* اجتماع بعض العلماء والمشايخ بالأزهر وارسالهم رسولاً إلى بونابرت لأخذ الأمان.

* يذكر نقولا الترك أن الرسل كانوا تجاراً فرنسيين وليس شخصا مغربيا كما ذكر الجبرتي هنا ـ راجع ـ نقولا الترك ملحق في آخر هذا الجزء.

* بونابرت يعطى الأمان ويطلب حضور المشايخ ليرتب لهم ديواناً.



* مجازة الجيزة عند الفيضان.

من معسكر الجيزة خطابا لأهل مصر - إننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا إلا بقصد إزالة المماليك الذين يستعملون الفرنساوية بالذل والاحتقار، وأخذ مال التجار ومال السلطان، ولما حضرنا إلى البر الغربى خرجوا إلينا فقابلناهم بما يستحقون، وقتلنا بعضهم، وأسرنا بعضهم عندنا وهرب بعضهم، ونحن فى طلبهم حتى لم يبق أحد منهم بالقطر المصرى، وأما المشايخ والعلما وأصحاب المرتبات والرعية فيكونون مطمينين، وفى مساكنهم ومتاجرهم مرتاحين، إلى آخر ما ذكرناه. ثم قال لهم لازم أن المشايخ والشربجية يأتون إلينا لنرتب لهم ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء يدبرون الأمور.

ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس وركب الشيخ مصطفى الصاوى* والشيخ سليمان الفيومى وآخرون إلى الجيزة فتلقاهم وضحك لهم، وقال: أنتم المشايخ الكبار؟

* وجه بونابرت إلى هذا الوفد خطاباً جاء فيه:

«يا أهل القاهرة، إننى راض عن مسلككم. فقد أحسنتم عملا بالامتناع عن الوقوف ضدى. لقد جيت للقضا على جنس المماليك ولحماية التجارة وأهل البلد».

فليطمين كل من انتابه الفزع، وليرجع كل من رحلوا إلى بيوتهم، وليجر أدا الصلاة اليوم كالمعتاد، فأنا أود أن تستمر على الدوام. لا تخافوا من شى

فأعلموه أن المشايخ الكبار خافوا وهربوا، فقال لأى شي يهربون؟ اكتبوا لهم بالحضور، ونعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية وإجراء الشريعة.

على عايلاتكم وبيوتكم وممتلكاتكم، وخاصة على دين النبى الذى أحبه. وبها أن من الملحّ الا يعكر الطمأنينة شى فسوف يكون هناك ديوان من سبعة أشخاص سوف يجتمعون فى الجامع الأزهر. وسوف يوجد منهم هناك بشكل دايم اثنان إلى جانب قايد الموقع، وسوف يهتم أربعة بحفظ السكينة العامة والسهر على الأمن. هنرى لورنس ـ مرجع سابق ص ١٥١.

فكتبوا منه عدة مكاتبات بالحضور والأمان، ثم انفصلوا من معسكرهم بعد العشا، وحضروا إلى مصر، واطمأن برجوعهم الناس، وكانوا فى وجل وخوف على غيابهم، وأصبحوا فأرسلوا الأمان إلى المشايخ، فحضر الشيخ السادات والشيخ الشرقاوى، والمشايخ، ومن انضم إليهم من الناس الفارين من ناحية المطرية.

وأما عمر أفندى نقيب الأشراف فإنه لم يطمين، ولم يحضر، كذلك الروزنامجي. والأفندية(*)، وفى ذلك اليوم اجتمعت الجعيديه [اللصوص] وأوباش الناس، ونهبوا بيت إبراهيم بك ومراد بك اللذين بخطة قوصون وأحرقوهما، ونهبوا أيضًا عدة بيوت من بيوت الأمرا، وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك، وباعوه بأبخس الأثمان.

وفى يوم الثلاثا* [١٠ صفر ١٢١٣] : عدت الفرنساوية إلى بر مصر، وسكن بونابارته ببيت محمد بك الألفى بالأزبكية بخط الساكت الذى أنشاه الأمير المذكور فى السنة الماضية وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة، وفرشه بالفرش الفاخرة. وعند تمامه وسكناه فيه حصلت هذه الحادثة، فأخلوه وتركوه بما فيه. فكأنه إنما كان يبنيه لأمير الفرنسيس.

وكذلك حصل فى بيت حسن كاشف جركس بالناصرية، ولما عدى كبيرهم وسكن بالأزبكية كما ذكر، استمر

* الافندية : مفردها افندى وهى كلمة تسربت من البيزانطيين إلى الأتراك السلاجقة، فاندمجت فى التركية، وفى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، أطلقت عند الأتراك العثمانيين على المتعلم، وحلت محل كلمة جلبى على مر الأيام، وفى القرن التاسع عشر أطلقت رسميا على الأمرا العثمانيين، كما اطلقت على من علت رتبتهم من رجال الدين المسيحيين، وخوطب بهذا اللقب ضباط الجيش إلى رتبة البيك باشى.

* يذكر احمد حافظ عوض فى كتابه فتح مصر الحديث ص ١٥١ أن دخول بونابرت للقاهرة كان يوم الأربعاء ٢٥ يوليو ١١ صفر ١٢١٣هـ.

غالبهم بالبر الآخر، ولم يدخل المدينة إلا القليل منهم، ومشوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعدّ بل صاروا يضاحكون الناس، ويشترون ما يحتاجون إليه بأغلى ثمن، فيأخذ أحدهم الدجاجة، ويعطى صاحبها فى ثمنها ريال فرانسه*، ويأخذ البيضة بنصف فضة قياسًا على أسعار بلادهم،وأثمان بضايعهم. فلما رأى منهم العامة ذلك أنسوا بهم، واطمأنوا لهم، وخرجوا إليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج، وأنواع المأكولات، وغير ذلك: مثل السكر الصابون والدخان والبن، وصاروا يبيعون عليهم بما أحبوا من الأسعار وفتح غالب السوقة الحوانيت والقهاوى.

* الريال الفرنسه: كان ثمنه يتراوح ما بين ٢٢٠، و ٢٤٠ نصف فضة.

وفى يوم الخميس* ثالث عشر صفر: أرسلوا بطلب المشايخ والوجاقلية عند قايمقام صارى عسكر.

* يوم الخميس يوافق ١٢ صفر ١٢١٣ هـ. وهذا خطأ عند الجبرتى وكذلك عند نقولا الترك.

فلما استقر بهم الجلوس خاطبوهم وتشاوروا معهم فى تعيين* عشرة أنفار من المشايخ للديوان وفصل الحكومات. فوقع الاتفاق على الشيخ عبد الله الشرقاوى، والشيخ خليل البكرى، والشيخ مصطفى الصاوى، والشيخ سليمان الفيومى، والشيخ محمد المهدى، والشيخ موسى السرسى، والشيخ مصطفى الدمنهورى، والشيخ أحمد العريشى، والشيخ يوسف الشبرخيتى والشيخ محمد الدواخلى. وحضر ذلك المجلس أيضًا مصطفى كتخدا بكر باشا، والقاضى، وقلدوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان، وعلى أغا الشعراوى والى الشرطة، وحسن أغا محرم أمين احتساب. وذلك بإشارة أرباب الديوان، فإنهم [أى

* نابليون يشكل ديوان حكومة مصر تحت رياسته من المشايخ:
* عبد الله الشرقاوى.
* خليل البكرى.
* مصطفى الصاوى.
* سليمان الفيومى.
* محمد المهدى.
* موسى السرسى.
* مصطفى الدمنهورى.
* أحمد العريشى.
* يوسف الشبرخيتى.
* محمد الدواخلى.
* مصطفى كتخدا.

الفرنسيس] كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك، فعرفوهم [أى المشايخ] أن سوقة مصر لا يخافون إلا من الأتراك، ولا يحكمهم سواهم، وهؤلاء المذكورون من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم، وقلدوا ذا الفقار كتخدا محمد بك كتخدا بونابارتة، ومن أرباب المشورة الخواجا موسى [كافو] وكلا الفرنساوى، ووكيل الديوان حنا بينو [جان بنوا].

وفيه: اجتمع أرباب الديوان* عند ريسه، فذكر لهم ما وقع من نهب البيوت، فقالوا له هذا فعل الجعيدية وأوباش الناس، فقال: لأى شى يفعلون ذلك، وقد أوصيناكم بحفظ البيوت والختم على متاع المماليك! فقالوا: هذا أمر لا قدرة لنا على منعه، وإنما ذلك من وظيفة الحكام، فأمروا الأغا والوالى أن ينادوا بالأمان، وفتح الدكاكين والأسواق والمنع من النهب، فلم يستمعوا، ولم ينتهوا، واستمر غالب الدكاكين مغلقة والأسواق علي حالها مقفره معطله، والناس غير مطمينين وقلوبهم مرجوفة مرجفه وصدورهم ضيقة، والتفت جماعة الفرنسيس إلى فتح البيوت التى للأمرا فصاروا يفتحون البيوت المغلوقة التى للأمرا، ودخولها، وأخذوا منها أشيا، وخرجوا وتركوها مفتوحة، فعندما يخرجون منها يدخلها طايفة الجعيدية، ويستأصلون ما فيها، واستمروا على ذلك عدة أيام، ثم إنهم تتبعوا بيوت الأمرا وأتباعهم وختموا على بعضها، وسكنوا بعضها، فكان الذى يخاف على داره من جماعة الوجاقلية، أو من أهل البلد يعلق له بنديرة على باب داره، أو يأخذ له ورقة من الفرنسيس بخطهم لا يعرف ما فيها ويلصقها على داره.

وفيه: قلدوا برطلمين* النصرانى الرومى، وهو الذى تسميه العامة فرط الرمان كتخدا مستحفظان، وركب بموكب من

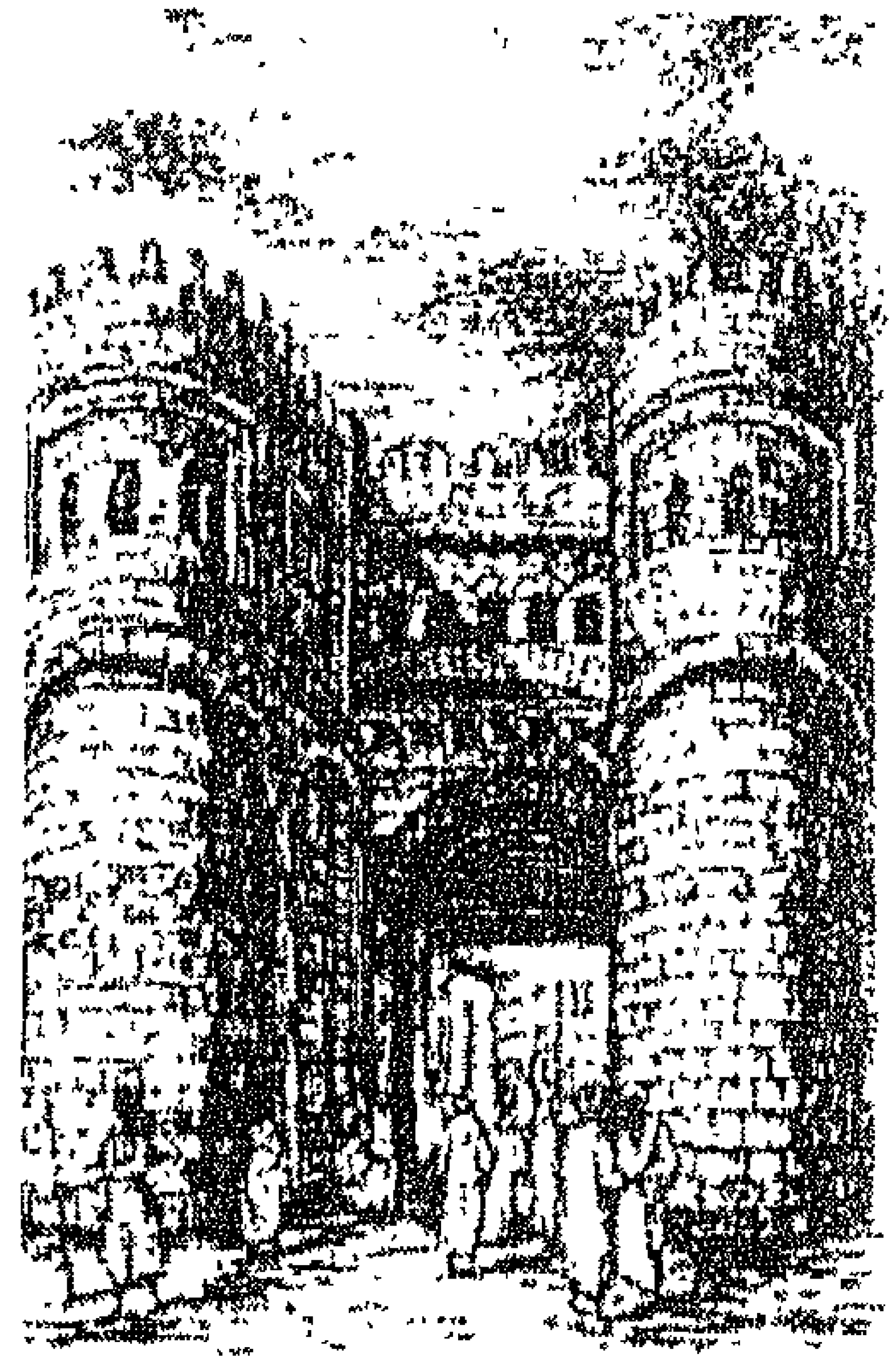
* اجتماع الديوان لبحث احوال الأمن
وقد وضع بونابرت النظام الآتى فى أمر له بتاريخ ٢٧ يوليو، ومحفوظ أصله فى مخابرات نابوليون بنمرة ٢٨٥٨ وهذا تعريبه:
«المادة الأولى ـ يشكل فى كل مديرية من مديريات القطر المصرى ديوان مؤلف من سبعة أعضاء للنظر فى شؤون الأهالى، وليعرضوا علىّ كل شكوى تقدم لهم، وليمنعوا التعديات التى تقع من الأهالى على بعضهم، وليراقبوا المشبوهين وليعاقبوهم إذا اقتضى الحال بطلب قوة من قومندان الجهة الفرنساوى وعلى هذا الديوان ارشاد الاهالى إلى ما يراه موافقا لمصلحتهم.
المادة الثانية ـ يقيم فى كل مديرية أغا من الانكشارية تكون علاقاته متواصلة مع القومندان الفرنساوى، وتكون تحت أمرته قوة مؤلفة من سبعين رجلا من أهالى البلاد مسلحين لكى يسيروا فى البلاد لتوطيد دعائم الامن وإدخال الناس فى دائرة الطاعة والطمأنينة.
المادة الثالثة ـ يقيم فى كل مديرية مدير لجباية أموال الميرى وتحصيل جميع ضرائب الاطيان وجمع ايرادات أملاك المماليك التى أصبحت الان ملكا للجمهورية الفرنسية، ويكون تحت إدارته العدد الكافى من العمال اللازمين لذلك.
المادة الرابعة ـ يعين مع المدير المشار إليه آنفا وكيل فرنساوى للمخابرة مع إدارة ديوان المالية ولتنفيذ الأوامر التى تصدر له من هذه الجهة ويكون تابعا لها» أ.هـ
ووضع نابوليون عدا ذلك مذكرة تقضى بتثبيت جميع الملاك فى أملاكهم
* تقليد برطملين (فرط الرمان). كتخدا مستحفظان.

بيت صارى عسكر، وأمامه عدة من طوايف الأجناد والبطالين مشاة بين يديه، وعلى رأسه حشيشة من الحرير الملون وهو لابس فروة بزّ عادة، وبين يديه الخدم بالحراب المفضضة، ورتب له بيوك باشي، وقلقات* عينوا لهم مراكز بأخطاط البلد يجلسون بها، وسكن المذكور ببيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين، أخذه بما فيه من فرش ومتاع وجوارى، وغير ذلك.

* القلقات: مفردها قُلَق. وهم الحراس على أبواب أصحاب المناصب، أو العسكر التابعين لهم [ويعرفون فى مصر باسم مشايخ الحارات].

والمذكور من أسافل نصارى الأروام العسكرية القاطنين بمصر، وكان من الطبجية عند محمد بك الألفى، وله حانوت بخط الموسكى يبيع فيه القوارير الزجاج أيام البطالة.

* باب الفتوح.



* العسكر الفرنسيس يتعامل مع الأهالى فى الأسواق.

وقلدوا أيضًا شخصًا إفرنجيا وجعلوه أمين البحرين، وآخر جعلوه أغات الرسالة، وجعلوا الديوان ببيت قايد أغا بالأزبكية قرب الرويعى، وسكن به رئيس الديوان. وسكن «روتوى» قايمقام مصر ببيت إبراهيم بك الوالى المطل على بركة الفيل، وسكن شيخ البلد ببيت إبراهيم بك الكبير، وسكن «مجلون» ببيت مراد بك على رصيف الخشاب، وسكن بوسليك» مدبر الحدود ببيت الشيخ البكرى القديم، ويجتمع عنده النصارى القبط كل يوم، وطلبوا الدفاتر من الكتبة. ثم إن عساكرهم صارت تدخل المدينة شياً فشيًا، حتى امتلأت منها الطرقات، وسكنوا فى البيوت*، ولكن لم يشوشوا على أحد، ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنها، ففجر السوقة وصغروا أقراص الخبز وطحنوه بترابه، وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكولات: مثل الطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة، وغير ذلك.

وفتح نصارى الأروام* عدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخماير وقهاوى، وفتح بعض الإفرنج البلديين [المستوطنين] بيوتا يصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة على طرايقهم فى بلادهم، فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم، ويطبخه الطباخون، ويصنعون أنواع الأطعمة والحلاوات، ويعمل على بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم، فإذا مرت طايفة بذلك المكان تريد الأكل دخلوا إلى ذلك المكان. وهو يشتمل على عدة مجالس دون، وأعلى. وعلى كل مجلس علامته، ومقدار الدراهم التى يدفعها الداخل فيه، فيدخلون إلى ما يريدون من المجالس وفى وسطه دكة من الخشب، وهو الخوان التى يوضع عليها الطعام، وحولها كراسى، فيجلسون عليها، ويأتيهم الفراشون بالطعام على قوانينهم، فيأكلون ويشربون على نسق لا يتعدونه، وبعد فراغ حاجتهم يدفعون ما وجب عليهم من غير نقص ولا زيادة ويذهبون لحالهم.

* نصارى الأروام يفتحون مطاعم لبنى جنسهم من الفرنسيس.

وفيه: تشفع أرباب الديوان فى أسرى* المماليك فقبلوا شفاعتهم وأطلقوهم، فدخل الكثير منهم إلى الجامع الأزهر وهم فى أسوأ حال، وعليهم الثياب الزرق المقطعة، فمكثوا به يأكلون من صدقات الفقرا المجاورين به، ويتكففون المارين، وفى ذلك عبرة للمعتبرين.

* أرباب الديوان يتشفعون فى أسرى المماليك.

وفى يوم السبت، اجتمعوا بالديوان وطلبوا دراهم سلفة، وهى مقدار خمسماية ألف ريال من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضا، فسألوا التخفيف فلم يجابوا، فأخذوا فى تحصيلها.

وفيه: نادوا: من أخذ شيًا من نهب البيوت يحضر به إلى بيت قايمقام، وإن لم يفعل وظهر بعد ذلك حصل له مزيد الضرر، ونادوا أيضًا على نسا الأمرا بالأمان، وأنهن يسكن بيوتهن، وإن كان عندهن شى من متاع أزواجهن يظهرنه، فإن لم يكن عندهن شى من متاع أزواجهن يصالحن على أنفسهن ويأمنّ فى دورهن. فظهرت الست نفيسة* زوجة مراد بك، وصالحت عن نفسها وأتباعها من نسا الأمرا والكشاف بمبلغ قدره ماية وعشرون ألف ريال فرانسا. وأخذت فى تحصيل ذلك من نفسها وغيرها، ووجهوا عليها الطلب، وكذلك بقية النسا بالوسايط المتداخلين فى ذلك، كنصارى الشوام والإفرنج البلديين وغيرهم، فصاروا يعملون عليهن إرهاصات وتخويفات، وكذلك مصالحات على الغز والأجناد المختفين والغايبين والفارين، فجمعوا بذلك أموالا كثيرة، وكتبوا للغايبين أوراقاً بالأمان بعد المصالحة، ويختم على تلك الأوراق المتقيدون بالديوان.

وفى يوم الأحد: طلبوا الخيول والجمال والسلاح فكان شيا كثيرا، وكذلك الأبقار والأثوار، فحصل فيها أيضا مصالحات، وأشاعوا التفتيش على ذلك، وكسروا عدة دكاكين بسوق السلاح وغيره، وأخذوا ما وجدوه فيها من الأسلحة. هذا وفى كل يوم ينقلون على الجمال والحمير من الأمتعة والفرش والصناديق والسروج وغير ذلك مما لا يحصى، ويستخرجون الخبايا والودايع، ويطلبون البنايين والمهندسين والخدام الذين يعرفون بيوت أسيادهم، بل يذهبون بأنفسهم ويدلونهم على أماكن الخبايا ومواضع الدفاين ليصير لهم بذلك قربة ووجاهة ووسيلة ينالون بها أغراضهم.

* ظهور الست نفيسة زوجة مراد بك ومصالحتها عن نفسها. وهى جركسية الاصل من بلاد الكرج. تسرى بها على بك الكبير وبنى لها داراً مطلة على بركة الأزبكية. ولما مات على بك تزوجت مراد بك، وبالرغم من هروبه إلى الصعيد عند دخول الحملة الفرنسية إلى مصر إلا أنها ظلت باقية بالقاهرة ومحترمة من رجال الحملة بسبب العلاقة الطيبة لزوجها (مراد بك) بالحملة الفرنسية بل وقبل الحملة، ذلك أن ماجلون قنصل فرنسا فى مصر قبل الحملة كان يهديها باسم الحكومة الفرنسية الهدايا الثمينة ومنها ساعة ذهبية مرصعة بالماس، وهى ذاتها التى قدمتها لرجال الحملة فيما بعد كفدية لها.

ولما مات مراد بك بالطاعون قبل خروج الفرنسيين تدهور بها الحال حتى إذا ما دخل العثمانيون القاهرة أهانوها على يد خورشيد باشا. ولعل أسوأ معاملة تلقتها قبل وفاتها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨١٦ = ٢٥ جماد أول ١٢٣١هـ كانت على يد محمد على الذى صادر املاكها والتزاماتها.

وفيه: قبضوا على شيخ الجعيدية ومعه آخر، وبندقوا عليهما بالرصاص ببركة الأزبكية، ثم على آخرين أيضا بالرميلة، وأحضر النهابون أشيا كثيرة من الأمتعة التى نهبوها عندما داخلهم الخوف، ودل على بعضهم البعض.

وفى يوم الثلاثا: طلبوا أهل الحرف من التجار بالأسواق وقرروا عليهم دراهم على سبيل القرض والسلفة مبلغًا يعجزون عنه، وأجلوا لها أجلا مقداره ستون يوما، فضجوا واستغاثوا، وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسينى وتشفعوا بالمشايخ، فتكلموا لهم ولطفوها إلى نصف المطلوب، ووسّعوا لهم فى أيام المهلة.

وفيه: شرعوا فى تكسير أبواب الدروب والبوابات* النافذة، وخرج عدة من عساكرهم يخلعون ويقلعون أبواب الدروب والعطف والحارات، فاستمروا على ذلك عدة أيام، وداخل الناس من ذلك وَهْم وخوف شديد، وظنوا ظنونًا، وحصل عندهم فساد مخيلة ووسوسة تجسمت فى نفوسهم بألفاظ نطقوا بها، وتصوروا حقيقتها وتناقلوها فيما بينهم، كقولهم: إن عساكر الفرنسيس عازمون على قتل المسلمين وهم فى صلاة الجمعة، ومنهم من يقول غير ذلك، وذلك بعد أن كان حصل عندهم بعض اطمينان، وفتحوا بعض الدكاكين. فلما حصلت هاتان النكتتان انكمش الناس ثانيًا وارتجفت قلوبهم.

* بونابرت يأمر بهدم أبواب الدروب والعطف والحارات.



وفى عشرينه: حضرت مكاتيب الحجاج من العقبة، فذهب أرباب الديوان إلى باش العسكر وأعلموه بذلك، وطلبوا منه أمانا لأمير الحاج فامتنع، وقال لا أعطيه ذلك إلا بشرط أن

يأتى فى قلة، ولا يدخل معه مماليك كثيرة ولا عسكر، فقالوا له: ومن يوصل الحجاج؟ فقال لهم: أنا أرسل لهم أربعة آلاف من العسكر يوصلونهم إلى مصر، فكتبوا لأمير الحاج مكاتبة بالملاطفة، وأنه يحضر بالحجاج إلى الدار الحمرا، وبعد ذلك يحصل الخير، فلم تصل إليهم الجوابات حتى كاتبهم إبراهيم بك يطلبهم [أى الحجاج] للحضور إلى جهة بلبيس فتوجهوا على بلبيس وأقاموا هناك أياما وكان إبراهيم بك ومن معه ارتحل من بلبيس إلى المنصورة*، وأرسلوا الحريم إلى القرين.

* لا نظن أبدا أن رواية الجبرتى عن انتقال المماليك إلى المنصورة صحيحة لأن الطريق الطبيعى لهم هو من بلبيس إلى القرين إلى الصالحية، التى هى طريق القوافل إلى قطية فالشام.

وفى ثالث عشرينه: خرجت طايفة من العسكر الفرنساوى إلى جهة العادلية، وصار فى كل يوم تذهب طايفة بعد أخرى، ويذهبون إلى جهة الشرق.

فلما كان ليلة الأربعا خرج كبيرهم بونابرته، وكانت أوايلهم وصلت إلى الخانكة وأبى زعبل، وطلبوا كلفة من أبى زعبل، فامتنعوا، فقاتلوهم وضربوهم وكسروهم، ونهبوا البلدة وأحرقوها وارتحلوا إلى بلبيس.

وأما الحجاج فإنهم نزلوا ببلبيس، واكترت [أتفق] حجاج الفلاحين مع العرب فأوصلوهم إلى بلادهم بالغربية والمنوفية والقليوبية وغيرها، وكذلك فعل الكثير من الحجاج، فتفرقوا فى البلاد بحريمهم، ومنهم من أقام ببلبيس، وأما أمير الحاج صالح بك فإنه لحق بإبراهيم بك وصحبته جماعة من التجار وغيرهم.

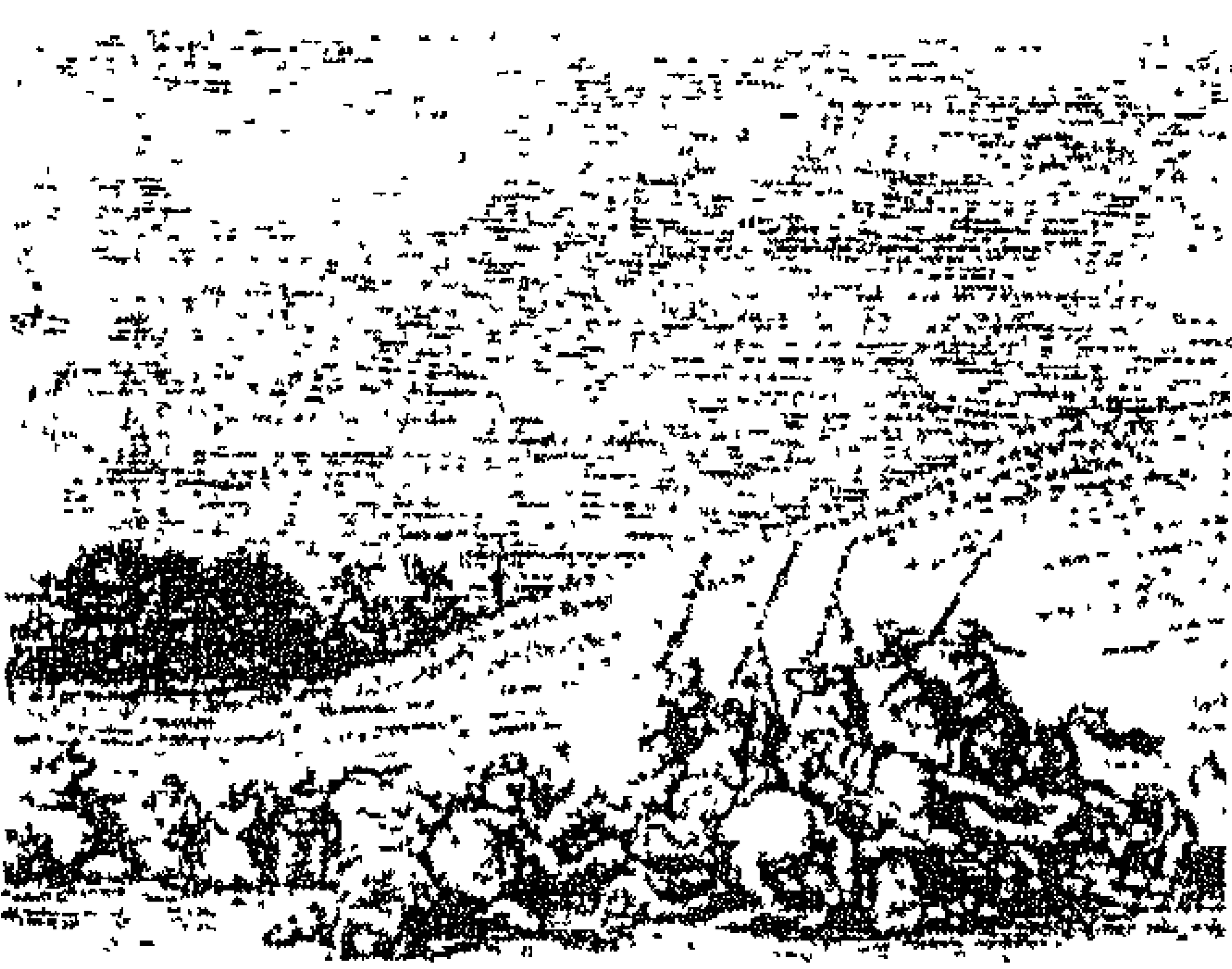
وفى ثامن عشرينه: ملك الفرنساوية مدينة بلبيس من غير قتال وبها من بقى من الحجاج، فلم يشوشوا عليهم،

* بلبيس على عهد الجبرتى.



الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

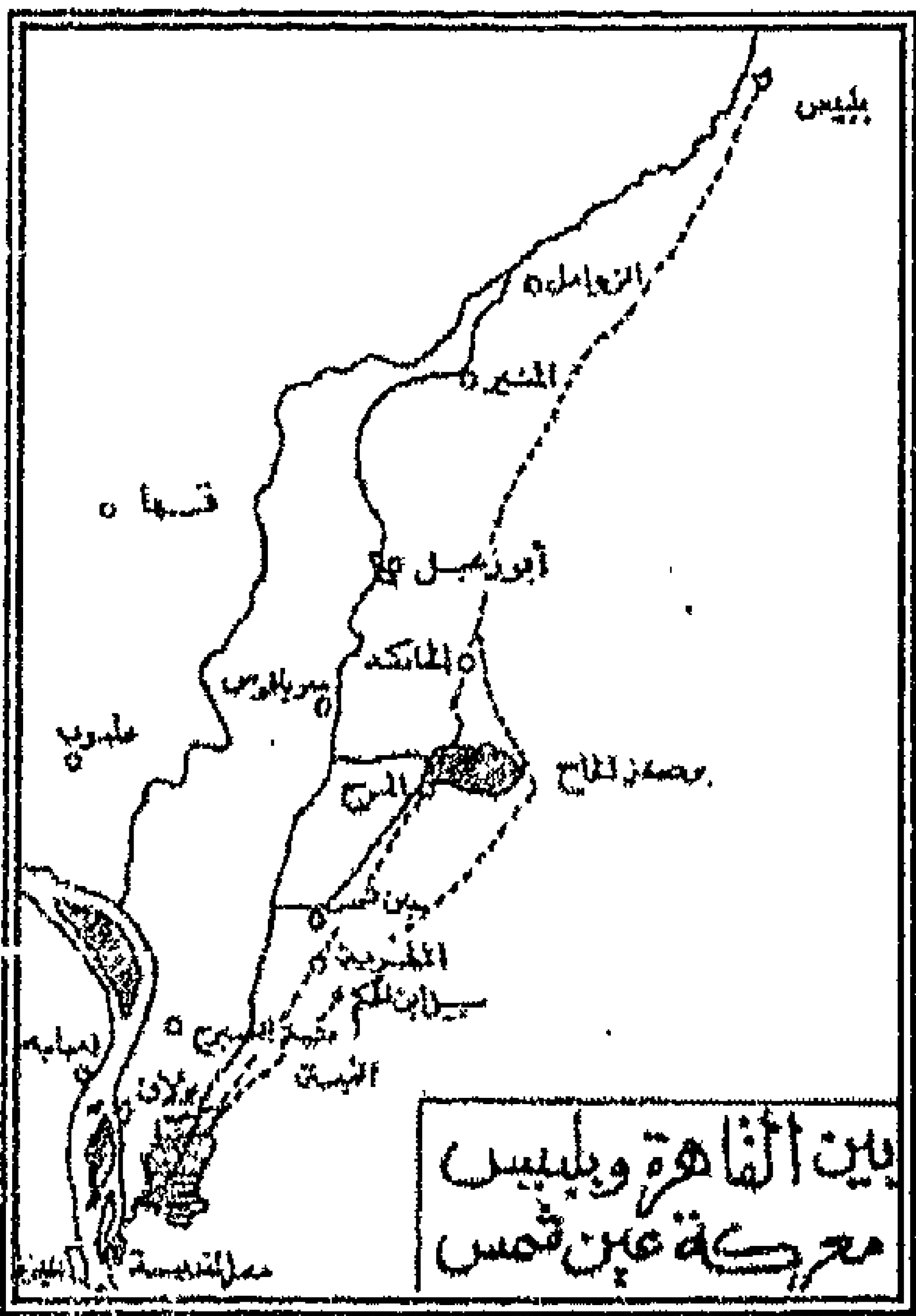
وأرسلوهم إلى مصر وصحبتهم طايفة من عساكرهم ومعهم طبل. فلما كان ليلة الأحد غايته جا الرد إلى الأمرا بالمنصورة وأخبرهم بوصول الإفرنج وقربهم منهم. فركبوا نصف الليل، وترفعوا إلى جهة القرين، وتركوا التجار، وأصحاب الأثقال.



* البدو العرب يغدرون بالحجاج ويسرقونهم بعد أن يعطوهم الأمان.

فلما طلع النهار حضر إليهم جماعة من العربان*،واتفقوا معهم على أنهم يحملونهم إلى القرين، وحلفوا لهم وعاهدوهم على أنهم لا يخونونهم، فلما توسطوا بهم الطريق نقضوا عهدهم وخانوهم ونهبوا حمولهم، وتقاسموا متاعهم وعرُّوهم من ثيابهم، وفيهم كبير التجار السيد أحمد المحروقى، وكان ما يخصه نحو ثلثماية ألف ريال فرانسه نقوداً ومتجراً من جميع الأصناف الحجازية، وصنعت العرب معهم مالا خير فيه.

ولحقهم عسكر الفرنساوية، فذهب السيد أحمد المحروقى إلى صارى عسكر وواجهه وصحبته جماعة من العرب المنافقين، فشكا له ما حل به وبإخوانه، فلامهم على تنقلهم وركونهم إلى المماليك والعرب.



الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

ثم قبض على أبى خشبة شيخ بلد القرين، وقال له: عرفنى عن مكان المنهوبات، فقال: أرسل معى جماعة إلى القرين، فأرسل معه جماعة دلهم على بعض الأحمال، فأخذها الإفرنج ورفعوها، ثم تبعوه إلى محل آخر فأوهمهم أنه يدخل ويخرج إليهم أحمالا كذلك، فدخل وخرج من مكان آخر، وذهب هاربًا، فرجع أوليك العسكر بجمل ونصف جمل لا غير، وقالوا هذا الذى وجدناه، والرجل فر

من أيدينا، فقال صارى عسكر لابد من تحصيل ذلك، فطلبوا منه الإذن فى التوجه إلى مصر، فأصحب معهم عدة من عسكره أوصلوهم إلى مصر، وأمامهم طبل، وهم فى أسوأ حال، وصحبتهم أيضا جماعة من النسا اللاتى كن خرجن ليلة الحادثة، وهن أيضا فى أسوأ حالة، تسكب عند مشاهدتهن العبرات.

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الاثنين سنة ١٢١٣هـ ١٣ أغسطس ١٧٩٨م

فى ثانيه*: وصل الفرنساوى إلى نواحى القرين، وكان إبراهيم بك ومن معه وصلوا إلى الصالحية، وأودعوا ما لهم وحريمهم هناك، وضمّنوا عليها العربان وبعض الجند، فأخبر بعض العرب الفرنساوية بمكان الحملة، فركب صارى عسكر وأخذ معه الخيّالة، وقصد الإغارة على الحملة، وعلم إبراهيم بك بذلك أيضا، فركب هو وصالح بك وعدة من الأمرا والمماليك وتحاربوا معهم ساعة، أشرف فيها الفرنسيس على الهزيمة لكونهم على الخيول، وإذ بالخبر وصل إلى إبراهيم بك بأن العرب مالوا على الحملة يقصدون نهبها، فعند ذلك فرّ بمن معه على إثره، وتركوا قتال الفرنسيس، ولحقوا بالعرب وجلوهم عن متاعهم، وقتلوا منهم عدة وارتحلوا إلى قطيا*، ورجع صارى عسكر إلى مصر، وترك عدة من عساكره متفرقين فى البلاد، فدخل مصر ليلا، وذلك ليلة الخميس رابعه.

وفى يوم الجمعة خامسه: الموافق لثالث عشر مسرى القبطى كان وفا النيل المبارك، فأمر صارى عسكر بالاستعداد وتزيين

* يذكر أحمد حافظ رجب أن ذلك كان فى يوم السبت ٢٨ صفر/ ١١ أغسطس وفى يوم الثلاثا كان بونابرت فى القاهرة وقد وصلت إليه أخبار موقعة أبو قير البحرية. وانه بعد استيلاء الفرنساوية على الصالحية، وفرار إبراهيم بك وأبى بكر باشا، كتب نابوليون خطابا أعطاه لأعرابى على هجين سريع ليلحق إبراهيم بك فى طريقه إلى غزة، على أمل أن يتفق معه ومع والى الدولة، وهذا هو تعريب ذلك الخطاب.

المعسكر العام بالصالحية ١٢ أغسطس ١٧٩٨

إلى إبراهيم بك

لم يعد عندك شك فى تفوق الجيوش التى أقودها وها أنت خارج أرض مصر وامامك صحراء واسعة. وانك لتجد فى واسع حلمى كل ما تريده من نعمة وسعادة واطمئنان. فهل لك أن تبلغنى فى الحال رغباتك؟ وانى أعلم أن باشا (نايب) جلالة السلطان موجود معك، فليكن هو واسطة ورسولا للمخابرة بينى وبينك.

«بونابارت»

* قَطْيَا، أو قطية: بلدة قرب الفرما من قرى قسم القنطرة شرق ـ محافظة سيناء.

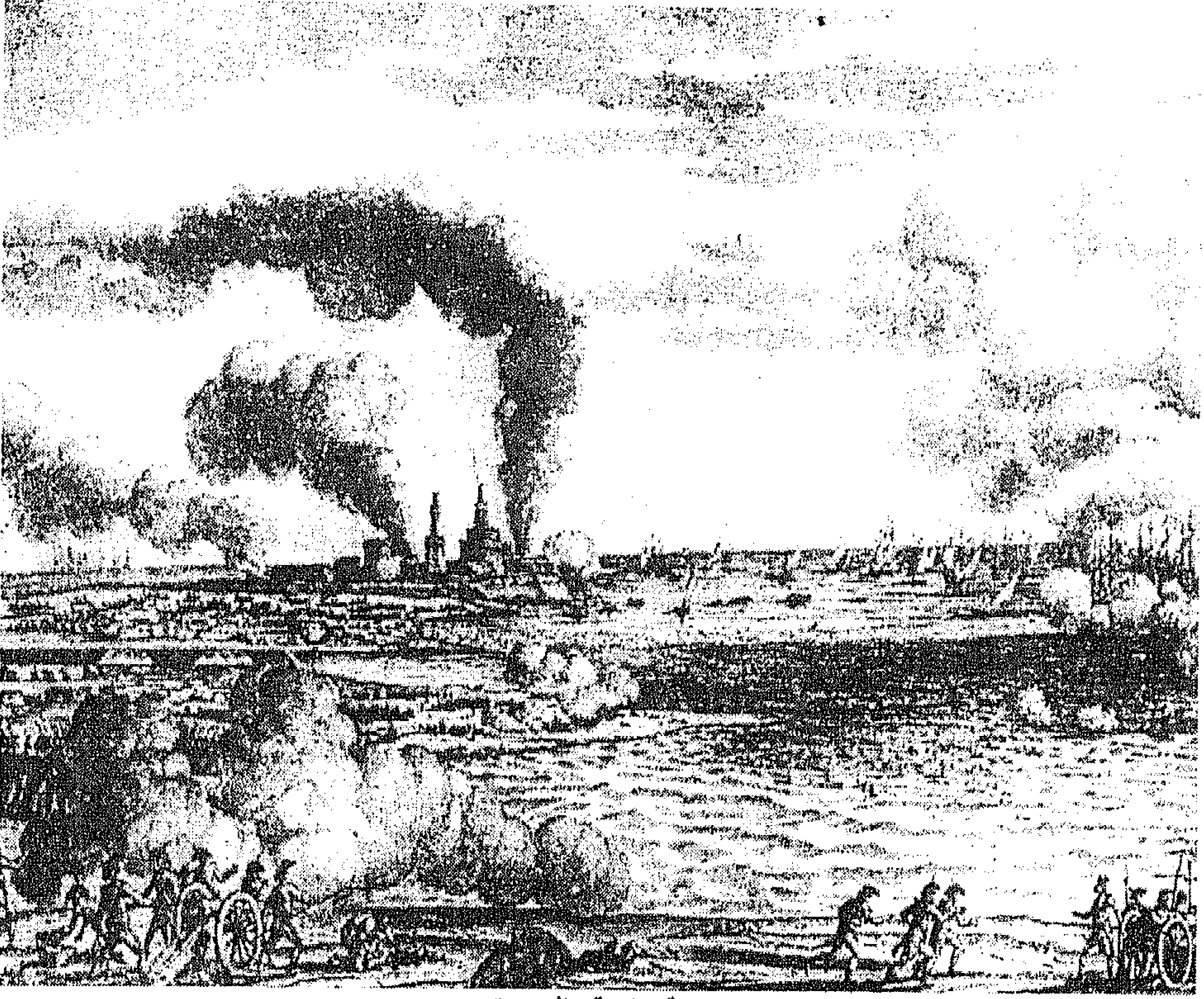
العقبة كالعادة، وكذلك زينوا عدة مراكب وغلايين، ونادوا على الناس بالخروج إلى النزهة فى النيل والمقياس* والروضة على عادتهم، وأرسل صارى عسكر أوراقا لكتخدا الباشا والقاضى وأرباب الديوان وأصحاب المشورة والمتولين للمناصب وغيرهم بالحضور فى صبحها، وركب صحبتهم بموكبه وزينته وعساكره وطبوله وزموره إلى قصر قنطرة السد، وكسروا الجسر بحضرتهم، وعملوا شنك مدافع ونقوطًا حتى جرى الماء فى الخليج وركب وهم صحبته حتى رجع إلى داره، وأما أهل البلد فلم يخرج منهم أحد تلك الليلة للتنزه فى المراكب على العادة سوى النصارى الشوام والقبط والأروام والإفرنج البلديين ونسايهم وقليل من الناس البطالين حضروا فى صبحها.

وفيه: تواترت الأخبار بحضور عدة مراكب من الإنكليز إلى ثغر اسكندرية، وأنهم حاربوا مراكب الفرنساوية الراسية بالمينا، وكانت أشيعت هذه الأخبار قبل، وتحدث الناس بها، فصعب ذلك على الفرنساوية.

واتفق أن بعض النصارى الشوام نقل عن رجل شريف يسمى السيد أحمد الزرو من أعيان التجار بوكالة الصابون أنه تحدث بذلك فأمروا بإحضاره، وذكروا له ذلك، فقال: أنا حكيت ما سمعته من فلان النصرانى، فأحضروه أيضا، وأمروا بقطع لسانيهما، أو يدفع كل واحد منهما ماية ريال فرانسه نكالا لهما وزجرًا عن الفضول فيما لا يعنيهما، فتشفع المشايخ، فلم يقبلوا، فقال بعضهم أطلقوهما ونحن نأتيكم بالدراهم، فلم يرضوا، فأرسل الشيخ مصطفى

* المقياس: اهتم المصريون بضبط مياه النيل منذ أكثر من أربعين قرنا قبل الميلاد. كما أهتموا بتسجيل منسوب الفيضان بانشاء المقياس النقالى يقيسون به عمق الماء فى النهر. كذلك كانت لهم مقاييس ثابتة فى كل المعابد ومنها جزيرة الروضة. وبعد الغزو العربى اقام عمرو بن العاص مقياسين أحدهما بأسوان والآخر بأرمنت. وفى سنة ٨٠هـ. أقام عبد العزيز بن مروان مقياساً صغيراً فى حلوان. وفى ٩٧ هـ. بنى مقياس جزيرة الروضة الذى جدده الفرنسيون. وبأنشاء السد العالى انتهت أهمية مقياس النيل بسبب الثبات النسبى فى مياه النيل.

الاسطول الانجليزى يدمر الاسطول الفرنسى فى أبو قير.
هذه المعركة هى التى عرفت فى التاريخ بمعركة أبى قير البحرية، وكانت الخسائر الفرنسية عبارة عن اغراق سفينتين عظيمتين وفرقاطتين، وسقطت تسع سفن فى أيدى الانجليز، وقتل الف وسبعمائة من البحارة الفرنسيين، وجرح ألف وخمسماية، وكان الإنجليز قد أسروا ثلاثة آلاف، لكنهم أفرجوا عنهم بسبب نقص مؤنهم، وذلك بشرط عدم المشاركة فى بقية قوات الحملة راجع ـ هنرى لورنس ـ مرجع سابق ـ ص ١٧٩.



* موقعه ابو قير البحرية

الصاوى، وأحضر مايتى ريال ودفعها فى الحضرة. فلما قبضها الوكيل ردها ثانيًا إليه، وقال: فرقها على الفقرا، فأظهر أنه فرقها كما أشار وردها إلى صاحبها، فانكفّ الناس عن التكلم فى شأن ذلك.

والواقع أن الإنكليز حضروا فى إثرهم إلى الثغر وحاربوا مراكبهم، فنالوا منهم، وأحرقوا القايق الكبير المسمى بنصف الدنيا، وكان به أموالهم وذخايرهم، وكان مصفحا بالنحاس الأصفر، واستمر الإنكليز بمراكبهم بمينا الإسكندرية يغدون ويروحون يرصدون الفرنسيس، وفى ذلك اليوم سافر عدة من عساكرهم إلى بحرى وإلى الشرقية.

ولما جرى الماء فى الخليج منعوا دخول الماء إلى بركة الأزبكية، وسدوا قنطرة الدكة بسبب وطاقهم ومدافعهم وآلتهم التى فيها.

* وفى مخطوطة «ليدن» يحلل الجبرتى سبب مطاردة الإنجليز للفرنساوية فيذكر فى حوادث ٦ ربيع أول ١٢١٣ ما يلى:
وخبر هولا الانجليز أنهم معادين لطايفة الفرنسيس وأن الفرنسيسى [بونابرت] لما أغار على البنادقة والونديك والسجورنه [جزر البلقان القريبة من البحرالادرياتى] وغيرهم قصد الاغارة علي الإنجليز أيضا فلم يتمكن للعبور إليهم من طريق البر فحاربهم فى البحر فلم يطيقوهم لأن الانجليز موصوفون فى الشدة وقوة البأس فى محاربة المراكب فى البحر والفرنسيسى بالعكس، فعلم الفرنسيسى أنه لا يتمكن من غرضه معهم إلا من جهة البر ولا طريق له إلا من الهند، ولا طريق للهند إلا من بحر

وفيه: سأل صارى عسكر عن المولد النبوى*، ولماذا لم يعملوه كعادتهم؟ فاعتذر الشيخ البكرى بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال: لابد من ذلك، وأعطى له ثلثماية ريال فرانسا معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد، ولعبوا ميادينهم، وضربوا طبولهم ودبادبهم، وأرسل الطبلخانة الكبيرة إلى بيت الشيخ البكرى، واستمروا يضربونها بطول النهار والليل بالبركة تحت داره، وهى عبارة عن طبلات كبار مثل طبلات النوبة التركية وعدة آلات ومزامير مختلفة الأصوات مطربة. وعملوا فى الليل حراقة نفوط مختلفة وسواريخ تصعد فى الهواء.

وفى ذلك اليوم: ألبس الشيخ خليل البكرى فروة وتقلد نقابة الأشراف، ونودى فى المدينة بأن كل من كان له دعوى على شريف فليرفعها إلى النقيب.

وفيه: ورد الخبر بأن إبراهيم بك والأمرا المصرية استقروا بغزة.

وفى خامس عشره: سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية جهة الصعيد، وكبيرهم ديزه وصحبتهم يعقوب القبطى ليعرفهم الأمور، ويطلعهم على المخبآت.

وفيه: حضر القاصد الذى كان أرسله كبير الفرنساوية بمكاتبات وهدية إلى أحمد* باشا الجزار بعكا، وذلك عند استقرارهم بمصر، وصحبته أنفار من النصارى الشوام فى صفة تجار، ومعهم جانب أرز، ونزلوا من ثغر دمياط فى سفينة من سفاين أحمد باشا، فلما وصلوا إلى عكا وعلم بهم أحمد باشا أمر بذلك الفرنساوى، فنقلوه إلى بعض

القلزم، والإنجليز يعلم، فلما وجده ملك الاسكندرية وعبر الممالك المصرية علم أنه يصل إليهم بعد ذلك من هذه الجهة ولابد من تتابع الأمداد والعسكر فحضر على أثرهم بعدة مراكب مشحونة بالمقاتلين إلى الاسكندرية وحاربوا المراكب التى وجودها خارج المينه وبوقير فنالوا منهم....

* وصفت صحيفة كوريه دى ليجيبت فى عددها الاول هذا الاحتفال «واحتفلت البلاد هذه الأيام احتفالا رائعا بمولد النبى، فاضيئت منازل القايد العام، والجنرال ديبوى، والشيخ البكرى بالأنوار الساطعة طوال خمسة أيام. وفى الساعة العاشرة من كل ليلة من ليالى العيد سارت مواكب المسلمين فى المدينة وهى تنشد أناشيد المديح فى النبى، كما أقامت حلقات الذكر على اضواء المشاعل. وقام جنود الحامية باستعراض عسكرى رائع. ثم توجه لفيف من الضباط الفرنسيين بهيئة أركان الحرب يتقدمهم حملة المشاعل ورجال الموسيقى إلى منزل الشيخ البكرى نقيب الاشراف وقد اطلقت عدة طلقات ايذانا ببدء مسيرتهم.

* عندما جاء بونابرت إلى مصر بحملته عمل على التقرب من أحمد باشا الجزار فى عكا وأرسل له رسالة وذلك لاتقاء شره ولتأمين بوابة مصر الشرقية، ولعمل وقيعة بينه وبين السلطان العثمانى ـ وكان نص الرسالة كالآتى:
معسكر القاهرة ٢٢ اغسطس ١٧٩٨. رسالة بونابرت إلى أحمد باشا الجزار حاكم صيدا وعكا.

لم آت مصر محاربا المسلمين بل جئتها لمحاربة البكوات. واعتقد أنى بالقضاء عليهم قد قمت بعمل عادل يوافق مصالحك. لأنهم كانوا اعداءك وأنت تعلم حتما أنى لما وضعت قدمى فى مالطة كان أول عملته أن اطلقت سراح الفين من أسرى الأتراك الذين قبضوا عدةسنين فى ذل الأسر والعبودية ـ وما وصلت إلى مصر حتى طمأنت خواطر الأهالى. وبالغت فى احترام العلماء ورجال الدين ومساجد المسلمين. ولم يلق حجاج بيت الله مثل ما لاقوا من العناية والرعاية منى ولم يحتفل بمولد النبى بمثل ما احتفلت به من الابهة الكاملة والاحترام العظيم.

وقد بعثت بهذا الكتاب مع ضابط يستطيع أن يوقفك على ميولى ورغبتى فى أن أكون معك على صفا وسلام لنتعاون معا على بحث المسايل التى تؤدى لنمو التجارة وخير البلدين وأوكد انه لا يوجد للمسلمين أصدقاء أخلص من الفرنسيين.

بونابرت

وذكر (لاكروا) ان نابوليون بعث برسول ثان إلى عكا فكان حظه أشأم من الاول إذ أمر الجزار بقتله والتمثيل به، ولكن (لاكروا) على سعة اطلاعه، ووجود المحفوظات الرسمية تحت أمره لتأليف كتابه، لم يذكر نص الخطاب الثانى الذى بعث به نابوليون إلى أحمد باشا الجزار، فقد كان بونابارت فى خطابه الثانى أقل صلفًا وأخف دعوى. وقد عثرت على نص هذا الخطاب الثانى فى مذكرات «ميو» وهذا تعريبه.

النقاير، ولم يواجهه ولم يأخذ منه شيأ، وأمره بالرجوع من حيث أتى، وعوق عنده نصارى الشوام الذين كانوا بصحبته.

وفيه: حضر جماعة من عسكر الفرنساوية إلى بيت رضوان كاشف بباب الشعرية وصحبتهم ترجمان ومهندس، فانزعجت زوجته، وكانت قبل ذلك بأيام صالحت على نفسها وبيتها بألف ريال وثلثماية ريال، وأخذت منهم ورقة ألصقتها على باب دارها، وردت ما كانت وزعته من المال والمتاع عند معارفها، واطمأنت، فلما حضر إليها الجماعة المذكورون قالوا لها: بلغ صارى عسكر أن عندك أسلحة وملابس للمماليك؛ فأنكرت ذلك، فقالوا لازم من التفتيش ، فقالت دونكم، فطلعوا إلى مكان وفتحوا مخبأة، فوجدوا بها أربعة وعشرين شروالا وبلكات وأمتعة وغير ذلك، ووجدوا فى أسفلها مخبأة أخرى بها عدة كثيرة من الأسلحة والبنادق والطبنجات وصناديق بارود وغير ذلك، فاستخرجوا جميع ذلك، ثم نزلوا إلى تحت السلالم وفجروا الأرض، وأخرجوا منها دراهم كثيرة وحجاب ذهب فى داخله دنانير، ثم أنزلوا صاحبة الدار ومعها جارية بيضاء، وأخذوهما مع الجوارى السود، وذهبوا بهن، فأقمن عندهم ثلاثة أيام، ونهبوا ما وجدوه بالدار من فرش وأمتعة، ثم قرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى قامت بدفعها، وأطلقوها، ورجعت إلى دارها.

وبسبب هذه الحادثة شددوا فى طلب الأسلحة ونادوا بذلك، وأنهم بعد ثلاثة أيام يفتشون البيوت، وقال الناس: إن

٩٧ «لا أريد أن أدخل معك في حرب. نعم انك لست عدواً لي ولكن حان الوقت لتعلم انك إذا بقيت جاعلاً حدود مصر ملجأ لإبراهيم بك، فانني أعد ذلك علامة للعداء وأذهب إلى عكا.
وإذا كنت تريد أن تبقى في سلام معي فابعد إبراهيم بك على مسافة أربعين فرسخًا من حدود مصر، ودع التجارة حرة بين دمياط وسوريا.
وحينئذ أعدك باحترام البلاد التي تحت امارتك وأترك للتجارة الحرية التامة بين [illegible] في البر وفي البحر»
«بونابرت»

* خريطة معركة أبو قير

هذه حيلة على نهب البيوت، ثم بطل ذلك، والسبب في ذلك انه حصل بينها وبين مباشرها القبطي منافسة، فذهب وأغرى بها ودل على ذلك.

وفي عشرينه: قلدوا مصطفى بك كتخدا الباشا على إمارة الحاج، فحضروا إلى المحكمة عند القاضي، ولبس هناك الخلعة بحضرة مشايخ الديوان، والتزم بونابارته بتشهيل مهمات الحج، وعمل محملا(*) جديداً.

وفيه: سأل أصحاب الحصص الالتزام في التصرف في حصصهم، فطلبوا منهم حلوانا، فلم يرتضوا بذلك، فواعدهم لتمام التحرير والإملا، وقالوا كل من كان له التزام وتقسيط ناطق باسمه يحضره ويمليه، ففعلوا ذلك في عدة أيام.

* تعيين امير الحج: نشر الخبر في جريدة كوريه دي ليجيبت كالآتي عين القايد العام السيد/ مصطفى اميرا للحج إلى مكة، وقد البس اليوم امام جميع موظفي الدولة واشراف البلد معطفا جميلا لونه أخضر لهذه المناسبة، وقد اهداه الجنرال بضع جواهر وحصانا عليه سرج جميل محلى بأحسن كسوة. وعند مغادرته

الحفل ودعته ست طلقات اطلقتها مدافع بطارية القلعة.

وفيه: قدروا فرضة من المال على القرى والبلاد، ونشروا بذلك أوراقًا وذكروا فيها أنها تحسب من المال وقيدوا بذلك الصيارف من القبط، ونزلوا فى البلاد مثل الحكام يحبسون ويضربون ويشددون فى الطلب*.

* ننشر هنا نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨ بفرض الغرامات على بعض البلاد وبخاصة المنصورة وأهلها.
المعسكر العام بالقاهرة فى ١٤ فركتيدور من السنة السادسة (٣١ أغسطس سنة ١٧٩٨). بونابارت القايد العام يأمر بما هو آت:
المادة الأولى: توقف الغرامات التى ضربت على بلاد مديرية المنصورة.
المادة الثانية: تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة آلاف ريال تفرض على الأغنياء من أهلها عقابًا لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا.
المادة الثالثة: يدفع السيد على الشناوى أحد أهال المنصورة غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال، وفى مقابل ذلك يُعطَى أمانًا على نفسه وعلى أملاكه وأمواله.
المادة الرابعة: تفرض غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال على أسوأ البلاد سلوكًا فى مديرية المنصورة.
المادة الخامسة: تفرض غرامة ٤٠٠٠ ريال بشكل سلفة على أغنياء التجار والأعيان فى المحلة الكبرى.
المادة السادسة: تدفع هذا المبالغ إلى أمين الخزانة فرقة الجنرال دوجا وتكون تحت تصرف مدير مهمات الجيش وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش وإدارتها واستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة.
المادة السابعة: على كبير المباشرين تنفيذ هذا الأمر.

بونابارت

وفيه: طلب صارى عسكر بونابارته ـ المشايخ، فلما استقروا عنده ـ نهض بونابارته من المجلس ورجع وبيده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان، كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى، فوضع منها واحدًا على كتف الشيخ الشرقاوى، فرمى به إلى الأرض، واستعفى وتغير مزاجه، وانتقع لونه، واحتد طبعه. فقال الترجمان: يامشايخ أنتم صرتم أحبابًا لصارى عسكر، وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس، وصار لكم منزلة فى قلوبهم، فقالوا له: لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا من المسلمين، فاغتاظ لذلك، وتكلم بلسانه، وبلغ عنه بعض المترجمين أنه قال عن الشيخ الشرقاوى: إنه لا يصلح للرياسة ونحو ذلك، فلاطفه بقية الجماعة، واستعفوه من ذلك، فقال إن لم يكن ذلك فلازم من وضعكم الجوكار فى صدوركم، وهى العلامة التى يقال لها الوردة، فقالوا أمهلونا حتى نتروّى فى ذلك، واتفقوا على اثنى عشر يوما.

وفى ذلك الوقت حضر الشيخ السادات باستدعا فصادفهم منصرفين، فلما استقر به الجلوس بَشّ له وضاحكه صارى عسكر، ولاطفه فى القول الذى يعربه الترجمان، وأهدى له خاتم ألماس، وكلفه الحضور فى الغد عنده، وأحضر له

جوكار أوثقه بفراجته، فسكت وسايره، وقام وانصر. فلما خرج من عنده رفعه.

وفى ذلك اليوم: نادى جماعة القلقات [مشايخ الحارات] على الناس بوضع العلامات المذكورة المعروفة بالوردة*، وهى إشارة الطاعة والمحبة، فأنف غالب الناس من وضعها، وبعضهم رأى أن ذلك لا يخل بالدين، إذ هو مكروه، وربما ترتب على عدم الامتثال الضرر فوضعها، ثم فى عصر ذلك اليوم نادوا بإبطالها من العامة، وألزموا بعض الأعيان، ومن يريد الدخول عندهم لحاجة من الحاجات بوضعها، فكانوا يضعونها إذا حضروا عندهم، ويرفعونها إذا انفصلوا عنهم، وذلك أيام قليلة ، وحصل ما يأتى ذكره فتركت.

وفى أواخره: كان انتقال الشمس لبرج الميزان، وهو الاعتدال الخريفى، فشرع الفرنساوية فى عمل عيدهم ببركة الأزبكية، وذلك اليوم كان ابتدا قيام الجمهور [الثورة الفرنسية ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢] ببلادهم ، فجعلوا ذلك اليوم عيداً وتاريخًا، فنقلوا أخشابًا وحفروا حفراً، وأقاموا بوسط بركة الأزبكية صارياً عظيما بآلة وبنا، وردموا حولة تراباً كثيراً عالياً بمقدار قامة، وعملوا فى أعلاه قالباً من الخشب محدد الأعلى مربع الأركان مسلة، ولبسوا باقيه على سمت القالب قماشًا ثخينًا طلوه بالحمرة الجزعة، وعملوا أسفله قاعدة نقشوا عليها تصاوير سودا فى بياض، ووضعوا قبالة باب الهوا بالبركة شبه بوابة كبيرة عالية من خشب مقفص، وكسوها بالقماش المدهون مثل لون الصارى، وفى أعلى القوصرة طلا أبيض، وبه تصاوير بالأسود مصور فيه مثل

* صدر قرار من نابليون جاء فيه. يأمر القايد العام بما يلى
مادة أولى: يلتزم جميع سكان القطر المصرى بوضع الشارة ذات الثلاثة الوان على صدورهم.
مادة ثانية: على جميع المراكب النيلية رفع العلم المثلث الألوان على سارياتها.
مادة ثالثة: لن يتحدث القادة وحكام المقاطعات والضباط الفرنسيون إلى أى شخص من البلاد إلا إذا كان يحمل الشارة، وكذلك فى جميع الأقسام المقامة على النيل سيلفت قوادها الفرنسيون وقواد المراكب النيلية الملحة وقواد الحاميات فى رشيد ودمياط وبولاق سيلفتون أنظار أصحاب المراكب النيلية انه لن تترك لهم حرية الملاحة النهرية دون رفع العلم المثلث الألوان.
مادة رابعة: أعضاء الديوان فقط هم الذين لهم الحق فى ارتداء الشال المثلث الألوان على اكتافهم.

* خطبة نابليون بالأزبكية فى الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٧٩٨



* بونابرته يخطب فى جنود الحملة بمناسبة رأس السنة الجمهورية السابعة.

«أيها الجنود:

«نحتفل اليوم بمستهل السنة السابعة للجمهورية.

«منذ خمس سنوات خَلَت كان استقلال الشعب الفرنسى مهدداً، ولكنكم جاهدتم فاحتللتم (طولون) فكان هذا الاحتلال فاتحة انهيار صرح الأعداء.

«ولم ينقض عام حتى هزمتم النمسويين فى (ديجو)..

«وفى السنة الثالثة رفعتم علم النصر فوق قمم جبال الألب.

«ومنذ عامين كنتم تهاجمون (مانتو) وحزتم ذلك النصر الباهر فى (سان جورج).

(وفى العام الماضى بلغتم منابع نهرى (الدراف)، (الأيسونزو) بعد أن انتصرتم فى ألمانيا، فمن كان يظن يومئذ أنكم ستكونون اليوم على ضفاف النيل فى بطن القارة القديمة؟

«إن الشعوب شاخصة إليكم ترمقكم بأبصارها على اختلاف أجناسها، يستوى فى ذلك الإنجليزى الذى ثقفته التجارة والفنون، والبدوى الذى يعيش عيشة الغلظة والوحشة.

«أيها الجنود:

«إن مستقبلكم مجيد لأنكم جديرون بما قمتم به من جلايل الأعمال وبما حزتم من الثنا، ولئن كتب عليكم الموت فستنالون موتًا شريفًا كدأب أولئك الأبطال الذين نقشت أسماوهم على هذا الهرم. وإذا عدتم إلى الوطن فإنكم ستعودون مكللين بتاج الفخار حائزين إعجاب الشعوب جميعاً.

«مضى علينا ستة أشهر منذ برحنا القارة الأوروبية ومن يومئذ ونحن مغمورون على الدوام بسيل لا ينقطع من عواطف مواطنينا الذين ترمقنا أبصارهم فى كل آن، فاليوم يشارككم فى هذا الاحتفال أربعون مليونًا من المواطنين يحتفلون بإقامة الحكم الدستورى ويتجهون إليكم بأفكارهم وعواطفهم، ويذكرون فى احتفالهم أنهم مدينون لجهادكم ودمائكم بما يتمتعون به من السلام والطمأنينة، والرخاء والحرية الوطنية».

حرب المماليك المصرية معهم، وهم فى شبه المنهزمين، بعضهم واقع على بعض، وبعضهم ملتفت إلى خلف، وعلى موازاة ذلك من الجهة الأخرى بناحية قنطرة الدكة التى يدخل منها الماء إلى البركة مثال بوابة أخرى على غير شكلها لأجل حراقة البارود، وأقاموا أخشابًا كثيرة منتصبة مصطفة منها إلى البوابة الأخرى شبه الدايرة متسعة محيطة بمعظم فضا البركة بحيث صار عامود الصارى الكبير المنتصف المذكور فى المركز، وربطوا بين تلك الأخشاب حبالا ممتدة، وعلقوا بها صفين من القناديل، وبين ذلك تماثيل لحراقة البارود أيضًا، وأقاموا فى عمل ذلك عدة أيام*.

واستهل شهر ربيع الثانى بيوم الأربعا سنة ١٢١٣هـ

فيه: وردت الأخبار بأن مراد بك ومن معه لما بلغهم ورود الفرنسيس عليهم رجعوا إلى جهة الفيوم، وأن عثمان بك الأشقر عدّى إلى البر الشرقى، وذهب من خلف الجبل إلى أستاذه إبراهيم بك بغزة، وخرج جماعة من الفرنساوية إلى جهة الشرق، ومعهم عدة جمال وأحمال، فخرج عليهم الغزُّ والعرب الذين يصحبونهم. فأخذوا منهم عدة جمال بأحمالها ولم يلحقوهم.

وفى ثالثه: حضرت مكاتبة من إبراهيم بك خطابًا للمشايخ وغيرهم: مضمونها: أنكم تكونون مطمينين ومحافظين على أنفسكم والرعية، وأن حضرة مولانا السلطان وجه لنا عساكر. وإن شا الله تعالى عن قريب نحضر عندكم، فلما

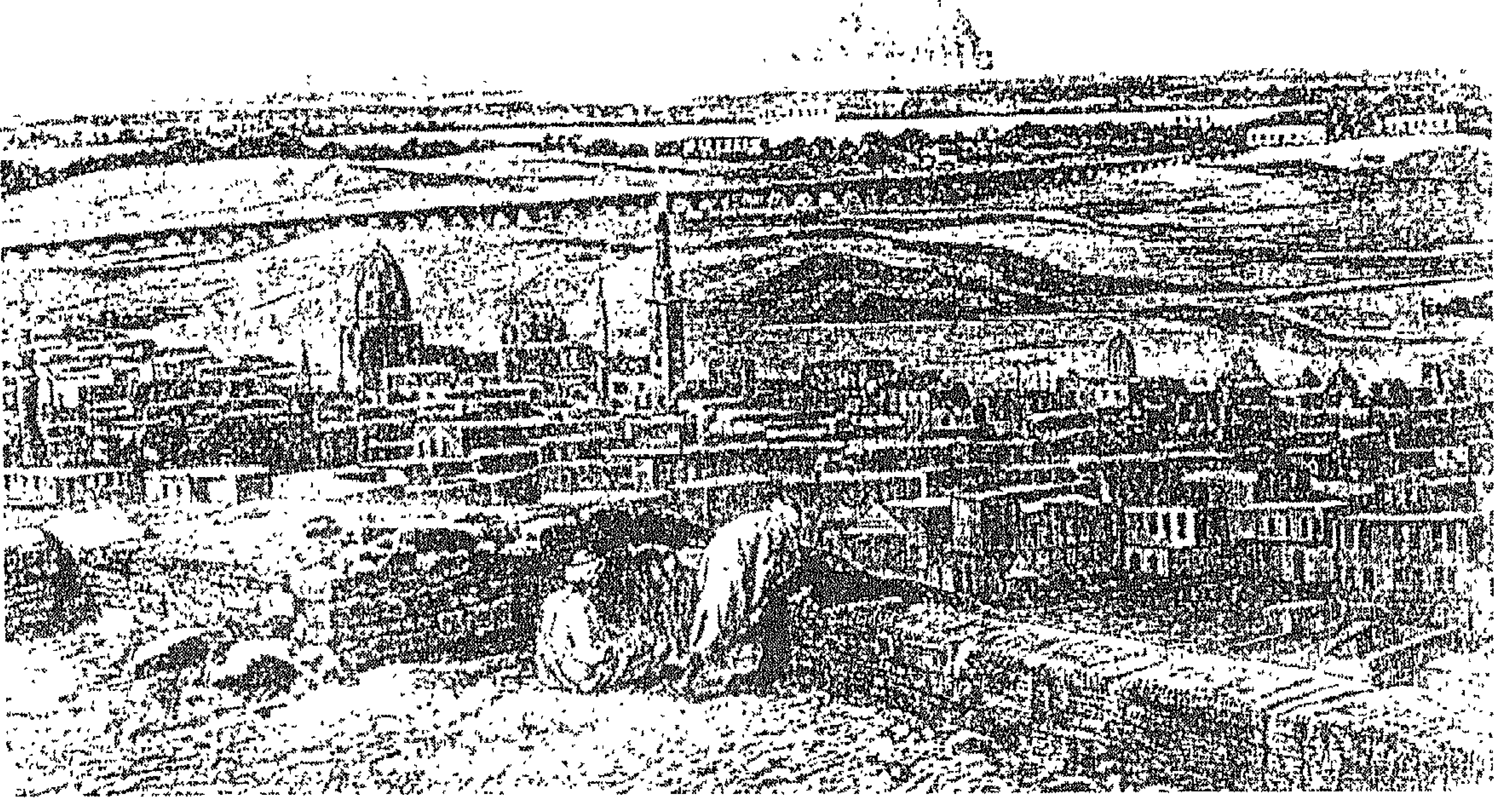


* الهجوم على الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩.

(*) يوجد وصف تفصيلى لهذا الاحتفال فى جريدة كوريبه دى ليجيبت العدد (٨٠) ـ ومما يلفت النظر فى هذا الوصف انه على أحد مداخل ميدان الاحتفال اقيمت بوابة كتب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وهذا من باب السياسة الإسلاميةلبونابرت.

* مستخرج من الأمر اليومى ـ ١٤ بروميير سنة ٧ للجمهورية.

سلم عدد كبير من مشايخ البلد ومشايخ العرب للقائد العام فرمانات مختلفة من الجزار، باشا سوريا، وإبراهيم بك وحتى من الباب العالى. كل هذه الفرمانات مزورة من أتباع إبراهيم بك بقصد حض الشعب على الثورة. جاء فى بعضها، وقد مضى على تاريخها حوالى شهرين، أن الجيش العثمانى تحرك ضدنا، وتؤكد غيرها أن الأسطول البريطانى يسيطر على الاسكندرية. وبفضل هذه المزاعم أمكن التخلص من حسن طوبار واندلاع الثورة فى قرى مختلفة، لقيت العقاب. أن الرجال مهما



*القاهرة من جبل المقطم وقد ظهر عن بعد مجرى العيون يليه النيل ثم الاهرامات.

قلت خبرتهم يمكنهم بسهولة التحقق من كذب هذه الفرمانات.

وأن الباب العالى يكتب دائما باللغة التركية ويوقع علي الفرمانات دائما من أربعة أشخاص. أما هذه الفرمانات فهى باللغة العربية وموقع عليها من شخصين فقط فضلا عن أنه ينقصها عدة إجراءات أساسية لابد منها وذلك يرجع لجهل محرريها.

أن الباب العالى أبعد ما يكون عن نشر فرامانات ضدنا. بل انه أدان باشا القاهرة في تصرفه حينما ترك المدينة عند وصولنا إليها ورحل إلى غزة. لقد عزل من منصبه وعين عبد الله، باشا دمشق، بدلا منه لمنصب الباشوية فى القطر المصرى. ويود القائد العام أن يعمل قواد الأقاليم بإصدار منشورات لتنوير الشعب في مختلف طوائفه ويطالبوا مشايخ البلد بالقبض علي حاملى هذه الفرامانات المزورة وأرسالهم إلي عاصم الإقليم.

امضاء: بونابرت

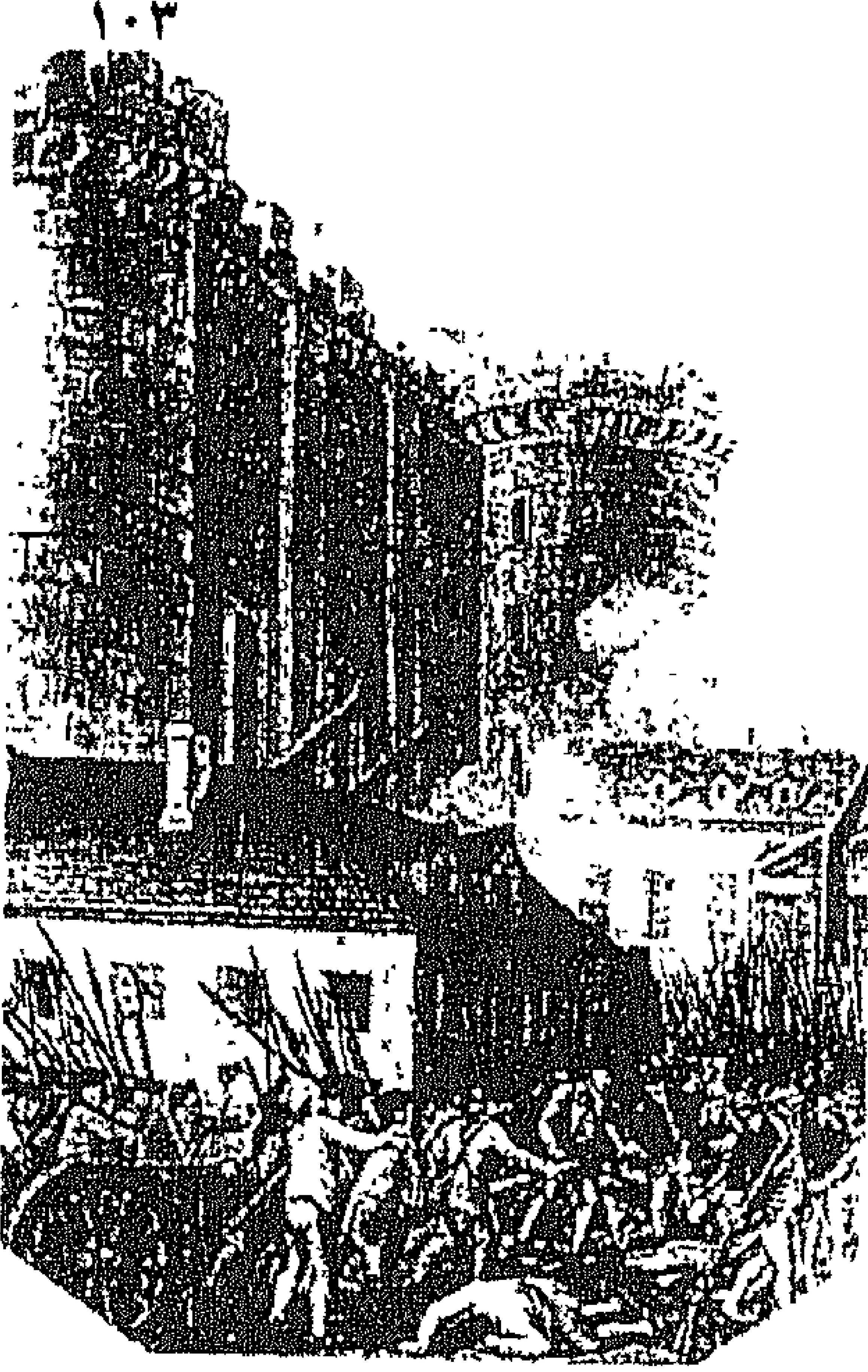
انظر: كوريه دى ليجيبت العدد ١٥.

وردت تلك المكاتبة، وقد كان سأل عنها بونابارته، فأرسلوها له، وقريت عليه. فقال المماليك: كذابون.

ووافق أيضاً أنه حضر أغا رومى، وكان معوّقاً بالإسكندرية. فمر بالشارع وذهب لزيارة المشهد الحسينى. فشاهده الناس، فاستغربوا هيئته، وفرحوا برؤيته، وقالوا هذا رسول الجى، حضر من عند السلطان بجواب للفرنسيس، يأمرهم بالخروج من مصر، واختلفت رواياتهم وآراهم وأخبارهم، وتجمعوا بالمشهد الحسينى، وتبع بعضهم بعضاً.

وصادف ذلك أن بونابارته فى ذلك الوقت بلغه مما نقل وتناقل بين الناس أنه ورد مكتوب إلى المشايخ أيضاً وأخفوه، فركب من فوره وحضر إلى بيت الشيخ السادات بالمشهد الحسينى، وكان الوقت بعد الظهر، فدخل على حين غفلة،

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



* هجوم الثوار الفرنساوية على سجن الباستيل فى ١٤ يوليو ١٧٨٩م.

ولم يكن تقدم له مجى، وهو فى كبكبة وخيول كثيرة وعساكر، فانزعج الشيخ، وكان منحرف المزاج، ونزل إليه وهو لا يعرف السبب فى مجيه فى مثل هذا الوقت على هذه الصورة. فعندما شاهده سأله عن ذلك المكتوب؛ فقال: لا علم لى بذلك، ولم يكن بلغه الخبر.

ثم جلس مقدار ساعة وركب ومر بعسكره وطوافيه من باب المشهد، والناس قد كثر ازدحامهم بالجامع والخطة وهم يلغطون ويخلطون.

فلما نظروه وشاهد هو جمعيتهم داخله أمر من ذلك، فصاحوا بأجمعهم، وقالوا بصوت عال (الفاتحة)، فشخص إليهم، وصار يسأل من معه عن ازدحامهم، فلطفوا له القول، وقالوا له: إنهم يدعون لك، وذهب إلى داره، وكانت نكتة غريبة، وساعة اتفاقية عجيبة كاد ينشا منها فتنة.

وفيه: شرعوا فى خلع* البوابات والدروب الغير النافذة أيضاً، ونقلوا الجميع إلى بركة الأزبكية عند رصيف الخشاب والبوابة الكبيرة يقطعونها نصفين، ويرفعونها بالعتالين إلى هناك، فاجتمع من ذلك شى كثيرجداً، وامتلا من رصيف الخشاب إلى قريب وسط البركة.

* خلع بوابات الدروب.

وفى يوم السبت حادى عشره [ربيع ثان] : كان يوم عيدهم* الموعود به، فضربوا فى صبيحته مدافع كثيرة، ووضعوا على كل قايم من الخشب بنديره من بنديراتهم الملونة، وضربوا طبولهم، واجتمعت عساكرهم بالبركة الخيالة والرجالة، واصطفوا صفوفا على طرايقهم المعروفة

* احتفال الفرنساوية بعيد الجمهورية [الموافق ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨م]
انظر خطبة بونابرت فى هذه المناسبة ص١٠٠.

بينهم، ودعوا المشايخ وأعيان المسلمين والقبطة والشوام، فاجتمعوا ببيت صارى عسكر بونابارته،وجلسوا حصة من النهار.

ولبسوا فى ذلك اليوم ملابس الافتخار، ولبس المعلم جرجس الجوهرى كركه بطرز قصب على أكتافها إلى أكمامها وعلى صدرها شمسات قصب بأزرار، وكذلك فلتيوس، وتعمموا بالعمايم الكشميرى، وركبوا البغال الفارهة، وأظهروا البشر والسرور فى ذلك اليوم إلى الغاية، ثم نزل عظماهم وصحبتهم المشايخ والقاضى وكتخدا الباشا، فركبوا وذهبوا عند الصارى الكبير [المسلة] الموضوع بوسط البركة، وقد كانوا فرشوا فى أسفله بسطاً كثيرة.

ثم إن العساكر لعبوا ميدانهم، وعملوا هيئة حربهم، وضربوا البنادق والمدافع، فلما انقضى ذلك اصطفت العساكر صفوفاً حول ذلك الصارى، وقرأ عليهم كبير قسوسهم* ورقة بلغتهم [انظر / ص١٠٠] لا يدرى معناها إلا هم، وكأنها كالوصية أو النصيحة أو الوعظ، ثم قاموا وانفض الجمع، ورجع صارى عسكر إلى داره، فمد سماطاً عظيما للحاضرين. فلما كان عند الغروب أوقدوا جميع القناديل التى على الحبال والتماثيل والأحمال التى على البيوت، وعند العشا عملوا حراقة بارود وسواريخ ونفوط وشبه سواقى ودواليب من قار ومدافع كثيرة نحو ساعتين من الليل، واستمرت القناديل موقودة حتى طلع النهار.

ثم فكوا الحبال والتعاليق والتماثيل المصنوعة، وبقيت البوابة المقابلة لباب الهوا والصارى الكبير وتحته جماعة ملازمون



* ثوار باريس فى ١٤ يوليو ١٧٨٩.

* يقصد الجبرتى هنا بونابرت.

وفى مثل هذه المناسبات كانت تظهر بعض الأغانى المحلية التى ينشدها الغوازى ويؤلفها لهم بعض المشايخ ومنها:

يا جمهور عسكرك داير فرحان
فى قطع دابر الغز والعربان
يا سلام بونابرته
يا سلام ملك السلام
يا سلام.

ومنها:

أوحشتنا ياجننار
ياجميل ياراخى العذار
وسيفك ف مصر داير
ع الغز والعربان
يا سلام..

ومنها:

أوحشتنا ياجمهور
ياجميل ياراخى الشعور
من يوم جيت مصر فيها نور
زى قنديل بللور
يا سلام.

الإقامة عنده ليلا ونهاراً من عساكرهم، لأنه شعارهم وإشارة إلى قيام دولتهم فى زعمهم.

وفى ثانى ليلة: منه ركب كبيرهم إلى بر الجيزة وسفّر عساكر إلى الجهة التى بها مراد بك، وكذلك إلى جهة الشرقية، ومعهم مدافع على عجل، وفيه أرسل دبوى قايمقام إلى الست نفيسة، وطلب منها إحضار زوجة عثمان بك الطنبرجى، فأرسلت إلى المشايخ تستغيث بهم، فحضر إليها الشيخ محمد المهدى والشيخ موسى السرسى، وقصدوا منعها، فلم يمكنهم، فذهبوا صحبتها، ونظروا فى قصتها.

والسبب فى طلبها أنهم وجدوا رجلا فراشًا معه جانب دُخَان، وبعض ثياب، فقبضوا عليه وقرروه فأخبر أنه تابعها، وأنها أعطته ذلك، ووعدته بالرجوع إليها لتسلمه شبكى دخان وفروة وخمسماية محبوب ليوصل ذلك إلى سيده، فهذا هو السبب فى طلبها؛ فقالوا: وأين الفراش؟ فبعثوا لإحضاره، وسألوها فأنكرت ذلك بالمرة، فانتظروا حضور الفراش إلى بعد الغروب فلم يحضر، فقال لهم المشايخ دعوها تذهب إلى بيتها، وفى غد تأتى ونحقق هذه القضية. فقال دبوى: «نونو»، ومعناه بلغتهم النفى، أى لا تذهب، فقالوا له دعها تذهب هى ونحن نبيت عوضًا عنها، فلم يرض أيضًا، وعالجوا فى ذلك بقدر طاقتهم، فلما أيسوا تركوها ومضوا، فباتت عندهم فى ناحية من البيت وصحبتها جماعة من النسا المسلمات والنسا الإفرنجيات.

ومنها:
ما أحسنك يافرط الرمان
لما تنادى بالامان
وف يدك ماسك الفرمان
تبقى الرعية قلبها فرحان ياسلام.

ومنها:
اوحشتنا ياسارى عسكر
تشرب القهوة بالسكر
وعسكرك داير يسكر
وف البلد حبوا النسوان
ياسلام

ومنها:
محبوبى لابس برنيطه
ودكته عقد وشنيطه
طلبت وصاله قاللى سبيطه*
ما أحلى كلامه بالطليانى
ياسلام من عيونه
عيون الغزلان
واصلنى يا حلو الكلام
ياسلام

ومنها:
ياعاذلى خلينى
حب الجمال كاوينى
ع الجمر لو يسلينى
بالروح أنا ما أسلاه
يا تمرتمرتين
ياكويستو يابونو

وقد علق سلفستردى ساسى على السطر الأخير بان ذكره هكذا:
Ya Koueys Sitoya Bono
حيث Sitaya تحريف لكلمة Citoyen بمعنى (مواطن) وأن Bono تحريف لأسم بونابرت.
انظر: وصف مصر جـ ٨ ترجمة: زهير الشايب من ص ١٣٣ إلى ص١٤٧.

* سبيطه: محرفة عن الإيطالية Aspetta بمعنى انتظر.

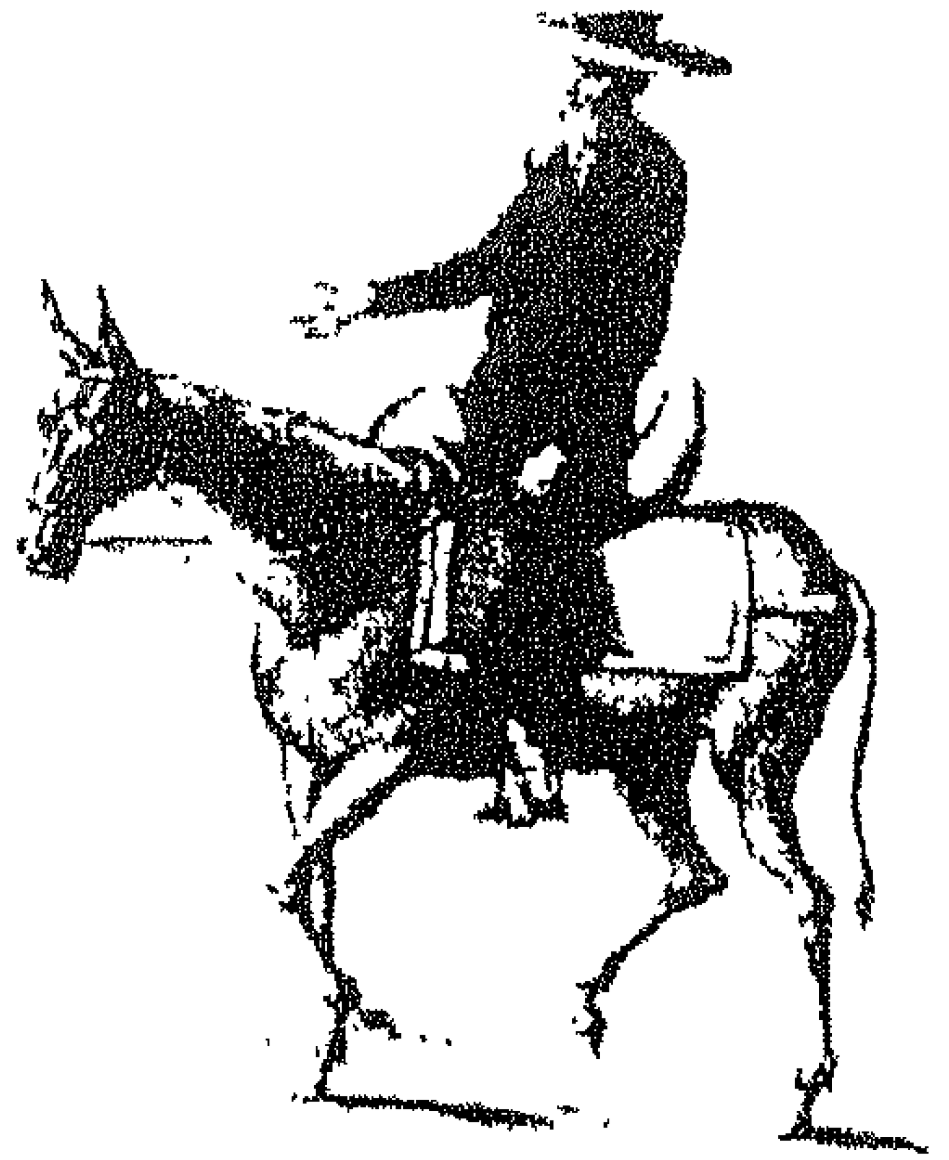
فلما أصبح النهار ركب المشايخ إلى كتخدا الباشا والقاضى، فركبا معا وذهبا إلى بيت صارى عسكر الكبير، فأحضرها وسلمها إلى القاضى، ولم يثبت عليها شى من هذه الدعوة، وقرروا عليها ثلاثة آلاف ريال فرنسه، وذهبت إلى بيت لها مجاور لبيت القاضى، وأقامت فيه لتكون فى حمايته.

وفى يوم الخميس: نادوا فى الأسواق بأن كل مَن كان عنده بغلة يذهب بها إلى بيت قايمقام ببركة* الفيل ويأخذ ثمنها، وإذا لم يحضرها بنفسه تؤخذ منه قهراً، ويدفع ثلثماية ريال فرانسه، وإن أحضرها باختياره يأخذ فى ثمنها خمسين ريالا، قلت قيمتها أو كثرت، فغنم صاحب الخسيس، وخسر صاحب النفيس. ثم ترك ذلك.

* بركة الفيل. يذكرها المقريزى بقوله هذه البركة فيها بين مصر عتيقه والقاهرة وهى كبيرة جداً، ولم يكن فى القديم عليها بنيان، ولما وضع جوهر مدينة القاهرة كانت تجاهها. وعمرت حتى صارت مساكنها أصل مساكن مصر كلها ـ وماء النيل يدخل إليها من الموضع الذى يعرف بالجسر الأعظم تجاه الكبش.

وفيه نادوا بوقود قناديل سهارى بالطرق والأسواق، وأن يكون على كل دار قنديل، وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل، وأن يلازموا الكنس والرش، وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات.

وفيه: نادوا على الأغراب من المغاربة وغيرهم والخدامين البطالين ليسافروا إلى بلادهم، وكل من وجد بعد ثلاثة أيام يستاهل الذى يجرى عليه، وكرروا المناداة بذلك، وأجلوها بعدها أربعة وعشرين ساعة. فذهبت جماعة من المغاربة إلى صارى عسكر، وقالوا له: أرنا طريقاً للذهاب، فإن طريق البر غير مسلوكة، والإنكليز واقفون بطريق البحر، يمنعون المسافرين، ولا نقدر على المقام فى الإسكندرية من الغلا وعدم الماء بها فتركهم.





وفيه: جعلوا إبراهيم أغات المتفرقة المعمار قبطان السويس، وسافر معه أنفار ببيرق فرنساوى، فخرج عليهم العربان فى الطريق فنهبوهم وقتلوا إبراهيم أغا المذكور، ومن بصحبته، ولم يسلم منهم إلا القليل، وفيه أهمل أمر الديوان الذى يحضره المشايخ ببيت قايد أغا، فاستمروا أياماً يذهبون، فلم يأتهم أحد، فتركوا الذهاب فلم يطلبوا.

وفيه: شرعوا فى ترتيب ديوان آخر وسموه محكمة القضايا*، وكتبوا فى شأن ذلك طومار [مرسوم]، وشرطوا فيه شروطا، ورتبوا فيه ستة أنفار من النصارى القبط، وستة أنفار من تجار المسلمين، وجعلوا قاضيه الكبير ملطى القبطى الذى كان كاتباً عند أيوب بك الدفتردار(*)، وفوضوا إليهم القضايا فى أمور التجار والعامة والمواريث والدعاوى، وجعلوا لذلك الديوان قواعد وأركانا من البدع السيئة، وكتبوا نسخاً من ذلك كثيرة، أرسلوا منها إلى الأعيان، ولصقوا منها نسخًا فى مفارق الطرق وروس العطف وأبواب المساجد، وشرطوا فى ضمنه شروطاً.

وفى ضمن تلك الشروط شروطاً أخرى بتعبيرات سخيفة يفهم منها المراد بعد التأمل الكثير لعدم معرفتهم بقوانين التراكيب العربية، ومحصلة التحيل على أخذ الأموال، كقولهم بأن أصحاب الأملاك يأتون بحججهم وتمسكاتهم الشاهدة لهم بالتمليك، فإذا أحضروها وبينوا وجه تملكهم لها إما بالبيع أو الانتقال لهم بالإرث لا يكتفى بذلك، بل يومر بالكشف عليها فى السجلات، ويدفع على ذلك الكشف دراهم بقدر عينوه فى ذلك الطومار، فإن وجد

* انشاء محكمة القضايا.

* الدفتردار: كان فى بداية العصر العثمانى شخصية عثمانية يعين لرياسة الإدارة المالية فى مصر من بين رجال الخزينة القضائية المركزية، ولقب الدفتردار فى الوثايق دفتردار أفندى، أو دفتردار خزينة عامرة، وكان يتولى مناصب إدارية هامة إضافة لمنصبه فى رياسة الإدارة المالية فى مصر مثل قايمقام الباشا فى بعض الأحيان وبازدياد سيطرة البكوات المماليك على الإدارة فى مصر تمكنوا من شغل منصب الدفتردار. وكان يعين بمرسوم سلطانى وله مرتب ثابت [سااليانه] نقدية يصرف له من الخزينة ومقداره ٨٩٢٠٠ بارة سنويا.

تمسكه مقيداً بالسجل طلب منه بعد ذلك الثبوت، ويدفع على ذلك الإشهاد بعد ثبوته وقبوله قدراً آخر، ويأخذ بذلك تصحيحًا ويكتب له بعد ذلك تمكين، وينظر بعد ذلك في قيمته، ويدفع على كل ماية اثنين، فإن لم يكن له حجة، أو كانت ولم تكن مقيدة بالسجل، أو مقيدة ولم يثبت ذلك التقييد، فإنها تضبط لديوان الجمهور، وتصير من حقوقهم، وهذا شي متعذر، وذلك أن الناس إنما وضعوا أيديهم على أملاكهم إما بالشرا أو بأيلولتها لهم من مورثهم، أو نحو ذلك بحجة قريبة أو بعيدة العهد، أو بحجج أسلافهم، ومورثيهم، فإذا طولبوا بإثبات مضمونها تعسر، أو تعذر لحادث الموت أو الأسفار، أو ربما حضرت الشهود فلم تقبل، فإن قبلت فعل به ما ذكره.

ومن جملة الشروط مقررات على المواريث والموتى ومقاديرها متنوعة في القلة والكثرة، كقولهم: إذا مات الميت يشاورون عليه، ويدفعون معلوما لذلك، ويفتحون تركته بعد أربع وعشرين ساعة، فإذا بقيت أكثر من ذلك ضبطت للديوان أيضاً، ولاحق فيها للورثة، وإن فتحت على الرسم بإذن الديوان يدفع على ذلك الإذن مقرراً، وكذلك على ثبوت الورثة، ثم عليهم بعد قبض ما يخصهم مقرر، وكذلك من يدعى دينا على الميت يثبته بديوان الحشريات، ويدفع على إثباته مقرراً*، ويأخذ له ورقة يستلم بها دينه، فإذا استلمه دفع مقرراً أيضاً.

ومثل ذلك في الرزق والأطيان بشروط وأنواع وكيفية أخرى غير ذلك، والهبات والمبايعات والدعاوى والمنازعات

* قرر بونابرت نشر مرسوم بإنشاء رسوم التسجيل جاء فيه:
بونابرت القائد العام يأمر.
بند رقم ١ ـ ينشأ في كل عاصمة من اقاليم القطر مكتب للتسجيل حيث تسجل التواريخ رسميا لجميع سندات

والمشاجرات والإشهادات الجزئيات والكليات، والمسافر كذلك لا يسافر إلا بورقة ويدفع عليها قدرا، وكذلك المولود إذ ولد يقال له إثبات الحياة، وكذلك المؤجرات وقبض أجر الأملاك وغير ذلك.

وفيه: نادى أصحاب الدرك على العامة بترك الفضول والكلام فى أمور الدولة، فإذا مر عليهم جماعة من العسكر مجروحون أو منهزمون لا يسخرون بهم، ولا يصفقون عليهم كما هى عادتهم.

وفيه: نهبوا أمتعة عسكر القلينجية الذين كانوا عسكرا عند الأمرا، فأخذوا مكانا بوكالة على بك بساحل بولاق وبالجمالية، وأخذوا متاعهم ومتاع شركاهم محتجين بأنهم قاتلوا مع المماليك، وهربوا معهم.

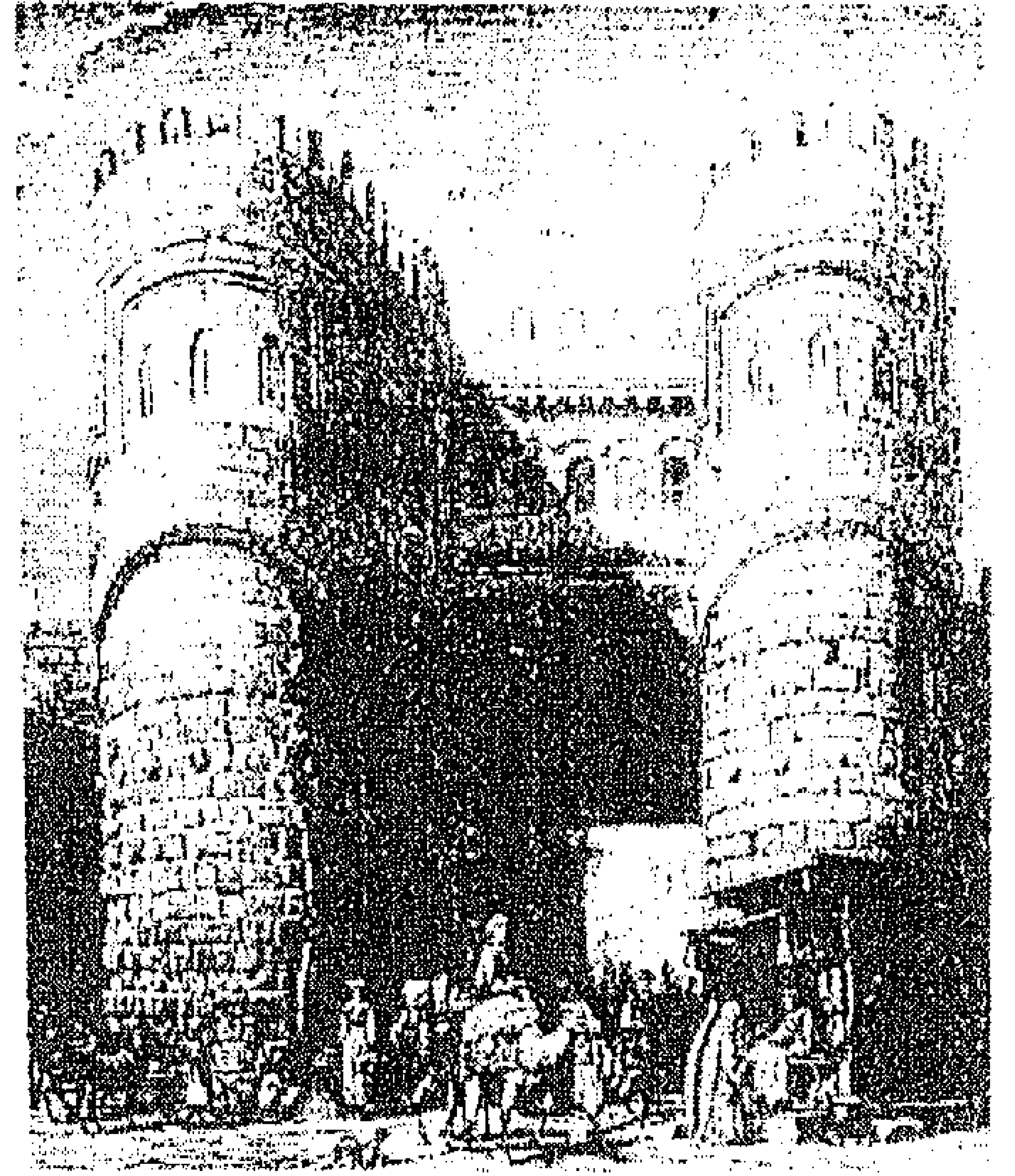
وفيه: أحضروا محمد كتخدا أبا سيف الذى كان سودارا بدمياط من طرف الأمرا المصريين، وكان سابقا كتخدا حسن بك الجداوى، فلما حضر حبسوه فى القلعة، وحبسوا معه فراشا لإبراهيم بك.

وفيه: أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم، والنزول إلى المدينة ليسكنوا بها، فنزلوا وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة، وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار، وهدموا أبنية عالية، وأعلوا مواضع منخفضة، وبنوا على بدنات باب العزب بالرميلة(*) وغيروا معالمها، وأبدلوا محاسنها، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين وآثار الحكما والعظما، وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط والحوادث والحرب

الملكية والعقود التى يحتمل ابرازها أمام المحاكم.
بند رقم ٢ ـ لكل تسجيل يدفع رسم مناسب لأهمية العقد طبقا للتعريفة المرفق منها قائمة بهذا القرار.
بند رقم ٣ ـ لن يعترف بالممتلكات الخاصة إلا إذا كان سند ملكيتها مسجلا وكل الممتلكات الأخرى سوف يطلق عليها (ممتلكات أهلية).
بند رقم ٤ ـ على كل مالك لممتلكات ثابتة أو منقولة ايا كانت أن يسجل سند ملكيته لها فى بحر شهر ابتداء من تاريخ هذا القرار ويكون ذلك لجميع اقاليم القطر.
بند رقم ٥ ـ إذا لم تسجل سندات الملكية فى الموعد المحدد سيدفع الملاك رسوما مضاعفة بعد انتهاء الموعد وتصبح الأملاك غير المسجلة ملكا للجمهورية.
بند رقم ٦ ـ ابتداء من اليوم جميع عقود البيع ونقل الملكية والمبادلات والهبات الإدارية الموقع عليها عرضيا أو امام موثق يجب تسجيلها فى بحر عشرة ايام ابتداء من تاريخ التوقيع وإلا اعتبرت باطلة.
بند رقم ٧ ـ لا تثبت تواريخ العقود إلا بالتسجيل وكل عقد لم يسجل فى ظرف عشرة ايام من تاريخ التوقيع سيدفع عليه رسوم تسجيل مضاعفة ولن يكتسب قوة قانونية الا ابتداء من تاريخ تسجيله.

* الرميلة: يطلق عليها أسماء أخرى مثل قراميدان. وهى توجد أمام باب العزب ويوجد بها جامع المحمودية والسلطان حسن والرفاعى. والرميلة هى ميدان القلعة فى الوقت الحاضر.

الهندية وأكر الفداوية، وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة،



* باب الفتوح .

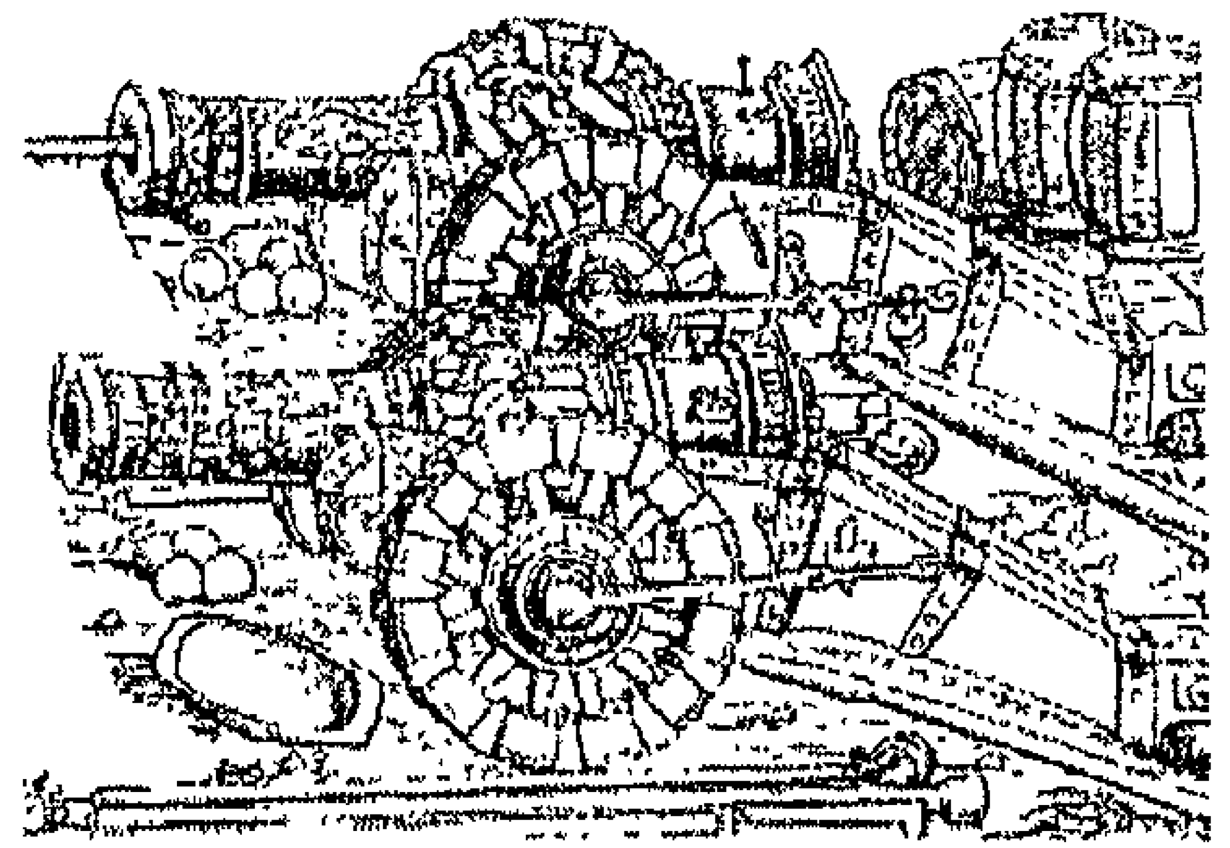
وفيه: عينت عساكر إلى مراد بك، وذهبوا إليه ببحر يوسف جهة الفيوم.

وفي يوم الخميس سادس عشره: نودى بأن كل من تشاجر مع نصرانى أو يهودى، أو تشاجر معه نصرانى أو يهودى يشهد أحد الخصمين على الآخر، ويطلبه لبيت صارى عسكر.

وفيه: قتلوا شخصين وطافوا بروسهما، وهم ينادون عليهما: ويقولون: هذا جزاء من يأتى بمكاتيب من عند المماليك، أو يذهب إليهم بمكاتيب.

وفيه. نّبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبة* من المساكن كتربة الأزبكية والرويعى، ولا يدفنون الموتى إلا فى القرافات البعيدة، والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته فى ترب المماليك، وإذا دفنوا يبالغون فى تسفيل الحفر، ونادوا أيضا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة عدة أيام، وتبخير البيوت بالبخورات المذهبة للعفونة ـ كل ذلك للخوف من حصول الطاعون وعدواه، ويقولون: إن العفونة تنحبس بأغوار الأرض، فإذا دخل الشتا وبردت الأغوار بسريان النيل والأمطار والرطوبات ـ خرج ما كان منحبسًا بالأرض من الأبخرة الفاسدة فتعفن الهوا فيحصل الوبا والطاعون.

* اتخاذ اجراءات صحية خوفا من الطاعون



* مدافع حصار متنقلة.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

ومن قولهم أيضا: إن مرض مريض لابد من الإخبار عنه فيرسلون من جهتهم حكيما للكشف عليه إن كان مرضه بالطاعون أو بغيره، ثم يرون رأيهم فيه.

وفي يوم السبت ثامن عشره: ذهبت جماعة من القوّاسة الذين يخدمون الفرنساوية، وشرعوا فى هدم التراكيب المبنية على المقابر بتربة الأزبكية وتمهيدها بالأرض، فشاع الخبر بذلك، وتسامع أصحاب الترب بتلك البقعة، فخرجوا من كل حدب ينسلون، وأكثرهم النسا* الساكنات بحارة المدابغ وباب اللوق وكوم الشيخ سلامة والفوالة والمناصرة وقنطرة الأمير حسين وقلعة الكلاب ـ إلى أن صاروا كالجراد المنتشر، ولهم صياح وضجيج، واجتمعوا بالأزبكية، ووقفوا تحت بيت صارى عسكر. فنزل لهم المترجمون، واعتذروا بأن صارى عسكر لا علم له بذلك الهدم، ولم يأمر به، وإنما أمر بمنع الدفن فقط، فرجعوا إلى أماكنهم، ورفع الهدم عنهم.

* مظاهرة نسائية ضد هدم مقابر الأزبكية.

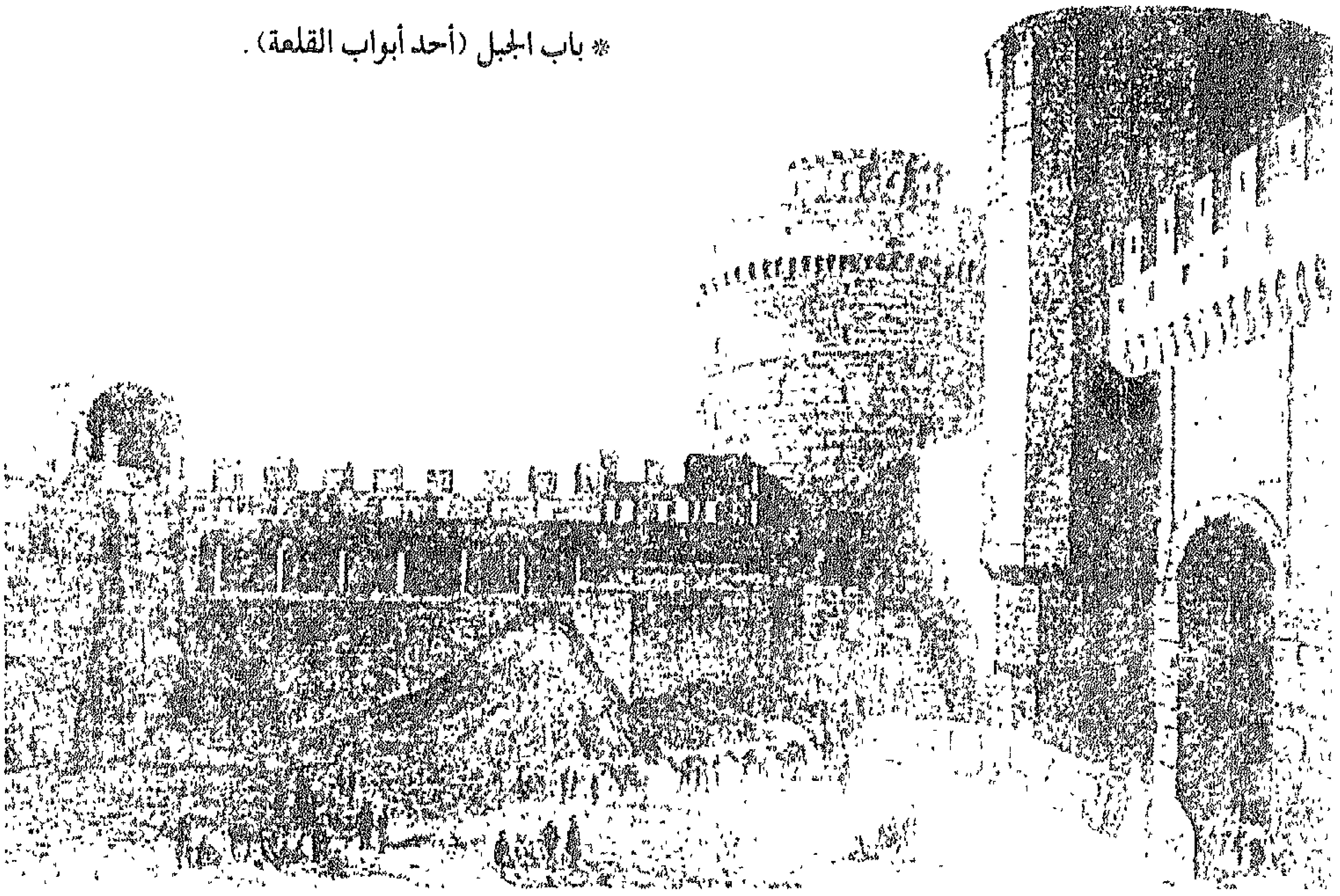
وفيه: كتبوا من المشايخ كتابا ليرسلوه إلى السلطان، وآخر إلى شريف* مكة، ثم إنهم بصموا منه عدة نسخ، ولصقوها بالطرق والمفارق، وصورته ملخصا:

بعد الصدور [المقدمة] وذكر ورودهم [الفرنسيس] وقتالهم مع المماليك وهروبهم، وأن جماعة من العلما ذهبت إليه بالبر الغربى فأمنوهم، وكذلك الرعية دون المماليك، وذكروا فيه أنهم من أخصا السلطان العثمانى وأعدا أعدايه، وأن السكة والخطبة باسمه، وشعاير الإسلام مقامة على ما هى عليه وباقية بمعنى الكلام السابق من قولهم: إنهم مسلمون، وأنهم محترمون القرآن والنبى، وأنهم أوصلوا

* خطاب موجه إلى شريف مكة من مشايخ وأعيان القاهرة:

بعد تضرعاتنا الحارة إلى الله التى تلهج بها ألسنتنا دايما أبدا ليحفظ مولانا أمير المؤمنين والتاج الملكى للذرية الهاشمية وسليل النبى الشريف غالب سلطان مكة حفظه الله ليرمقه برعايته إلى أعلى مراتب المجد ويجنبه أى سوء تأتى به الأيام فى تعاقب الليل والنهار لما أكتسبه من بركات جده المجيد وهو أقدرالشافعين.

نتشرف بإبلاغ مولانا الذى لا يكف أبدا بعبقريته عن رعاية مصالح الدين



* باب الجبل (أحد أبواب القلعة).

والمؤمنين والسادة آل عبد المناف أحد مشاهير أجداد أوليائنا الشرفاء وعلماء الإسلام فى مكة والقضاة والأئمة الخطباء وعموم تجار وموظفى الحكومة فى المدينة المقدسة أن اليوم السابع من شهر صفر الذى كان يوافق يوم السبت أقبل الجيش الفرنسى على أراضى الجيزة على ضفاف النيل الغربية وشن فى نفس اليوم هجوما على المماليك. استمرت المعركة فيه حوالى ساعتين وكانت عاقبتها وخيمة على المماليك الذين اضطروا إلى الفرار مع غروب الشمس تاركين عددا كبيرا من جنودهم فى ساحة القتال. وفى صباح اليوم التالى توجه وفد من علماء الشريعة وأعيان القاهرة إلى الجيزة طالبين الحماية والرعاية للمصريين ما عدا المماليك وأتباعهم واستجاب القائد العام إلى طلبهم هذا. ثم طلب الحجاج المتشتتين وأكرموهم ،وأركبوا الماشى، وأطعموا الجيعان، وسقوا العطشان، واعتنوا بيوم الزينة يوم جبر البحر، وعملوا له شنكا ورونقا استجلاب السرور للمومنين، وأنفقوا أموالا برسم الصدقة على الفقرا، وكذلك اعتنوا بالمولد النبوى، وأنفقوا أموالا فى شأن انتظامه، واتفق رأينا ورأيهم على لبس حضرة الجناب المحترم مصطفى أغا كتخدا بكر باشا والى مصر حالا، فاستحسنا ذلك لبقاء عُلْقَه الدولة العلية، وهم أيضا مجتهدون فى إتمام مهمات الحرمين، وأمرونا أن نعملكم بذلك والسلام.

وفيه: وقعت حادثة جزئية من جملة الجزئيات. وهو أن رجلا صيرفياً بجوار حارة الجوانية ـ وقع من لفظه أنه قال: السيد أحمد البدوى بالشرق، والسيد إبراهيم الدسوقى

بالغرب يقتلان كل من يمر عليهما من النصارى، وكان هذا الكلام بمحضر من النصارى الشوام، فجاوبه بعضهم وأسمعه قبيح القول، ووقع بينهما التشاجر، فقام النصراني، وذهب إلى دبوى، وأخبره بالقصة، فأرسل وقبض على ذلك الصيرفي وحبسه وسمر حانوته، وختم على داره، وتشفع فيه المشايخ عدة مرار، فأطلقوه بعد يومين، وأرسلوه إلى بيت الشيخ البكرى ليؤدب هناك بالضرب، أو يدفع خمسماية ريال فرانسة، فضرب ماية سوط، وأطلق إلى سبيله، وكذلك أفرجوا عن بقية المسجونين.

وفى يوم الاثنين: طاف أصحاب الدرك على الأخطاط والوكايل. فكتبوا أسماها، وأسما البوابين، وأمروهم أن لا يسكنوا أحداً من الأغراب، ولا يطلقوا أحداً يسافر بلا إذن من أغات مستحفظان.

الوفد أن تلقى كالمعتاد خطبة الجمعة التى تعود الأئمة الخطباء إلقاءها فى المساجد يوم الجمعة عند صلاة الظهر متضمنة الدعاء لصاحب العظمة السلطانية، فوافق القائد العام على أن تلقى هذه الخطب كما كانت وأضاف أنه من أخلص أصدقاء السلطان العثمانى وأنه يحب جميع الموالين له ويعتبر أعداء السلطان أعداء له شخصيا.

وأمر فى الحال أن تفتح أبواب الجوامع للمصلين لأداء الشعائر الدينية والآذان وتلاوة القرآن بكل حرية فى مدينة القاهرة كالمعتاد.

وتكرم أيضا بإبلاغ الوفد أنه يسلم فى قرارة نفسه بأن الحقيقة التى لا زاغ فيها هى أن الله هو الله وحده وأن معظم الفرنسيين يكنون لنبينا والقرآن اعظم تبجيل وأكثرهم مقتنعون بسيادة الإسلام على جميع الأديان الأخرى ودلل القائد على قوله هذا بإطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين الذين وجدهم فى جزيرة مالطة بعد الاستيلاء عليها وهدم الكنائس المسيحية والصلبان فى جميع البلاد التى استولى عليها وخاصة فى مدينة البندقية، حيث أحبط كل المكايد التى كان يتعرض لها المسلمون وخلع بابا المسيحيين فى روما، الذى كان يحل قتل المؤمنين، هذا العدو الأزلى للإسلام الذى كان يدخل فى روع المسيحيين أن الله يكافىء على إهدار دماء المؤمنين الحقيقيين. أن هذا العدو لم يعد له وجود وقد استراح منه المسلمون برعاية الله العلى القدير.

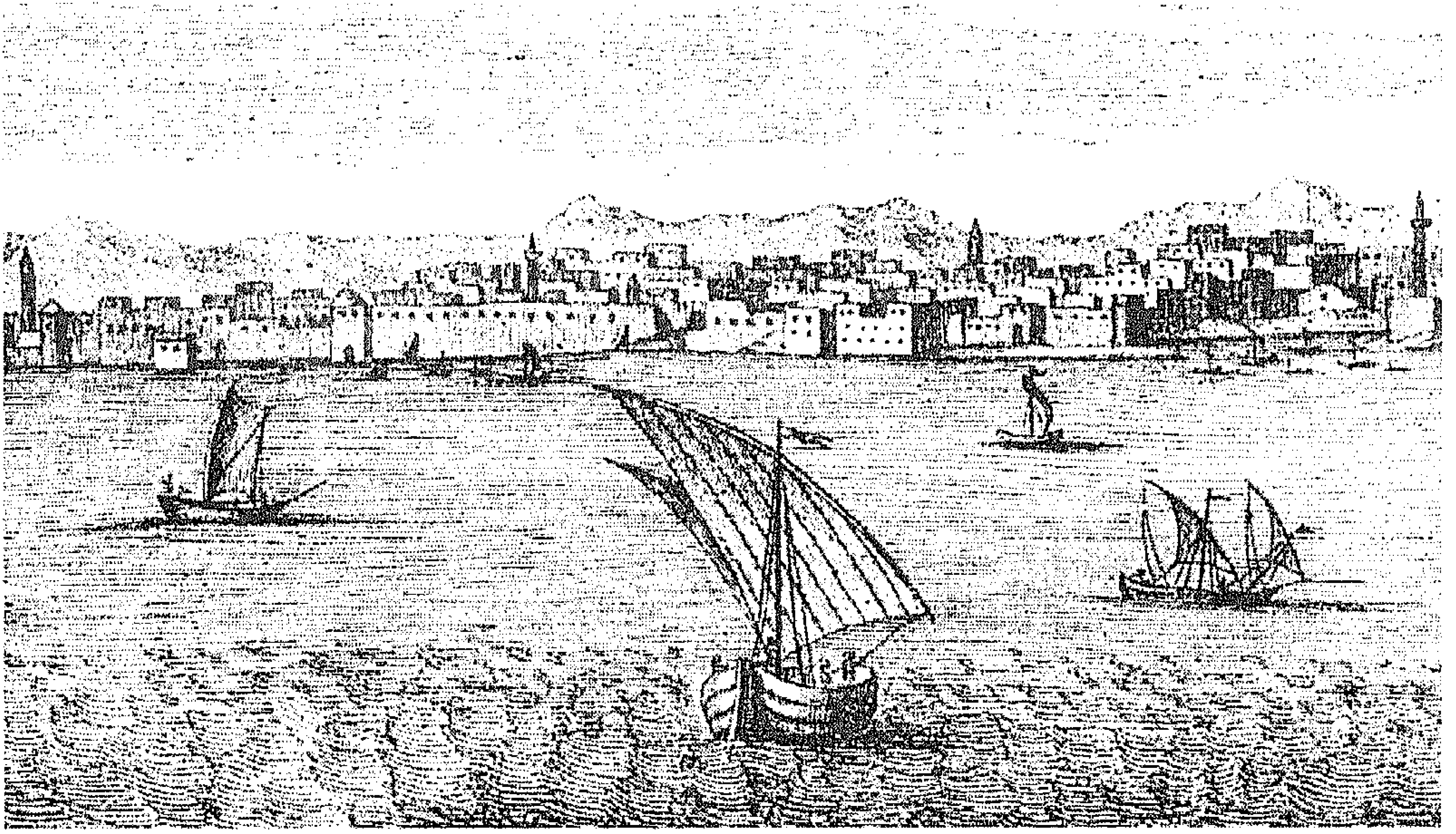
وعندما عاد الحجاج من مكة واقتربوا من القاهرة ذهب القائد العام بنفسه لملاقاتهم فى مديرية الشرقية بعد سماع الأخبار بأن بعض الأعراب اللصوص والمجرمين قد سلبوهم متاعهم وخيراتهم. فاستقبلهم الجنود الفرنسيون وزودوا من بقى منهم على قيد الحياة بالخيول والطعام والزاد وأسعفوا الجياع والعطاشى.

وكان القائد العام قبل ذهابه إلى الشرقية قد كتب إلى قافلة الحجاج يطلب منها العودة رأسا إلى القاهرة حيث تجد أحسن استقبال ولكن للأسف هذه الخطابات لم تصل إلى رجال القافلة الذين لاقوامصيرهم المحتوم.

كما افتتحت قناة [خليج] مدينة القاهرة هذا العام باحتفالات غير عادية ارضاء للمؤمنين دون شك. وتبديدا لمخاوفهم وهمومهم أجرى القائد توزيع مبالغ كبيرة من المال على سبيل الصدقة على الفقراء والمعوزين وأقام وليمة تكريما لأعيان البلد. كذلك أنفق القائد أموالا كثيرة احتفاء بمولد النبى سيد المرسلين وأقيمت احتفالات شيقة بهرت أنظار المؤمنين.

إنا لله وإنا إليه راجعون

ـ كما يجب ألا يخفى عليكم أن القائد أبدى رغبة صادقة فى تعيين أمير



* لوحة ميناء جدة.

الحج واتخاذ جميع الإجراءات التى تسبق رحيل قافلة الحجاج. وكان من رأينا معه أن يسند شرف هذه المأمورية إلى السيد المحترم الأمير مصطفى آغا وهو من رجال صاحب السعادة أبو بكر باشا حاكم القاهرة، ونحن نرجو أن يلقى هذا الاختيار وقعا حسنا من الباب العالى تأكيدا لحق من أعز الحقوق على قلبه. لذلك فقد أضفى هذا الإجراء البهجة والسرور وأدخل الطمأنينة على قلوب جميع المسلمين. يبدى قائد الجيش الفرنسى نشاطا كبيرا واخلاصا عظيما لمصالح الحرمين ويتفقد كل ما يلزم عمله بشأن رحلة قافلة الحجاج.

هذا هو ما أوصانا به لتكونوا على علم، باعتبارنا شهود عيان بالعناية الفائقة التى يخص بها هذا الأمر المهم لكى تعملوا ما ترونه مناسبا من جانبكم.

والسلام وألف سلام على هذا الرسول المجيد الذى أتى يعلن الحقيقة على العالمين وقد وهب الله كل الفضائل والشمائل. سلام الله أيضا على أهله وصحبه فى رسالته السماوية.

عمل فى القاهرة فى ٢٠ من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هـ وقد ذيل بامضاءات عديدة جداً.

(كوريه دى ليجيبت العدد ٦ ـ ص ١٥، ١٦).

وقد نشر لاكروا خطابا كتبه بونابرت فى ذلك الوقت ليبعث به إلى الشريف غالب بن مسعود أمير مكة ولم يرد لهذا الخطاب ذكر فى الكتب العربية، ولذلك رأينا أن نأتى على نصه:

إلى الشريف غالب بن مسعود

«فى الوقت الذى انبأوك فيه بدخول الجيش الفرنسي إلى مصر، أرى من الواجب علىَّ أن أوكد لك بان نيتى ترمى إلى تأمين طريق الحج إلى مكة بكل الوسائل الممكنة وستبقى الأوقاف والاملاك التى للحرمين الشريفين فى مصر كما كانت فى الماضى لا ينازعهما فيها منازع.

أننا أصدقاء لنبى المسلمين ولدينهم وسنعمل كلما نستطيعه لارضائكم وللتودد إلى الدين الإسلامى.

أريد منك أن تعلن الناس فى كل مكان أن قوافل الحج لا تلقى فى طريقها مقاومة بل ستكون محمية بطريقة تجعلها فى مأمن من اعتداء البدو عليها

(بونابرت)



* بونابرت يتصدر ديوان القاهرة.

وفيه يوم الثلاثا: عمل المولد الحسيني، وكان من العزم تركه في هذا العام، فدس بعض المنافقين دسيسة عند الفرنسيس، وذلك أنه وقعت المذاكرة بأن من المعتاد أن يعمل المولد الحسيني بعد مولد النبي، فقال بونابارته: ولم لم يعملوه؟ فقال ذلك المنافق: غرض الشيخ السادات عدم عمله إلا إذا حضر المسلمون، فبلغ شيخ السادات ذلك، فشرع في عمله على سبيل الاختصار، وحضر صارى عسكر، وشاهد الوقدة، ورجع إلى داره بعد العشا.

وفيه: حضرعلما الإسكندرية وأعيانها، وكذلك رشيد ودمياط، وبقية البنادر باستدعا صارى عسكر ليحضروا الديوان الشارعين فيه لترتيب النظام الذى سبقت الإشارة إليه.

* وفيما يلي نص خطابين متبادلين بين بونابرت والشريف غالب بن مسعود

من القائد العام إلي شريف مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

أعرفك بوصولي إلى القاهرة علي رأس الجيش الفرنسي. سترون من واقع الخطابات التي يحررها لكم الديوان، وأشهر تجار القاهرة إني عينت الأمير حاج مصطفى بك كخيا أبو بكر باشا حاكما لمصر. سوف يصحب القافلة [المحمل] ومعه القوات اللازمة لتأمين سلامتها من هجمات الأعراب عليها.

أخبروا جميع التجار المؤمنين أنه ليس للمسلمين أصدقاء أوفى منا، وليعلم أيضا جميع الشرفاء، وكل من يقضون أوقاتهم لا يدخرون وسعا في تعليم الشعب والعمل علي نشر تعاليم القرآن، أنه ليس لهم حماة أكثر منا اخلاصا.

طمئنوا جميع التجار بأن التجارة ليست فقط في مأمن ممن يحاولون النيل منها بل سنحميها أيضا.

سأحافظ دائما على مصالح الكعبة الشريفة التي اعتبر حمايتي لها شرفا ومجدا لي.

وتفضلوا بقبول احترامي وعظيم تقديري لكم.

الرد

ليصل هذا الخطاب إلى الأمير بونابرت صديق الكعبة الشريفة في القاهرة بأذن الله تعالى، سدد المولى جميع خطاه.

باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

يلي ذلك ختم الشريف ويقرأ فيه: غالب مسعود سنة ١٢٠٢ هجرية (وقت توليه الحكم).

من الشريف غالب بن مسعود، أمير مكة، إلى الأمير بونابرت حامي العلماء وصديق الكعبة الشريفة.

وفيه: سافر أيضا جماعة من الفرنسيس إلى جهة مراد بك ومن معه، التقوا معهم وتراموا ساعة، ثم انهزموا عنهم، وفى أنفسهم، فتتبعوهم إلى أسفل جبل اللاهون، ثم خرجوا عليهم على مثل حالهم رجالا، وتراموا معهم، وأكمنوا لهم وثبتوا معهم، وظهر عليهم المصريون، وقتل من الفرنساوية مقتلة كبيرة.

وفيه: سقطت البوابة المصنوعة ببركة الأزبكية المقابلة لباب الهوا التى كانوا وضعوها فى يوم عيدهم، وقد تقدم شرحها ووصفها. وسبب سقوطها أنهم لما منعوا الما من دخوله للبركة، وسدوا القنطرة كما تقدم، علا الماء فى أرض البركة، وتخلخلت الأرض فسقطت تلك البوابة.

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه: نبهوا على المشايخ والأعيان والتجار ومن حضر من الأقطار بالحضور إلى الديوان العام ومحكمة النظام بكرة تاريخه، وذلك ببيت مرزوق بك بحارة عابدين، فلما أصبح يوم السبت أعادوا التنبيه بحضورهم بالديوان القديم ببيت قايد أغا بالأزبكية، فتوجه المشايخ المصرية والذين حضروا من الثغور والبلاد، وحضر الوجاقات وأعيان التجار ونصارى القبط والشوام، ومدبرو الديوان من الفرنسيس وغيرهم جمعا موفوراً.

فلما استقر بهم الجلوس شرع ملطى القبطى الذى عملوه قاضى فى قراة فرمان الشروط، وفى المناقشة فابتدر كبير المدبرين فى إخراج طومار * آخر، وناوله للترجمان، فنشره وقراه، وملخصه ومضمونه:

الإخبار بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد، وكان يجلب إليه المتاجر من البلاد البعيدة، وأن

بعد التحية أفيدكم بأننى تسلمت خطابكم الودى وعلمت بما جاء فيه.
علمت منه أيضا أنكم اسنداتم إلى كخيا باشا القاهرة شرف قيادة قافلة الحجاج المسلمين ولا يسعنى إلا أن ارحب بهذا التصرف.
تخبروننى أنكم مصممون على تشجيع الحجاج المسلمين على زيارة بيت الله وأنهم يطلبون منا الطمأنينة والحماية. لا شك أنهم يلقون هناك الحماية التامة ولن يتعرض لهم أحد فى زياراتهم الهادئة للكعب الشريفة وضريح النبى، ولم يأمر الله بإقامة بيته المقدس الا لجعله مكانا لالتقاء المسلمين. وعلى ذلك فكل مسلم يمكنه الحضور لتأدية فريضة الحج دون أدنى خوف أو تردد.
أما فيما يختص بما ذكرتموه عن تشجيع تجارة البن فاعلموا أن تجار الحجاز ما زالوا يخشون من مشاكسات المماليك لهم. وإذا رغبتم فى تنمية هذه التجارة ينبغى عليكم أن تتخذوا بعض تدابير من شأنها إدخال الطمأنينة إلى قلوبهم، ومصارحتهم بالرسوم التى ستطلبونها منهم على كميات البن أو غير ذلك من السلع التى سيتجرون بها. فإذا كان لكم ذلك فسوف ترونهم يهرعون إليكم جموعا وفرادى، وإلا فسيمنعهم خوفهم من المشاغبات والمشاكسات عن الحضور إلى مصر.
أما ما تتحدثون عنه بشأن معاملة العرب السيئة للحجاج فانى أفيدكم أنه لن يحدث ذلك بكل تأكيد بإذن الله وبفضل حمايتكم القوية.
والسلام على من اتبع الهدى.
انظر: كورييه د ى ليجيبت العدد ٢٤.
* بونابرت يصدر طومارا يذكر فيه امجاد مصر وينوه برفع يد الترك عنها.

العلوم والصنايع والقراءة والكتابة التى يعرفها الناس فى الدنيا أخذت عن أجداد أهل مصر الأول، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم فى تملكه ، فملكه أهل بابل، وملكه اليونان، والعرب، والترك الآن، إلا أن دولة الترك شددت فى خرابه لأنها إذا حصلت الثمرة قطعت عروقها، فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس إلا القدر اليسير، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم.

ثم إن طايفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت أنفسهم لاستخلاص مصر مما هى فيه، وإراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة فقدموا وحصل لهم النصرة، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس، ولم يعاملوا الناس بقسوة، وإن غرضهم تنظيم أمور مصر، وإجراء خلجانها التى دثرت، ويصير لها طريقان: طريق إلى البحر الأسود [المتوسط] ، وطريق إلى البحر الأحمر، فيزداد خصبها وريعها، ومنع القوى من ظلم الضعيف، وغير ذلك. استجلابا لخواطر أهلها، وإبقا للذكر الحسن.

فالمناسب من أهلها ترك الشغب وإخلاص المودة، وإن هذه الطوايف المحضرة من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة لأنهم أهل خبرة وعقل، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها، فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق صنعه إلى آخر ما سطروه من الكلام.

قلت: ولم يعجبنى فى هذا التركيب إلا قوله المفعمة جهلا وغباوة بعد قوله اشتاقت أنفسهم. ومنها قوله بعد ذلك، ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد إلى آخر العبارة.

* حديقة قصر الألفى بك مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م.

ثم قال الترجمان نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصاً منكم يكون كبيراً وريساً عليكم ممتثلين أمره وإشارته. فقال بعض الحاضرين: الشيخ الشرقاوى، فقال: نو، نو، وإنما ذلك يكون بالقرعة، فعملوا قرعة بأوراق، فطلع الأكثر على الشيخ الشرقاوى*.

* تعيين الشيخ الشرقاوى بالقرعة رئيساً للديوان

فقال حينئذ يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الريس، فما تم هذا الأمر حتى زالت الشمس، فأذنوا لهم فى الذهاب، وألزموهم بالحضور فى كل يوم.

وفيه: وقعت كاينة الحاج محمد بن قيمو المغربى التاجر الطرابلسى. وهو أنه كان بينه وبين بعض نصارى الشوام المترجمين منافسة، فأنهى [فأنهوا] إلى عظما الفرنسيس أنه ذو مال، وأنه شريك عبد الله المغربى تابع مراد بك، فأرسلوا بطلبه، فذهب إلى بيت الشيخ عبد الله الشرقاوى لنسابة بينهما، فقال الشيخ للقواسة المرسلين بعد سؤالهم عن سبب طلبهم له، فقالوا لدعوة ليست شرعية، فقال لهم فى غد إحضروا خصمه، ويتداعى معه، فإن توجه الحق عليه ألزمناه بدفعه، فرجعت الرسل، وتغيب الرجل لخوفه.



* الشيخ عبد الله الشرقاوى.

فبعد مضى مقدار نحو ساعة حضر نحو الخمسين عسكرى من الفرنسيس إلى بيت الشيخ وطالبوه به، فأخبرهم أنه هرب، فلم يقبلوا عذره، وألحوه فى طلبه، ووقفوا ببنادقهم،وأرهبوا، فركب المهدى والدواخلى إلى صارى عسكر وأخبروه بالقضية وبهروب الرجل، فقال. ولأى شى يهرب فقالوا من خوفه، فقال: لولا أن جرمه كبير لما هرب، وأنتم غيبتموه وأظهر الحنق والغيظ، فلاطفاه واستعطفا خاطر الترجمان، فكلمه وسكن غيظه، ثم سأل عن منزله

ومخزنه، فأخبراه عنهما، فقال يذهب معكما من يختم عليهما حتى يظهر فى غد، فاطمأنوا لذلك، ورجعوا عند الغروب، وختموا على مخزنه ومنزله، فلما أصبح النهار فلم يظهر الرجل، فأخذوا ما وجدوه فيهما من البضايع والأمانات.

وفي يوم الأحد: ذهبوا إلى الديوان وعملوا مثل عملهم الأول حتى تمموا أسما المنتخبين بديوان مصر من الثغور والمشايخ والوجاقلية والقبط والشوام وتجار المسلمين، وذلك الترتيب غير ترتيب الديوان السابق*.

* هذا هو الديوان الكبير.

وفي يوم الاثنين: اجتمعوا بالديوان ونادى المنادى فى ذلك اليوم بالأسواق على الناس بإحضارهم حجج أملاكهم إلى الديوان، والمهلة ثلاثون يوما، فإن تأخر عن الثلاثين يضاعف المقرر، ومهلة البلاد ستون يوما.

ولما تكامل الجميع شرع ملطى فى قراءة المنشور، وتعداد ما به من الشروط مسطور، وذكر من ذلك أشيا، منها:

أمر المحاكم والقضايا الشرعية وحجج العقارات، وأمر المواريث، وتناقشوا فى ذلك حصة من الزمن وكتبوا هذه الأربعة أشيا: أرباب ديوان الخاصة يدبرون رأيهم فى ذلك، وينظرون المناسب والأحسن، وما فيه الراحة لهم وللرعية، ثم يعرضون ما دبروه يوم الخميس، وما بين ذلك له مهلة، وانفض المجلس.



الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس الموعود سنة ١٢١٣هـ

واجتمعوا بالديوان ومعهم ما خصوه واستأصلوه فى الجملة. فأما أمر المحاكم والقضايا فالأولى إبقاؤها على ترتيبها ونظامها، وعرفوهم عن كيفية ذلك، ومثل ذلك ما عليه أمر محاكم البلاد، فاستحسنوا ذلك إلا أنهم قالوا يحتاج إلى ضبط المحاصيل وتقريرها على أمر لا يتعداه القضا ولا نوابهم، فقرروا ذلك.

وهو أنه إذا كان عشرة آلاف فما دونها يكون على كل ألف ثلاثون نصفا، وإذا كان المبلغ ماية تكون على الألف خمسة عشر، فإن زاد على ذلك فعشرة، واتفقوا على تقرير القضاة ونوابهم على ذلك.

وأما حجج العقارات فإنه أمر شاق طويل الذيل، فالمناسب فيه والأولى أن يجعلوا عليها دراهم من بادى الرأى ليسهل تحصيلها، ويحسن عليها السكوت، ويكون المحصول أعلى وأدنى وأوسط، وبينوا القدر المناسب بتفصيل الأماكن، وكتبوه وأبقوه حتى يرى الآخرون رأيهم فيه، وانفض الديوان.

* احتياطات ضد الطاعون. وظهور الزائرات الصحيات.

وفى ذلك اليوم نودى فى الأسواق بنشر الثياب* والأمتعة خمسة عشر يوما، وقيدوا على مشايخ الأخطاط والحارات والقلقات بالفحص والتفتيش، فعينوا لكل حارة امرأة ورجلين يدخلون البيوت للكشف على ذلك، فتصعد المرأة إلى أعلى الدار وتخبرهم عن صحة نشرهم الثياب، ثم يذهبون بعد التأكد على أهل المنزل والتحذير من ترك

الفعل، وكل ذلك لذهاب العفونة الموجبة للطاعون، وكتبوا بذلك أوراقا لصقوها بحيطان الأسواق على عادتها فى ذلك.

وفيه: حضر إلى بيت البكرى جم غفير من أولاد الكتاتيب والفقها والعميان والمؤذنين وأرباب الوظايف والمستحقين من المزمنى والمرضى بالمارستان المنصورى، وأوقاف عبد الرحمن كتخدا، وشكوا من قطع رواتبهم وخبزهم، لأن الأوقاف تعطل إيرادها، واستولى على نظارتها النصارى القبط والشوام، وجعلوا ذلك مغنما لهم، فواعدهم على حضورهم الديوان، وينهوا شكواهم، ويتشفع لهم، فذهبوا راجعين.

وفيه: قدمت مراكب من جهة الصعيد، وفيها عدة من العسكر مجروحون.

وفيه: وضعوا على التلال المحيطة بمصر بيارق بيضا*، فأكثر الناس من اللغط، ولم يعلموا سبب ذلك.

* كانت هذه طريقة الفرنساوية فى تحديد المناطق التى ستقام عليها تحصينات القاهرة.

وفى يوم الأحد: اجتمعوا بالديوان، وأخذوا فيما هم فيه، فذكروا أمر المواريث. فقال ملطى: يامشايخ أخبرونا عما تصنعونه فى قسمة المواريث؟ فأخبروه بفروض المواريث الشرعية، فقال: ومن أين لكم ذلك، فقالوا من القرآن، وتلوا عليهم بعض آيات المواريث. فقال الإفرنج نحن عندنا لا نورث الولد، ونورث البنت، ونفعل كذا، وكذا بحسب تحسين عقولهم، لأن الولد أقدر على التكسب من البنت.

فقال ميخايل كحيل الشامى، وهو من أهل الديوان أيضًا: نحن والقبط* يقسم لنا مواريثنا المسلمون، ثم التمسوا من

* قسمة مواريث الاقباط دخلت قسمة مواريث أهل الذمة بين اختصاصات القسام العربى فى العصر

المشايخ أن يكتبوا لهم كيفية القسمة ودليلها. فسايروهم ووعدوهم بذلك وانفضوا.

وفى ذلك اليوم عزلوا محمد أغا المسلمانى أغات مستحفظان، وجعلوه كتخدا أمير الحاج، واستقروا بمصطفى أغا تابع عبد الرحمن أغا مستحفظان سابقًا عوضا عنه، ونودى بذلك.

وفى يوم الاثنين: عملوا لهم ديوانا وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث، وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة والآيات المتعلقة بذلك، فاستحسنوا ذلك.

وفى يوم السبت عاشر جمادى الأولى: عملوا الديوان،وأحضروا قايمة مقررات الأملاك والعقار، فجعلوا على الأعلى ثمانية فرانسه، والأوسط ستة، والأدنى ثلاثة: وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى، وأما الوكايل والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج والحوانيت. فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة والرواج والاتساع، وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم، وألصقوها بالمفارق والطرق، وأرسلوا منها نسخا للأعيان، وعينوا المهندسين، ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى.

وشرعوا فى الضبط والإحصا وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوايم* وضبط أسما أربابها، ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضا، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير

العثمانى. فقد كان فى حالة الوفاة ينزل القسام العربى بنفسه إلى دار المتوفى أو حانوته لضبط المخلفات. وذلك تمهيدا لقسمة التركة بين الورثة كل حسب حقه الشرعى. كما كان عليه فى نفس الوقت أن يقوم بالكشف على المتوفى قبل دفنه ليعلم هل هناك شبهه جنائية فى الوفاة أم لا؟. وكان القسام العربى يقوم بمراعاة الشروط الفقهية التى وضعها الفقهاء المسلمون لحقوق المتوفى على التركة وهى حسب الترتيب.

١ ـ نفقات تجهيز الميت وتكفينه ودفنه.
٢ ـ قضاء ديوان المتوفى.
٣ ـ تنفيذ وصاياه.
٤ ـ انصبة الورثة.

وهى حقوق مرتبة فى الأداء بحيث لو استغرق الحق صاحب الأداء كل التركة/ فلا يتبقى شى لأصحاب بقية الحقوق. وبذلك يلاحظ أنها كانت تتم حسب ما وضعته الشريعة الإسلامية من شروط.

* كان هذا سبباً من اسباب اندلاع ثورة القاهرة الأولى.

ريس* يسوسهم، ولا قايد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح.

وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية، وزعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهو جسيم ويقولون بصياح فى الكلام: نصر الله دين الإسلام. فذهبوا إلى بيت قاضى العسكر، وتجمعوا وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضى العاقبة، وأغلق أبوابه وأوقف حجابه، فرجموه بالحجارة والطوب وطلب الهرب، فلم يمكنه الهروب.

وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر.

وفى ذلك الوقت حضر دبوى بطايفة من فرسانه وعساكره وشجعانه فمر بشارع الغورية، وعطف على خط الصنادقية، وذهب إلى بيت القاضى فوجد ذلك الزحام، فخاف وخرج من بين القصرين وباب الزهومة، وتلك الأخطاط بالخلايق مزحومة، فبادروا إليه وضربوه، وأثخنوا جراحاته، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه، فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، ومسكوا الأطراف الدايرة بمعظم أخطاط القاهرة: كباب الفتوح وباب النصر والبرقية، إلى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين، وما حاذاها، ولم يتعدوا جهة سواها وهدموا مساطب الحوانيت، وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة، لتعوق هجوم العدو، وفى وقت المعركة، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس.

* ثورة القاهرة الأولى: يذكر البيان الذى اصدره بونابرت عن هذه الثورة قوله: «فى الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شى هادى خارج سور المدينة. وعندما تقدم رجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة فى حى المسجد الأكبر رفض الثوار السماح لهم بالمرور واستقبلوهم بطلقات البنادق. وكان الرد فى الساعة الرابعة باصلائهم نارا حامية من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفى اقل من عشرين دقيقة من قصف المدافع رفعت الاستحكامات والمتاريس وانفض المتظاهرين من الحى واستولت قواتنا على كل المسجد وعاد الهدوء التام إلى كل المنطقة.

وتقدر خسائر الثوار بحوالى ٢,٥٠٠ قتيل. وخسائرنا ١٦ جنديا قتلوا فى ساحة المعركة و ١١ مصابا فيهم واحد خنقه الثوار فى الشارع و ٢٠ رجلا من مختلف الوحدات والرتب.

ترجمة خطاب دورى موجه من رجال الشريعة بمدينة القاهرة إلى سكان الاقاليم.

نرجو الله العلى القدير أن يحفظكم من الفتنة والفوضى ما ظهر منها وما بطن ويبعدنا عن الذين يعيثون فى الأرض فساداً. انا نخبر سكان اقليم... أنه قد حصل فى مدينة القاهرة بعض الاضطرابات من جانب بعض العناصر

المنحطة تؤازرها شرذمة من المجرمين. فقد بثوا روح الشقاق بين الجنود الفرنسيين والرعايا الآمنين مما تسبب في قتل كثير من المسلمين وعمليات سلب ونهب لبعض المساكن والمنازل.
لكن الله لطف بنا وأخمدت الفتنة وقد توسلنا إلى القائد العام بونابرت فرجع عما كان ينويه من صب غضبه علينا بعد اخماد الثورة.
لقد منع الجنود من اضرام النار في المدينة بأسرها ومن تركها للسلب والنهب لأنه رجل عاقل حكيم طيب ورحيم بالمسلمين أنه يحمي الفقراء بصفة خاصة ولولاه لهلك جميع سكان القاهرة.
لذلك أياكم ونشر الفتنة والفوضى بين المواطنين حتى تعيشوا في منازلكم بين أسركم في طمأنينة وأمان. لا تنصتوا إلى نصائح الأشرار وهمسات مثيري الفتن. ولا تنصتوا إلى هولاء المجانين التعساء الذين لا يقدرون العواقب وتذكروا أن الله يعطي السلطان لمن يشاء ويأمر بما يشاء.
أن جميع الذين تسببوا في الاضطرابات هلكوا ونجت من شرورهم هذه الأرض بفضل الله.
أننا نستحلفكم بالله ألا تزجوا بأنفسكم في التهلكة والتفتوا لأعمالكم وأرزاقكم وكسبها بالحلال وأعملوا بالتعاليم التي أوجبتها عليكم دياناتكم وهذه الديانة المقدسة هي التي حملتنا على إسداء هذه النصائح إليكم والسلام
القاهرة في ١٤ جماد الأولى سنة ١٢١٣ هجرية الموافق ٢ برومبير سنة ٧.

أسماء المشايخ

السيد خليل البكري، نجيب الاسكاف، عبد الله الشرقي، شيخ الجامع، ديجامي ازهاف رئيس ديوان القاهرة، مصطفى الصاوي، محمد المهدي، سليمان الفيومي، سيد مصطفى الدمنهوري، موسى السرسي، محمد الأمير، أحمد العريشي، إبراهيم الجنايني، الشيخ أبو الشكيم، الشيخ السادات.
القاهرة في ٨ برومير
عاد الهدوء التام إلى القاهرة وقد أعدم رميا بالرصاص عدد من الأفراد الذين اعتقلوا وهم يحملون السلاح وتؤكد الأنباء أن حوالي عشرين من أهم الزعماء قد اعتقلوا.
انظر كورييه دى ليجيبت ص ٤٠

القاهرة في ٦ برومبير سنة ٧ من القائد العام بونابرت إلى مجلس الإدارة التنفيذي

في فجر يوم ٣٠ فاندميير ظهرت بعض التجمعات في مدينة القاهرة وفي الساعة ٧ صباحا تجمع جمع غفير، أمام باب القاضي إبراهيم حاتم أفندي وهو رجل محترم بأخلاقه وصفاته. ذهب إليه وفد مكون من عشرين شخصا من أبرز الشخصيات وأرغمه على أن يمتطي جواده ويصحبهم إلي. ثم مضوا في طريقهم إلي، وبينما هم في الطريق وجه رجل عاقل رشيد نظر القاضي إلى أن الجمع يضم عددا قليلا وغير منظم من رجال، كل ما يريدونه هو تقديم عريضة فبهر القاضي من هذه الملاحظة مقتنعا بها ثم ترجل عن جواده وذهب إلى منزله.
ولكن ذلك لم يرق للجماهير الغاضبة فانقضت عليه وعلى أهل بيته ورجمتهم بالحجارة وضربتهم بالعصي وسلبت ونهبت ما في المنزل.
ولما ذهب الجنرال دوبوى
قائد الحامية إلى مكان الحادث في غضون ذلك وجد جميع الشوارع قد سدت أمامه وكان هناك قائد كتيبة تركي فلما رأى الضوضاء واستحال عليه تهدئتها بالحسنى أطلق النار للإرهاب فاستشاطت الجموع غضبا وزاد هياجها فهاجمها الجنرال دوبوى بجنده وشتت كل من تصدى له وفتح لنفسه طريقا ولكنه أصيب بضربة رمح تحت ابطه فانقطع شريان أمهله الحياة لمدة ثماني دقائق فقط.
وتسلم القيادة من بعده الجنرال بون Bon وقصفت المدافع وتبودلت النيران في جميع الشوارع وسطت الجماهير على بيوت الأغنياء تسلبها وتنهبها.
وفي المساء كانت المدينة قد هدأت كلها تقريبا إلا حي الجامع الأكبر (الأزهر) حيث كان يجتمع مجلس الثوار الذين أقاموا المتاريس في الشوارع المؤدية له.

وفى منتصف الليل تمركز الجنرال دومارتان Dommartin على رابية بين القلعة والقبة (قبة الغورى)، التى تقع على بعد حوالى ٣٠٠ متر من الجامع الأكبر ومعه ٤ مدافع.
كان العرب والفلاحون يسيرون متلهفين لنجدة الثوار فأمر الجنرال لان Lannes الجنرال فو Vaux بالهجوم على نحو ٤ أو ٥ آلاف فلاح فما أن رأوهم حتي فروا بأسرع مما كان متوقعا وغرق منهم عدد كبير فى مياه الفيضان.
وفى صباح اليوم التالى أرسل الجنرال دوماس Dumas طلائع فرقة من الخيالة لاستطلاع الأمور فطرد العرب بعيدا عن القبة.
وفى الساعة الثانية بعد الظهر كان كل شيء هادئا خارج سور المدينة. وعندما تقدم رجال الديوان وكبار المشايخ ورجال الشريعة نحو المتاريس المقامة فى حى المسجد الأكبر رفض الثوار السماح لهم بالمرور واستقبلوهم بطلقات البنادق.
وكان الرد فى الساعة الرابعة باصلائهم نارا حامية من مدفعية القلعة ومدفعية الجنرال دومارتان وفى أقل من عشرين دقيقة من قصف المدافع رفعت الاستحكامات والمتاريس وانفض المتظاهرون من الحى واستولت قواتنا على المسجد وعاد الهدوء التام إلى كل المنطقة.
وتقدر خسائر الثوار بحوالى ٢,٥٠٠ قتيل وخسائرنا ١٦ جنديا قتلوا فى ساحة المعركة و ٢١ مصابا فيهم واحد ختنه الثوار فى الشارع و ٢٠ رجلا من مختلف الوحدات والرتب.
أن الجيش يشعر بخسارته فى فقدان الجنرال دوبوى الذى سبق أن أخطأه الموت فى مفاجآت الحرب مائة مرة.
وعندما ذهب ياورنا سولوسكى Sulkowsky فى فجر يوم أول بروميير لاستطلاع الحركات التى كانت تبدو خارج المدينة هاجمته بدوره الجماهير فى ضاحية من الضواحى ولما أنزلقت أرجل حصانه أنهالت عليه الجماهير ولم تلتئم الجراح التى أصابته فى معركة الصالحية فمات. لقد كان ضابطا ذا مستقبل عظيم.
انظر كوربيه دى ليجيبت العدد ١٤ ص ٢، ٤.
لدينا معلومات صادقة عن الموقف الذى ترتهن به مقتضيات الأمن وحسن تصرف القيادات بقواتها.
مهد للثورة بعض الشيوخ من الرتب الدنيا فى الإدارات بدافع الغيرة من رؤسائهم الذين عينتهم القيادة الفرنسية بأمر الجنرال بونابرت، لما عهده فيهم من الظفر باحترام وتبجيل مسلمى القاهرة، فمنذ ذلك الحين دأب أعداؤهم على تقويض هيبتهم بين المواطنين باتهامهم بالخنوع والخضوع والولاء لسادتهم الفرنسيين واهمال مصالح الشعب وعدم الاهتمام به. وتمكنوا بهذه المؤامرات من طرد أحد هؤلاء المشايخ من المسجد الذى كان يتولى إدارته.
وقد اجتمع فى الليل حوالى عشرين شيخا من المتزمتين وقرروا اغلاق الحوانيت والمتاجر فى صبيحة النهار التالى والعمل على تجميع أكبر عدد من الأهالى بحجة تنظيم مسيرة إلى القائد العام للتظلم إليه من حالة الشعب السيئة. وبالفعل بدأوا فى تجميع أتباعهم الذين انضم إليهم عدد كبير من الأهالى يتحينون الفرص للسلب أو النهب. وقصد الجميع إلى منزل القاضى وأغلقوا المتاجر والحوانيت على طول الطريق الذى سلكوه، وما لبث أن أقفلت بالتالى المحلات الأخري فى مختلف أحياء القاهرة تضامنا مع من سبقهم من التجار وغيرهم. ثم انتشرت الشائعات المرعبة الكاذبة لإثارة الفوضي، تقول أن الثورة بدأت من أحد أحياء القاهرة النائية عن مكان الحادث.
ويمكن للقارىء أن يطلع على خطاب الجنرال بونابرت لمجلس الإدارة التنفيذى (العدد رقم ١٤) ويرى كيف توجهت التجمعات إلى القاضى وكيف بدأت المعركة ثم كيف أحبطت الثورة.
أن الأشخاص الذين كانوا قد غرروا بمن وثقوا بهم من هؤلاء المساكين واستغلوا جهلهم للزج بهم فى طريق

السلب والإجرام والموت المحقق وكل الذين تسببوا في خسارة أرواح الفرنسيين البواسل الذين سقطوا في معارك هذه الثورة، استحقوا عقابا رادعا، يتعظ منه الآخرون ولم ينج منهم أحد.

ولقد تبين لنا من أبحاثنا أن جميع المسلمين الذين استخدمهم الفرنسيون في مختلف الإدارات وفي أقسام الشرطة وحتى خدم المنازل أظهروا اخلاصا صادقا معرضين أرواحهم للخطر في غالب الأحيان.

منذ بدأت الثورة اجتمع المشايخ أعضاء الديوان في القاهرة عند الجنرال ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه وقاموا بتنفيذ كل ما طلبه منهم الجنرال وأدلوا بجميع المعلومات التي طلبت منهم،وبمعلومات تتعلق بطبائع وعادات سكان القاهرة وطريقة قيادة الشعب، الأمر الذي اكتسبوه من خبراتهم، كل هذا كان له أثر فعال عندنا.

عندما تحقق شيخ المكفوفين في المسجد الكبير وكان من أكبر المحرضين على الثورة ومن ألد أعدائنا أن هزيمة جماعته أصبحت وشيكة الوقوع فكر في الخلاص وتأمين سلامته بالتودد إلى مقر القيادة، وقد أثار هذا النفاق استياء المشايخ الآخرين وبدأ الوجوم على وجوههم عند رؤيته.

أعدم هذا الشيخ في ١٤ برومير بضرب عنقه وعندما استجوبه المحققون قبل صدور الحكم لم يوجه أتهام ضد المشايخ الآخرين وكان يشكو منهم مر الشكوى قبل اعتقاله.

وبالرغم من أن المعارك دارت رحاها في معظم شوارع القاهرة فانه لا يمكننا القول بأن جميع أهالي القاهرة اشتركوا في هذه الثورة.

كان واضحا لنا أن المظاهرات نتجت عن الفتنة التي أثرت في النفوس الضعيفة بينما قبع بقية الناس في منازلهم. وأنا نعتقد أن أمنية غالبية الشعب كانت تميل لانتصار الفرنسيين لا للمشاغبين، لأنه من غير المعقول أن نتصور أن يظل عدد كبير جدا من أهل البلاد وفيا لنا ما لم نكن قد كسبنا الرأى العام واستملنا القلوب.

من كل هذه الاعتبارات وكثير غيرها التي تخفى عن الأفراد ولكنها مدونة في محاضر أقسام البوليس، تثبت لنا أن جزءا كبيرا وهاما جدا من شعب هذه البلاد قد خدمنا باخلاص أو اتخذ من المظاهرات موقف الحياد التام.

وعلى ذلك لو كنا قد بطشنا بأفراد الشعب بطريقة جماعية دون التفرقة بين المذنبين والأبرياء لكان ذلك منتهى الظلم والوحشية فضلا على أن مثل هذه التصرفات تطيح بالحكومات الضعيفة المتراخية التي تترك العنان لرجال شرطتها أثناء السلم. وإذا ما حل بها أى تهديد مهما كان ضئيلا بدت وكأنها ترغب في إبادة البشرية بأسرها جاعلة إياها ضحية سهلة المنال لارهابهم والفتك بهم. أن هذا المنطق لا يتفق طبعا مع الفرنسيين البواسل وقلوبهم التي تفيض شجاعة وفي نفس الوقت تميل إلى الرحمة والتسامح. أن الفرنسيين يضربون أعداءهم بشدة ولكنهم لا يستسلمون لحماقة عمياء. انهم يتصرفون تحت رقابة التاريخ ويعلمون مدى القسوة في بلد يتذكر الفظائع والأعمال الوحشية التي قام بها الأسبان والبريطانيون في أمريكا والهند. زد على ذلك أن هذه الأحداث وطدت سلطان الفرنسيين في مصر وأعطت للجماهير الجاهلة فكرة واضحة واختبارا صريحا لسمو قدرتنا. فان تفهمهم لأنواع العقاب الذى أنزل بالمذنبين أعطاهم فكرة واضحة عن عدالة حكمنا وقد تبينوا الفارق الجسيم بين عاداتنا المسالمة وعادات البريطانيين ومماليكهم الإجرامية في سفك الدماء. لقد زاد ولاء الناس لنا وضعفت بينهم أسباب المشاحنات وقد فقدوا الثقة في الذين كانوا يدفعونهم إلى انتهاج السبل المعادية والعمل على مقاومتنا.

انظر وكوربيه دى ليجيبت ص ٥٨

القاهرة في ١٤ برومير سنة ٧

في الساعة التاسعة من صباح اليوم نفذ حكم الإعدام في ساحة القلعة بضرب عنق كل من الشيخ إسماعيل البزاوى ويوسف المصيلبي وعبد التواب الشبراوى والسيد عبد القاسم وأحمد الشرقاوى لادانتهم بتدبير الثورة التي اندلعت في القاهرة في ٣٠ فاندمير وأول برومير.

معظم هؤلاء المشايخ انضموا إلى الثورة حقدا على زملائهم الذين عينهم القائد العام في مناصب عامة.

انظر كوربيه دى ليجيبت ص ٤٦.

وأما الجهات البرانية والنواحى الفوقانية فلم يفزع منهم فازع، ولم يتحرك منهم أحد ولم يسارع، وكذلك شذ عن الوفاق مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر.

ولم تزل طايفة المحاربين فى الأزقة متترسين، فوصل جماعة من الفرنساوية، وظهروا من ناحية المناخلية. وبندقوا على متراس الشوايين، وبه جماعة من مغاربة الفحامين، فقاتلوهم حتى أجلوهم، وعن المناخلية أزالوهم.

وعند ذلك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحد، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب، فهجموا على حارة الجوانية، ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام، وأخذوا الودايع والأمانات، وسبوا النسا والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات وأكثروا من المعايب، ولم يفكروا فى العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين، وعلى هذا الحال مستمرين.

وأما الإفرنج فإنهم أصبحوا مستعدين وعلى تلال البرقية والقلعة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر والبنبات، ووقفوا مستحضرين، ولأمر كبيرهم منتظرين، وكان كبير الفرنسيس أرسل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها، ومل من المطاولة.

هذا والرمى متتابع من الجهتين، وتضاعف الحال ضعفين، حتى مضى وقت العصر، وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات، على البيوت والحارات وتعمدوا

باالخصوص الجامع الأزهر، وجردوا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين: كسوق الفورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه. نادوا ياسلام من هذه الآلام، ياخفى الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق، ودخلوا فى الشقوق، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان، وهدمت فى مرورها حيطان الدور، وسقطت فى بعض القصور، ونزلت فى البيوت والوكايل، وأصمت الآذان بصوتها الهايل.

فلما عظم هذا الخطب، وزاد الحال والكرب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليدفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل، ويكفهم كما انكفّ المسلمون عن القتال. والحرب خدعة وسجال. فلما ذهبوا إليه، واجتمعوا عليه عاتبهم فى التأخير، واتهمهم فى التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم، وأمر برفع الرمى عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك.

وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة، وتسابقوا لبعضهم بالبشارة، واطمأنت منهم القلوب، وكان الوقت قبل الغروب، وانقضى النهار وأقبل الليل، وغلب على الظن أن القضية لها ذيل، وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين، وعلى الرمى والقتال ملازمين، ولكن خانهم المقصود، وفرغ منهم البارود، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع إلى أن مضى من الليل نحو ثلاث ساعات، وفرغت من عندهم الأدوات. فعجزوا عن ذلك وانصرفوا. وكف عنهم القوم، وانحرفوا.

وبعد هجعة من الليل دخل الإفرنج المدينة كالسيل، ومروا فى الأزقة والشوارع لا يجدون لهم ممانع، كأنهم الشياطين أو جند إبليس، وهدموا ما وجدوه من المتاريس، ودخل طايفة من باب البرقية، ومشوا إلى الغورية، وكروا ورجعوا، وترددوا، وما هجعوا، وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين، وتراسلوا أرسالا ركبانا ورجالا، ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر، وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزاين الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأوانى والقصاع، والودايع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوا.

وأصبح يوم الثلاثا فاصطف منهم حزب بباب الجامع، فكل من حضر للصلاة يراهم فيكر راجعا ويسارع، وتفرقت طوايفهم بتلك النواحى أفوجا، واتخذوا السعى والطواف بها منهاجا، وأحاطوا بها إحاطة السوار، ونهبوا بعض الديار، بحجة التفتيش على النهب، وآلة السلاح والضرب، وخرجت سكان تلك الجهة يهرعون، وللنجاة بأنفسهم طالبون، وانتهكت حرمة تلك البقعة، بعد أن كانت أشرف البقاع، ويرغب الناس فى سكناها، ويودعون عند أهلها ما يخافون عليه الضياع، والفرنساوية لا يمرون بها إلا فى النادر، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر.

فانقلب بهذه الحركة منها الموضوع، وانخفض على غير القياس المرفوع، ثم ترددوا فى الأسواق، ووقفوا صفوفاً مئيناً وألوفاً، فإن مر بهم أحد فتشوه وأخذوا ما معه وربما قتلوه، ورفعوا القتلى والمطروحين من الإفرنج والمسلمين، ووقف جماعة من الفرنسيس ونظفوا مراكز المتاريس، وأزالوا ما بها من الأتربة والأحجار المتراكمة، ووضعوها فى ناحية لتصير طرق المرور خالية.

وتحزبت نصارى الشوام، وجماعة أيضًا من الأروام الذين انتهبت دورهم بالحارة الجوانية ليشكو لكبير الفرنسيس ما لحقهم من الرزية، واغتنموا الفرصة فى المسلمين، وأظهروا ما هو بقلوبهم كمين، وضربوا فيهم المضارب، وكأنهم شاركوا الإفرنج فى النوايب، وما قصدهم المسلمون، ونهبوا ما لديهم إلا لكونهم منسوبين إليهم، مع أن المسلمين الذين جاوروهم نهبهم الزعر أيضًا وسلبوهم، وكذلك خان الملايات المعلوم الذى عند باب حارة الروم، وفيه بضايع المسلمين وودايع الغايبين، فسكت المصاب على غصته، واستعوض الله فى قضيته، لأنه إن تكلم لا تسمع دعواه، ولا يلتفت إلى شكواه.

وانتدب برطلمين للعسس، على من حمل السلاح أو اختلس، وبث أعوانه فى الجهات يتجسسون فى الطرقات فيقبضون على الناس بحسب أغراضهم، وما ينهيه النصارى من أبغاضهم، فيحكم فيهم بمراده ويعمل برأيه واجتهاده، ويأخذ منهم الكثير، ويركب فى موكبه ويسير، وهم موثوقون بين يديه بالحبال، ويسحبهم الأعوان بالقهر

والنكال، فيودعونهم السجونات، ويطالبونهم بالمنهوبات، ويقررونهم بالعقاب والضرب، ويسألونهم عن السلاح وآلات الحرب، ويدل بعضهم على بعض، فيضعون على المدلول عليهم القبض.

وكذلك فعل مثل ما فعله اللعين الأغا، وتجبر فى أفعاله وطغى، وكثير من الناس ذبحوهم، وفى بحر النيل قذفوهم، ومات فى هذين اليومين وما بعدهما أمم كثيرة لا يحصى عددها إلا الله، وطال بالكفرة بغيهم وعنادهم، ونالوا من المسلمين قصدهم ومرادهم.

وأصبح يوم الأربع: فركب فيه المشايخ أجمع، وذهبوا لبيت صارى عسكر وقابلوه وخاطبوه فى العفو ولاطفوه والتمسوا منه أمانا كافيا، وعفوا ينادون به باللغتين شافيا، لتطمين بذلك قلوب الرعية، ويسكن روعهم من هذه الرزية، فوعدهم وعدا مشوبا بالتسويف، وطالبهم بالتبيين والتعريف، عمن تسبب من المتعممين فى إثارة العوام،* وحرضهم على الخلاف والقيام، فغالطوه عن تلك المقاصد. فقال على لسان الترجمان: نحن نعرفهم بالواحد، فترجو عنده فى إخراج العسكر من الجامع الأزهر، فأجابهم لذلك السؤال، وامر بإخراجهم فى الحال، وأبقوا منهم السبعين. أسكنوهم فى الخطة كالضابطين ليكونوا للأمور كالراصدين وبالأحكام متقيدين.

* بونابرت يطالب المشايخ بالتبليغ عن المتعممين الذين اثاروا العوام فى ثورة القاهرة.

ثم إنهم فحصوا على المتهمين* بإثارة الفتنة فطلبوا الشيخ سليمان الجوسقى شيخ طايفة العميان، والشيخ أحمد الشرقاوى، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى والشيخ يوسف

* القبض على بعض المتهمين فى ثورة القاهرة.

المصيلحى، والشيخ إسماعيل البراوى، وحبسوهم ببيت البكرى، وأما السيد بدر المقدسى فإنه تغيب، وسافر إلى جهة الشام، وفحصوا عليه فلم يجدوه، وتردد المشايخ لتخليص الجماعة المعوقين، فغولطوا، واتهم أيضًا إبراهيم أفندى كاتب البهار(*) بأنه جمع له جمعا من الشطار، وأعطاهم الأسلحة والمساوق، وكان عنده عدة من المماليك المخفيين، والرجال المعزولين، فقبضوا عليه وحبسوه ببيت الأغا.

* كاتب البهار: مسئول كتابة عوايد البهار والبن الوارد إلى مصر.

وفى يوم الأحد ثامن عشره: توجه شيخ السادات وباقى المشايخ إلى بيت صارى عسكر الفرنسيس، وتشفعوا عنده فى الجماعة المسجونين ببيت الأغا وقايمقام والقلعة فقيل لهم: وسعوا بالكم، ولا تستعجلوا، فقاموا وانصرفوا.

وفيه: نادوا فى الأسواق بالأمان، ولا أحد يشوش على أحد مع استمرار القبض على الناس وكبس البيوت بأدنى شبهة، ورد بعضهم الأمتعة التى نهبت للنصارى.

وفيه: توسط عمر القلقجى لمغاربة الفحامين، وجمع منهم، ومن غيرهم عدة وافرة، وعرضهم على صارى عسكر، فاختار منهم الشباب وأولى القوة، وأعطاهم سلاحا وآلات حرب ورتبهم عسكرا، وريسهم عمر المذكور، وخرجوا* وأمامهم الطبل الشامى على عادة عسكر المغاربة، سافروا إلى جهة بحرى بسبب أن بعض البلاد قام على عسكر الفرنساوية وقت الفتنة، وقاتلوهم، وضربوا أيضاً مركبين* بها عدة من عساكرهم، فحاربوهم وقاتلوهم.

* الفرنسيون يجندون فرقة من المغاربة للقيام بمهام الأمن، ريسهم عمر القلقجى المغربى، ويدربونهم التدريبات العسكرية الفرنسية لقمع البلاد المتمردة على الفرنساوية.

فى ١٥ برمويير سنة ٧

هاجمت ثمانية زوارق مليئة بالعرب والفلاحين من بلدة نجيلة سفينة حربية قادمة من رشيد إلى القاهرة وعليها سبعة جنود ظلوايقاومونهم إلى أن نفذت ذخيرتهم وفقدوا واحدا منهم. عند ذلك انسحب الجند إلى الضفة اليمنى للنهر بالقرب من بلدة الجدابى فاستقبلهم السكان وعلى رأسهم الشيخ حسب الله وأكرموهم.
انظر كورييه دى ليجيبت ص(٤٧)

إعلان من الجنرال بونابرت
إلى أهالي القاهرة:

بينكم أناس فاسدون حرضوكم ومن ثم هلكوا جميعا. وقد أمرني الله برحمة الشعب فتسامحت معكم ورحمتكم. لقد غضبت من ثورتكم وحرمتكم من عقد جلسات ديوانكم لمدة شهرين، ولكنني اليوم أعيده لكم مكافأة على حسن سلوككم الذى شفع لكم ومحا زلة ثورتكم.

يا أيها الشرفاء والعلماء وخطباء المساجد، أحيطوا أفراد الشعب علما بأن الذين يعادونني بمحض ارادتهم لن يجدوا لهم ملجأ في هذه الدنيا ولا في الآخرة. هل يوجد بين الناس رجل يملأ العمى قلبه حتي انه لا يعى أن القدر نفسه يوجه جميع ما نقوم به من أعمال؟ هل هل يوجد بين الناس جاحد يشك في أن كل شيء في هذا الكون خاضع لسلطان القدر؟

ليعلم الشعب أنه منذ بدء الخليقة صار مكتوبا أنه بعد تدمير أعداء الإسلام وهدم الصليب، جئت من أقاصى الغرب لتأدية المهمة الموكولة إلى. أبلغوا الشعب أن القرآن الكريم نص فى أكثر من عشرن آية فيه على ما حدث. وقد شرح أيضا ما سوف يحدث مستقبلا. وعلى الذين يخشون رهبة سلاحنا ولغتنا أن يغيروا من سلوكهم لأنهم حينما يتضرعون إلى السماء بتمنيات معادية طالبين أن يلحق بنا الأذى فهم فى الحقيقة يجلبون على أنفسهم الحكم بالفناء. اذن فليتضرع المؤمنون بالحق، إلى الله طالبين النصر لجيوشنا.

فى أمكانى محاسبة كل منكم على ما يكنه فى أعماق قلبه من شعور نحونا



* عسكر من المغاربة.

فلما ذهب أوليك المغاربة سكنوا الفتنة وضربوا عشما، وقتلوا كبيرها المسمى بابن شعير ونهبوا داره ومتاعه وماله وبهايمه، وكان شيًا كثيراً جداً، وأحضروا إخوته وأولاده وقتلوهم، ولم يتركوا منهم سوى ولد صغير جعلوه شيخا عوضا عن أبيهم.

وسكن العسكر المغربى بدار عند باب سعادة، ورتبوا له من الفرنسيس جماعة يأتون إليهم فى كل يوم، ويدربونهم على كيفية حربهم وقانونهم، ومعنى إشارتهم فى مصافاتهم، فيقف المعلم والمتعلمون مقابلون له صفا وبأيديهم بنادقهم، ويشير إليهم بألفاظ بلغتهم. كأن يقول مردبوش فيرفعونها قابضين بأكفهم على أسافلها، ثم يقول مرش فيمشون صفوفا إلى غير ذلك.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

لأنى أعلم كل شىء حتى ما لم تبوحوا به لأحد وسيأتى اليوم الذى يرى فيه الملاء بوضوح أننى موجه بأوامر عليا، وأن كل ما يبذله الآدميون من جهود لن يفيدهم فى الغلبة على.

طوبى للذين يسبقون منكم إلى محالفتى بايمان وطيد.

البند الأول:

ينشأ فى القاهر ديوان كبير مكون من ال ٦٠ شخصا الأتية اسماؤهم فيما بعد:

الشيوخ والعلماء: البكرى ـ محمد دمرداش ـ السيد حسين رفاعى ـ عبد الله الشرقاوى ـ محمد المهدى ـ مصطفى الصاوى ـ موسى السرسى ـ محمد الأمير ـ سليمان الفيومى ـ أحمد العريشى ـ إبراهيم الهريسى ابن المفتى ـ الشيخ صالح من طائفة الحنابلة ـ محمد الدواخلى ـ مصطفى الدمنهورى ـ محمود آغا شوربجى فلاح ـ على كخيا المكدلى ـ خليل آغا شوربجى فلاح ـ أحمد ذو الفقار أوضه باشى ـ (انكشارية) يوسف شوربجى ـ باشجاويش توفيقجيان ـ يوسف شوربجى ـ باشجاويش جماليان ـ مصطفى أفندى ـ أمير سليم شركوبى ـ (شراكسة) مصطفى افندى عاصى ـ مصطفى كيايا باشختيار ـ حسن شوربجى بركيافى ـ عزب.

تجار الغورية:

محمد العشوبى شيخ الغورية ـ حاج أحمد أبو نصار، مغربى ـ حاج سيد، شيخ مغاربة تيلون.

تجار بيحاس. Behas:

أحمد محرم ـ أحمد محروقى ـ حاج حسين إبراهيم ـ ميخائيل كحيل ـ إبراهيم أفندى ـ قاضى البحار ـ يوسف فرحات ـ حاج أحمد حسين إبراهيم.

تجارة لتجارة تركيا:

سيدى أحمد العقاد المحروقى ـ مصطفى شيخ العقادين ـ أحمد الكازانجى.

تجارة بقالة:

سيد محمد، شيخ العطارين.

تجار السكر:

عبد القادر بجديلى ـ إبراهيم قرموط ـ محمد همشرى.

تجار نحاس:

سيد مصطفى مصباح ـ الحاج حسين.

صياغ وجواهرجية:

حاج سليم الجوهرجى ـ محمد البغدادى.

تجارة ورق:

على بن الحاج خليل.

تجارة أقمشة:

حاج إبراهيم المسيرى ـ على الساطحى شيخ القماشين.

تجار صابون:

سيد أحمد زارو ـ سيد يوسف فخر الدين.

تجار التبغ والأقمشة من سوريا:

أحمدنظام.

مشايخ أهم الأحياء:

شيخ جزارين الحسينية ـ شيخ العطوف:

الأقباط:

إبراهيم جر العايط ـ الشيخ إبراهيم كاتب السرة الشيخ إبراهيم مقار.

المواطنون:

وولمار Wolmar كاف Caffe بوديف Beaudeuf

البند الثانى:

يكون لدى الديوان مندوب فرنسى وهو المواطن جلوتييه Gloutier ومندوب مسلم وهو ذو الفقار كيايا.

٣ ـ على قائد الحامية العمل على اجتماع أعضاء الديوان العام يوم ٥ نيفوز الساعة ٩ صباحا.

٤ ـ يعين الديوان رئيسه وسكرتيرين بطرق الاقتراع وبالأغلبية المطلقة للأصوات.

٥ ـ يعين الأعضاء بعد ذلك ١٤ شخصا يتكون منهم الديوان الصغير وذلك عن طريق الاقتراع وبالأغلبية المطلقة. ويجب أن تنتهى جلسات الديوان العام فى بحر ثلاثة أيام ولن يجتمع بعد ذلك إلا بدعوة غير عادية.

٦ ـ يجتمع أعضاء الديوان الصغير الذين يعينهم الديوان العام بعد موافقة القائد العام لانتخاب رئيس من بينهم، وسكرتير، ومترجمين من خارج هيئتهم وحاجب وعشرة من حاملى الهراوات مع رئيس لهم.

٧ ـ يجتمع أعضاء الديوان الصغير كل يوم ويضطلعون بكافة الأعمال الخاصة بتحقيق العدل ورفاهية الأهالى ومصالح الجمهورية الفرنسية.

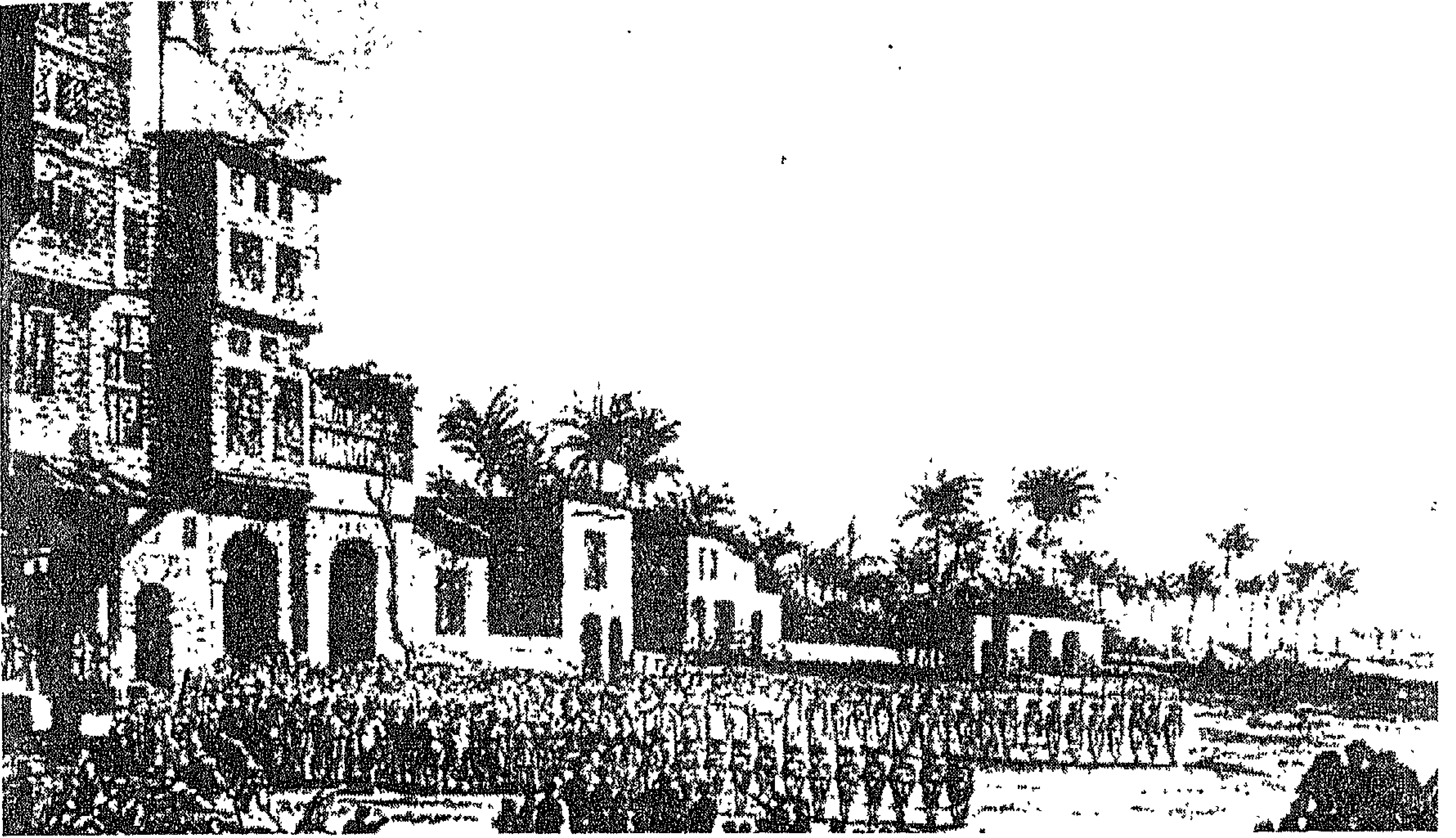
٨ ـ يحدد أجر الرئيس بمائة ريال شهريا، ولكل من ال ١٣ عضوا الآخرين ٨٠ ريالا شهريا، والسكرتيرين ٢٥ ريالا لكل منهما، والحاجب ٦٠ باره Parats فى اليوم

وكل من حاملى الهراوات ١٥ باره ما عدا رئيسهم فيكون أجره ٤٠ باره.
امضاء بونابرت
انظر كوربيه دى ليجيبت ص ٨٣ وما بعدها

اعلان موجه من الجزار باشا إلى البكوات والعرب وغيرهم من الأشخاص أعيان البلد

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، يا أيها الذين آمنوا إذا أردتم أن تتجنبوا العذاب الأليم آمنوا بالله وبرسوله وحاربوا بكل جهودكم وطاقاتكم فى سبيل الله. أن ذلك خير ما تفعلون إذا كنتم تبصرون فسيغفر الله لكم ذنوبكم وتدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار. ستكافأون بالسعادة فى جناد عدن تدخلون فيها خالدين.

نصر من الله وفتح قريب. ليعلم المؤمنون أن الذين يتبعون دينا غير دين الهدى والخلاص لن يفيدوا منه شيئا وسيكونون فى مصاف المرذولين فى اليوم الآخر. لا إله إلا الله محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام.
إلى مشايخ عرب نصير وسليمان أبو نير العظيم وعمر أبو نصير ومشايخ عرب الصعايدة المقيمين فى برجة الكبرى Burget el Kubra رفع الله من قدرهم.
بعد السلام
نعرفكم أن الثامن من شعبان اليوم المبارك من سنتنا هذه ١٢١٣ هـ تلقينا أوامر مقدسة من سيد البلاد ولجان الباب العالى الأماجد تفيدنا أن عظمة مولانا السلطان نصره الله قد عيننا فى هذه السنة باشا على القاهرة المحروسة وقد أسبغ علينا بنعمة القيادة العليا لجنود المسلمين فى باشاوية دمشق وقيادة قافلة الحجاج المباركة إلى الكعبة الشريفة وباشوية طرابلس وسوريا وغزة والرملة ويافا وجميع مشتملاتها. وأبقى لنا حكم عكا.
أننا نشكر الله على هذه الأفضال المجيدة وهذه المهام الجديدة. وستكون هذه السنة أكثر بركات من سابقتها لجميع المسلمين وقد صدر هذا الأمر الهام لاعلامكم بهذه الأخبار.
ونعرفكم أيضا أننا جمعنا جنود المسلمين فى جيوش جرارة من المؤمنين مشاة وفرسانا وقد أعددنا مؤن الحرب وكميات هائلة من الزاد أرسلناها إلى غزة والعريش لغزو مصر واثقين بعون الله العلى القدير من إبادة الفرنسيين.
ونحن نرغب فى أن تنضموا إلينا على التو، لكى نصبح كتلة واحدة. طهروا قلوبكم ولتنصرف أفكاركم إلى تحقيق الصالح، اتحدوا مع إخوانكم المؤمنين ضد الكفرة الملاعين، وأبذلوا جهودكم فى سبيل نصرة الإسلام لانكم سوف تنتصرون باذن العلى القدير على أعدائكم أعداء الله.
لا تهيبوا من استفزازاتهم وتهديداتهم السافرة واحذروا على الأخص من خدعاتهم. سيغدقون عليكم أولا الوعود الخلابة ثم يزجون بكم فى هاويات المذلة. سيهدمون دياركم ولن يتركوا لها أثرا يذكر.
لقد اتضح لنا انهم أصبحوا فى مواقف صعبة لا يحسدون عليها فقد أكدت لنا ذلك أحدث الأخبار التى وصلت إلينا. لقد استولينا خلسة على خطابات كانت مرسلة إلى الفرنسيين وقد ترجمنا مضمونها إلى اللغة العربية وها نحن نعرضها عليكم لكى نؤكد لكم كلمتنا ولن يكون لديكم أدنى شك فى هذا الشأن. أن ذلك يزيد من قوتنا ومن اخلاصكم، وبإذن الله سوف ترون من قبلنا كل ما ترضون عنه. سوف نضمن راحة الشعوب بإقامة حكومات عادلة، ونوفى بوعودنا وسوف يلقى هؤلاء الطغاة الظالمون مصيرهم المنتظر.
لقد حررنا رسائل بهذا المعنى لجميع البكوات والعرب والأشخاص ذوى النفوذ، فلتعلموا ذلك وتعملوا حسبما نريد. ليرفع الله من شأنكم ويحميكم من الشعوب الكافرة.
الصلاة والسلام على سيد المرسلين والحمد لله رب العالمين.
صدر فى ١٩ شعبان سنة ١٢١٣ هـ. (٣ بلوفيوز سنة ٧)
انظر كوربيه دى ليجيبت ص ١١٢.



* عساكر الفرنساوية تصل إلى رشيد.

وفيه سافر برطلمين إلى ناحية سرياقوس، ومعه جملة من العسكر بسبب الناس الفارين إلى جهة الشرق، وأخذ [فرد] من البلاد، وعسف فى تحصيلها ورجع بعد أيام.

وفى يوم الأربعا: خاطب الشيخ محمد المهدى صارى عسكر فى أمر إبراهيم أفندى كاتب البهار، وتلطف به بمعونة بوسليك المعروف بمدبر الحدود، وهو عبارة عن الروزنامجى، ونقله من بيت الأغا إلى داره، فطلبوا منه قايمة كشف عما يتعلق بالمماليك بدفتر البهار.

وفى يوم الخميس: سافر عدة من المراكب نحو الأربعين بها عسكر الفرنسيس إلى جهة بحرى.

وفى ليلة السبت رابع عشرينه: حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات؛ وهى صوره فرمان وعليه طرة

ومكتوب من أحمد باشا الجزار وآخر من بكر باشا إلى كتخدايه مصطفى بك، ومكتوب من إبراهيم بك خطابا للمشايخ، وذلك كله بالعربى، ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية والأحاديث والآثار المتعلقة بالجهاد، ولعن طايفة الإفرنج والحط عليهم وذكر عقيدتهم الفاسدة وكذبهم وتحيلهم، كذلك بقية المكاتبات بمعنى ذلك فأخذها مصطفى بك كتخدا، وذهب بها إلى صارى عسكر.

فلما اطلع عليها قال: هذا تزوير من إبراهيم بك ليوقع بيننا وبينكم العداوة والمشاحنة، وأما أحمد باشا [الجزار] فهو رجل فضولى لم يكن واليا بالشام ولا مصر، لأن والى الشام إبراهيم باشا، وأما والى مصر فهو عبد الله باشا ابن العظم الذى هو الآن والى الشام، فأنا أعلم بذلك، وسيأتى بعد أيام والى ويقيم معه كما كانت المماليك مع الولاة.

وورد خبر أيضاً بانفصال محمد باشا عزت عن الصدارة، وعزل كذلك أنفار من رجال الدولة، وفى مدة هذه الأيام بطل الاجتماع بالديوان المعتاد، وأخذوا فى الاهتمام فى تحصين النواحى والجهات، وبنوا أبنية على التلول المحيطة بالبلد، ووضعوا بها عدة مدافع وقنابر، وهدموا أماكن بالجيزة وحصنوها تحصينا زايدا، وكذلك مصر العتيقة ونواحى شبرا، وهدموا عدة مساجد منها المساجد المجاورة لقنطرة إنبابه ومسجد المقس المعروف الآن بأولاد عنان على الخليج الناصرى بباب البحر، وقطعوا نخيلا كثيرة، وأشجاراً لعمل الحصون والمتاريس، وهدموا جامع الكازرونى بالروضة، وأشجار الجيزة التى عند أبى هريرة قطعوها وحفروا هناك

خنادق كثيرة وغير ذلك، وقطعوا نخيل جهة الحلى وبولاق، وخربوا دورا كثيرة وكسروا شبابيكها وأبوابها. وأخذوا أخشابها لاحتياج العمل والوقود، وغير ذلك.

وفى ليلة الأحد: حضر جماعة من عسكر الفرنسيس إلى بيت البكرى نصف الليل، وطلبوا المشايخ المحبوسين عند صارى عسكر ليتحدث معهم. فلما صاروا خارج الدار وجدوا عدّة كبيرة فى انتظارهم، فقبضوا عليهم وذهبوا بهم إلى بيت قايمقام بدرب الجماميز، وهو الذى كان به دبوى قايمقام المقتول وسكنه بعده الذى تولى مكانه، فلما وصلوا بهم هناك عروهم من ثيابهم، وصعدوا بهم إلى القلعة فسجنوهم إلى الصباح فأخرجوهم وقتلوهم بالبنادق وألقوهم من السور خلف القلعة، وتغيب حالهم عن أكثر الناس أياما. [انظر التراجم من ٥٩٣ إلى ٥٩٧].

وفى ذلك اليوم ركب بعض المشايخ إلى مصطفى بك كتخدا الباشا وكلموه فى أن يذهب معهم إلى صارى عسكر، ويشفع معهم فى الجماعة المذكورين ظنامنهم أنهم على قيد الحياة، فركب معهم إليه وكلموه فى ذلك، فقال لهم الترجمان: اصبروا ما هذا وقته، وتركهم وقام ليذهب فى بعض أشغاله، فنهض الجماعة أيضاً، وركبوا إلى دورهم.

وفى يوم الثلاثا: حضر عدّة من عسكر الفرنسيس، ووقفوا بحارة الأزهر، فتخيل الناس منهم المكروه، ووقعت فيهم كرشة، وأغلقوا الدكاكين، وتسابقوا إلى الهروب، وذهبوا إلى البيوت والمساجد، واختلفت آراهم، ورأوا فى ذلك أقضية بحسب تخمينهم وظنهم وفساد مخيلهم. فذهب



* مشايخ القاهرة يطلبون العفو من بونابرت بعد قمع الثورة.

الجبرتي/ سنة ١٢١٣م

بعض المشايخ إلى صارى عسكر، وأخبروه بذلك، وتخوف الناس، فأرسل إليهم وأمرهم بالذهاب، فذهبوا وتراجع الناس، وفتحو الدكاكين، ومر الأغا والوالى وبرطلمين ينادون بالأمان، وسكن الحال، وقيل إن بعض كبرايهم حضر عند القلق الساكن بالمشهد، وجلس عنده حصة، وهولا كانوا أتباعه، ووقفوا ينتظرونه، ولعل ذلك قصدا للتخويف والإرهاب خشية من قيام فتنة لما أشيع قتل المشايخ المذكورين*، وهو الأرجح.

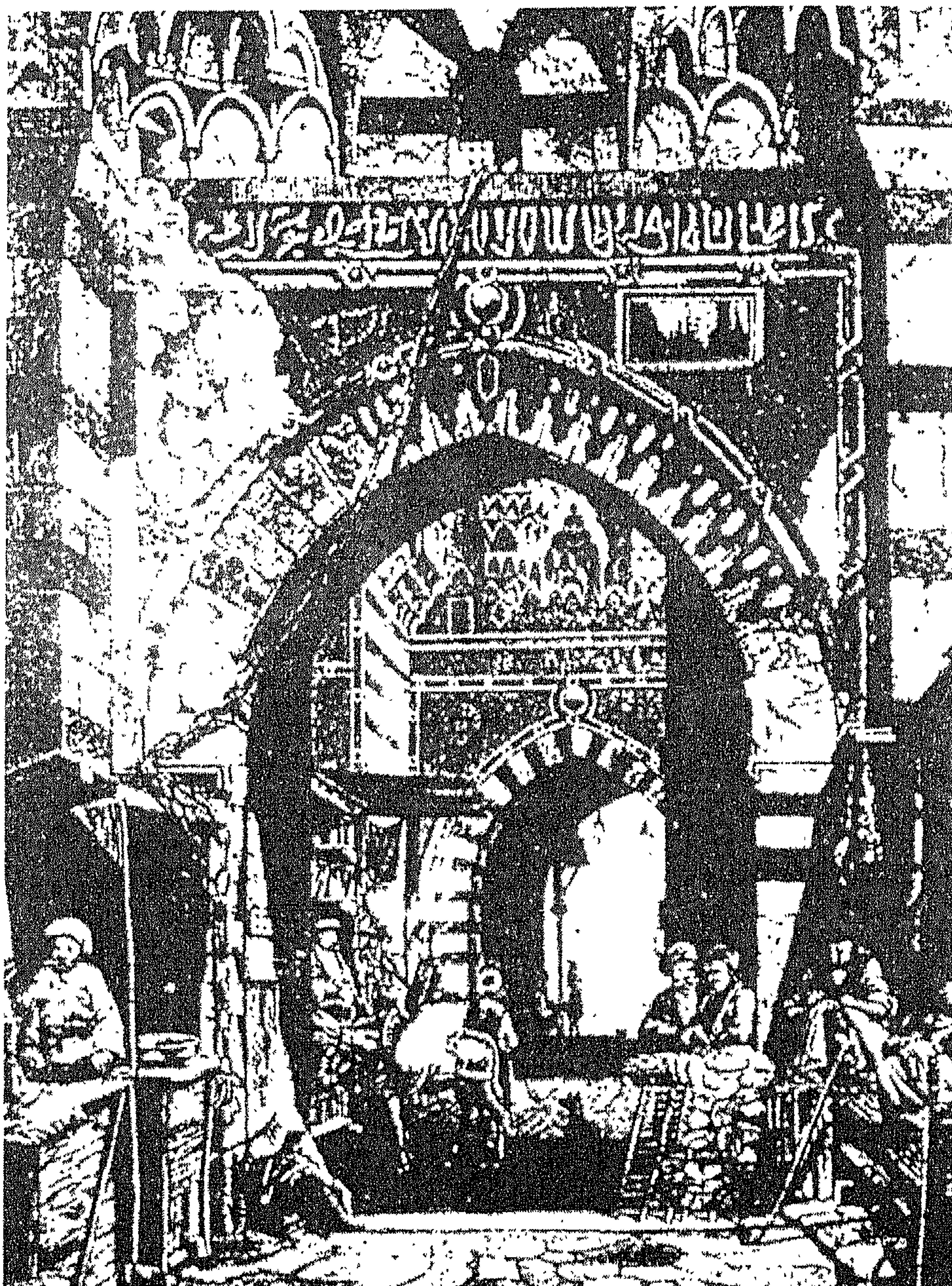
* اضطراب الاحول وخشية الفرنسيس بعد قتل قيادات ثورة القاهرة.

وفيه : كتبوا أوراقا وألصقوها بالأسواق تتضمن العفو والتحذير من إثارة الفتنة، وأن من قتل من المسلمين فى نظير من قتل من الفرنسيس.

وفيه: شرعوا فى إحصا الأملاك والمطالبة بالمقرر، فلم يعارض فى ذلك معارض، ولم يتفوه بكلمة، والذى لم يرض بالتوت يرضى بحطبه.

وفيه: أيضًا قلعوا أبواب الدروب والحارات الصغيرة غير النافذة، وهى التى كانت تركت وسومح أصحابها، وبرطلوا عليها وصالحوا عليها قبل الحادثة، وبرطلوا القلقات والوسايط على إبقايها، كذلك دروب الحسينية.

فلما انقضت هذه الحادثة ارتجعوا عليها وقلعوها ونقلوها إلى ما جمعوه من البوابات بالأزبكية، ثم كسروا جميعها، وفصلوا أخشابها، ورفعوا بعضها على العربات إلى حيث أعمالهم بالنواحى والجهات، وباعوا بعضها حطبا للوقود، وكذلك ما بها من الحديد وغيره.



* بوابات من أبواب القاهرة



* صراف فى سوق طولون.

وفى ليلة الخميس: هجم المنسر على بوابة سوق طولون* كسروها وعبروا منها إلى السوق ـ فكسروا القناديل وفتحوا ثلاثة حوانيت وأخذوا ما بها من متاع المغاربة التجار، وقتلوا القلق [الحرس] الذى هناك، وخرجوا بدون مدافع ولا منازع.

(*) سوق طولون: هو سوق للتجار المغاربة كان إلى جوار جامع طولون ولعل ذلك بسبب تعاون المغاربة مع الفرنساوية فى قمع البلاد الثائرة بالوجه البحرى. انظر ص ١٢٩.

وفى يوم الخميس المذكور: ذهب المشايخ إلى صارى عسكر، وتشفعوا فى ابن الجوسقى شيخ العميان الذى قتل أبوه، وكان معوقا ببيت البكرى، فشفعهم فيه وأطلقوه.

واستهل شهر جمادى ثانية
بيوم السبت ١٢١٣هـ

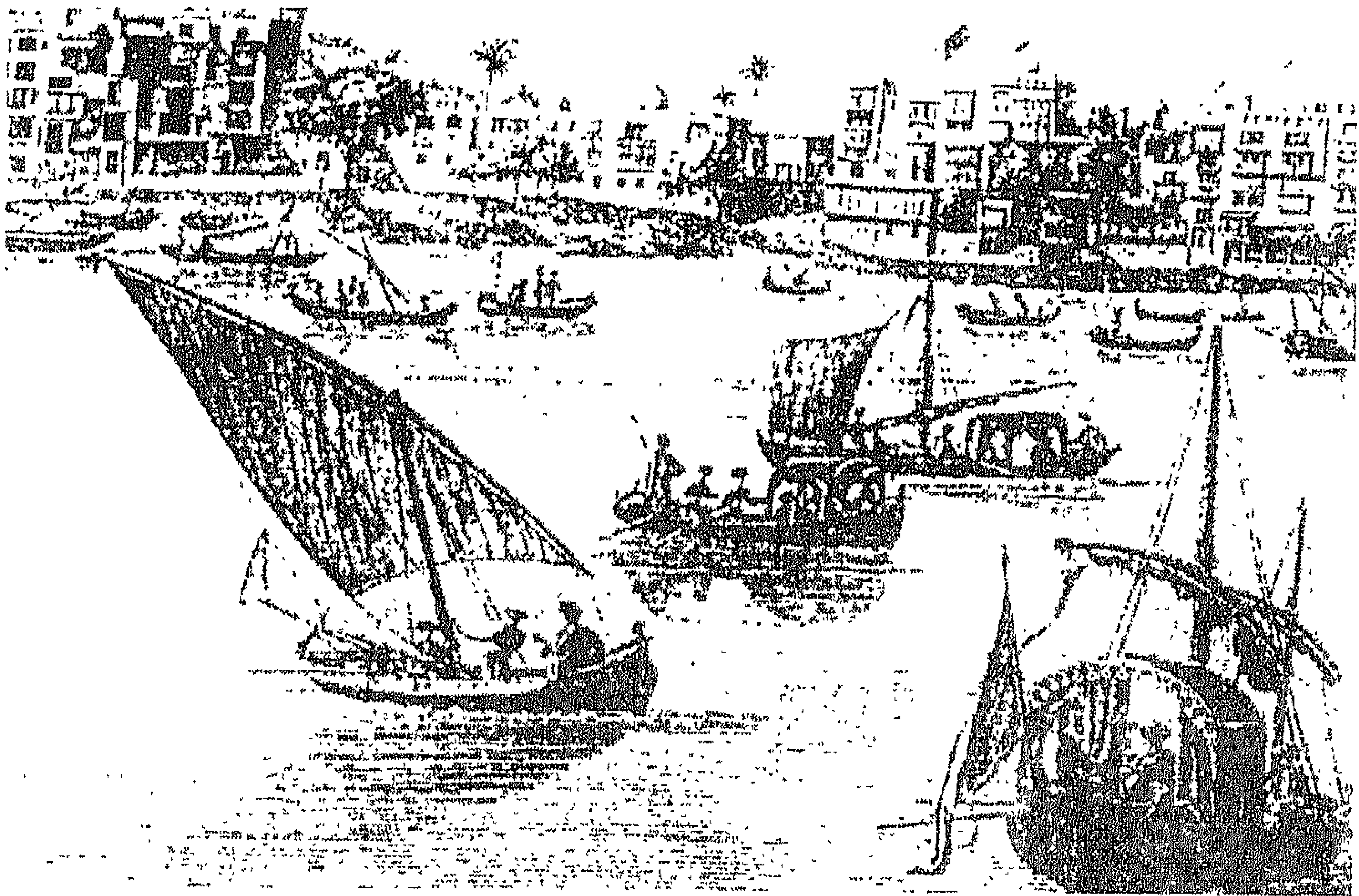
فيه كتبوا عدة أوراق على لسان المشايخ، وأرسلوها إلى البلاد، وألصقوا منها نسخا بالأسواق والشوارع. وصورتها*:

* رسالة من المشايخ إلى الأهالى بالكف عن الثورة ضد الفرنساوية.

«نصيحة من كافة علما الإسلام بمصر المحروسة: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونبرأ إلى الله من الساعين فى الأرض بالفساد. نعرف أهل مصر المحروسة من طرف الجعيدية وأشرار الناس [الذين] حركوا الشرور بين الرعية، وبين العساكر الفرنساوية، بعد ما كانوا أصحابنا وأحبابا بالسّوية. وترتب على ذلك قتل جملة من المسلمين ونهبت بعض البيوت ولكن حصلت ألطاف الله الخفية، وسكنت الفتنة بسبب شفاعتنا عند أمير الجيوش بونابارته، وارتفعت هذه البلية، لأنه رجل كامل العقل، عنده رحمة وشفقة على المسلمين ومحبة إلى الفقرا والمساكين، ولولاه لكانت العساكر أحرقت جميع المدينة ونهبت جميع الأموال، وقتلوا كامل أهل مصر.

فعليكم ألا تحركوا الفتن ولا تطيعوا أمر المفسدين، ولا تسمعوا كلام المنافقين، ولا تتبعوا الأشرار، ولا تكونوا من الخاسرين سفها العقول الذين لا يقرون العواقب. لأجل أن تحفظوا أوطانكم، وتطمينوا على عيالكم وأديانكم، فإن الله سبحانه وتعالى يوتى ملكه من يشا، ويحكم بما يريد. ونخبركم أن كل من تسبب فى تحريك هذه الفتنة قتلوا عن آخرهم، وأراح الله منهم العباد والبلاد، ونصيحتنا لكم أن لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، واشتغلوا بأسباب معايشكم وأمور دينكم، وادفعوا الخراج الذى عليكم ـ والدين النصيحة ـ والسلام».

وفيه: أمروا بقية السكان على بركة الأزبكية وما حولها بالنقلة من البيوت ليسكنوا بها جماعتهم المتباعدين منهم



* بركة الازبكية حيث سكن معظم قواد الحملة الفرنسية

ليكون الكل فى حومة واحدة، وذلك لما داخلهم من المسلمين، حتى إن الشخص منهم صار لا يمشى بدون سلاح بعد أن كانوا من حين دخلوهم البلد لا يمشون به أصلا إلا لغرض، والذى لم يكن معه سلاح يأخذ فى يده عصا، أو سوطاً، أو نحو ذلك، وتنافرت قلوبهم من المسلمين، وتحذروا منهم، وانكف المسلمون عن الخروج والمرور بالأسواق من الغروب إلى طلوع النهار.

ومن جملة من انتقل من الدرب الأحمر إلى الأزبكية كفرلى* المسمى بأبى خشبة، وهو يمشى بها بدون معين، ويصعد الدرج ويهبط منها أسرع من الصحيح، ويركب الفرس ويرمحه وهو على هذه الحالة، ولهم به عناية عظيمة، واهتمام زايد، كان يسكن ببيت مصطفى كاشف طرا.

(*) كفرلى (أبو خشبة).

وفى وقت الحادثة هجمت على [هذه] الدار العامة ونهبوها، وقتلوا منها بعض الفرنساوية وفر الباقون، فأخبروا من بالقلعة الكبيرة، فنزل منها عدة وافرة، وقف بعضهم خارج الدار بعد أن طردوا المزدحمين ببابها، وضربوهم بالبندق، ودخل الباقون فقتلوا من وجدوه بها من المسلمين، وكانوا جملة كثيرة.

وكان بتلك الدار شى كثير من آلات الصنايع والنظارات الغريبة والآلات الفلكية والهندسية والعلوم الرياضية وغير ذلك، مما هو معدوم النظير، كل آلة لا قيمة لها [إلا] عند من يعرف صنعتها ومنفعتها، فبدد ذلك كله العامة وكسروه قطعاً، وصعب ذلك على الفرنسيين جداً، وقاموا مدة طويلة يفحصون عن تلك الآلات، ويجعلون لمن يأتيهم بها عظيم الجعالات، وممن قتل فى وقعة هذه الدار الشيخ محمد الزهار.

وفى خامسه: أفرجوا عن إبراهيم أفندى* كاتب البهار، وتوجه إلى بيته.

* إبراهيم افندى: هو من المتهمين فى إثارة ثورة القاهرة. انظر ص ١٢٩.

وفى ثامنه: قتلوا أربعة من القبط منهم إثنان من النجارين قيل إنهم سكروا فى الخمارة ومروا فى سكرهم، وفتحوا بعض الدكاكين، وسرقوا منها أشيا، وقد تكرر منهم ذلك عدة مرار، فاغتاظ لذلك القبطة.

وفيه: كتبوا عدة أوراق وأرسلوا منها نسخاً للبلاد، وألصقوا منها بالأخطاط والأسواق، وذلك على لسان المشايخ* أيضاً، ولكن تزيد صورتها عن الأولى: وصورتها:

«نصيحة من علماء الإسلام بمصر المحروسة. نخبركم يا أهل المداين والأمصار من المؤمنين ويا سكان الريف من العربان والفلاحين - أن إبراهيم بك ومراد بك، وبقية دولة المماليك أرسلوا عدة مكاتبات ومخاطبات إلى سائر الأقاليم المصرية لأجل تحريك الفتنة بين المخلوقات، وادعوا أنها من حضرة مولانا السلطان، ومن بعض وزرائه بالكذب والبهتان.

وبسبب ذلك حصل لهم شدة الغم والكرب الزايد، واغتاظوا غيظاً شديداً من علما مصر ورعاياها حيث لم يوافقوهم على الخروج معهم، ويتركوا عيالهم وأوطانهم، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة والشر بين الرعية والعسكر الفرنساوية، لأجل خراب البلاد وهلاك كامل الرعية، وذلك لشدة ما حصل لهم من الكرب الزايد بذهاب دولتهم وحرمانهم من مملكة مصر المحمية، ولو كانوا فى هذه الأوراق صادقين بأنها من حضرة سلطان السلاطين لأرسلها جهاراً مع أغوات معينين.

ونخبركم أن الطايفة الفرنساوية بالخصوص عن بقية الطوايف الإفرنجية دايما يحبون المسلمين وملتهم، ويبغضون المشركين، وطبيعتهم أحباب لمولانا السلطان قايمين بنصرته وأصدقا له ملازمون لمودته وعشرته ومعونته، يحبون من والاه، ويبغضون من عاداه.

(*) الموقعين عليه:
١ - خليل البكرى/ نقيب الأشراف.
٢ - مصطفى الصاوى
٣ - محمد الأمير/ مفتى المالكية
٤ - سليمان الفيومى المالكى.
٥ - موسى السرسى الشافعى.
٦ - عبدالله الشرقاوى.
٧ - محمد المهدى الشافعى.
٨ - أحمد العريشى
٩ - محمد الدوغلى الشافعى
١٠ - مصطفى الدمنهورى



* عسكر فرنساوية وقائدهم.

ولذلك بين الفرنساوية والموسكوف غاية العداوة الشديدة من أجل عداوة الموسكوف القبيحة الردية. والطايفة الفرنساوية يعاونون حضرة السلطان على أخذ بلادهم إن شاء الله تعالى، ولا يبقون منهم بقية، فننصحكم أيها الأقاليم المصرية أنكم لا تحركوا الفتن ولا الشرور بين البرية ولا تعارضوا العساكر الفرنساوية بشى من أنواع الأذية، فيحصل لكم الضرر والهلاك، ولا تسمعوا كلام المفسدين، ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون، فتصبحوا على ما فعلتم نادمين، وإنما عليكم دفع الخراج المطلوب منكم لكامل الملتزمين لتكونوا بأوطانكم سالمين، وعلى أموالكم وعيالكم آمنين مطمينين، لأن حضرة صارى عسكر الكبير أمير الجيوش بونابارته اتفق معنا على أنه لا ينازع أحداً فى دين الإسلام ولا يعارضنا فيما شرعه الله من

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



الأحكام، ويرفع عن الرعية ساير المظالم، ويقتصر على أخذ الخراج، ويزيل ما أحدثه الظلمة من المغارم، فلا تعلقوا آمالكم بإبراهيم ومراد، وارجعوا إلى مولاكم مالك الملك وخالق العباد: فقد قال نبيه ورسوله الأكرم: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها بين الأمم، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وفى ثالث عشرة: قتلوا شخصين عند باب زويلة: أحدهما يهودى، لم يتحقق السبب فى قتلهما.

وفيه: أخرجوا من بيت نسيب إبراهيم كتخدا صناديق ضمنها مصاغ وجواهر وأوانى ذهب وفضة وأمتعة وملابس كثيرة.

وفى خامس عشرة: حضر جماعة من الفرنساوية بباب زويلة، وفتحوا بعض دكاكين السكرية، وأخذوا منها سكراً وضاع على أصحابه.

وفيه: دلوا على إنسان عنده صندوقان وديعة لأيوب بك الدفتردار، فطلبوه، وأمروه بإحضارهما، فأحضرهما بعد الإنكار والجحد عدة مرار، فوجدوا ضمنهما أسلحة وجواهر وسبح لؤلؤ وخناجر مجوهرة، وغير ذلك.

وفى عشرينه: كتبوا عدة أوراق مطبوعة، وألصوقها بالأسواق: مضمونها:

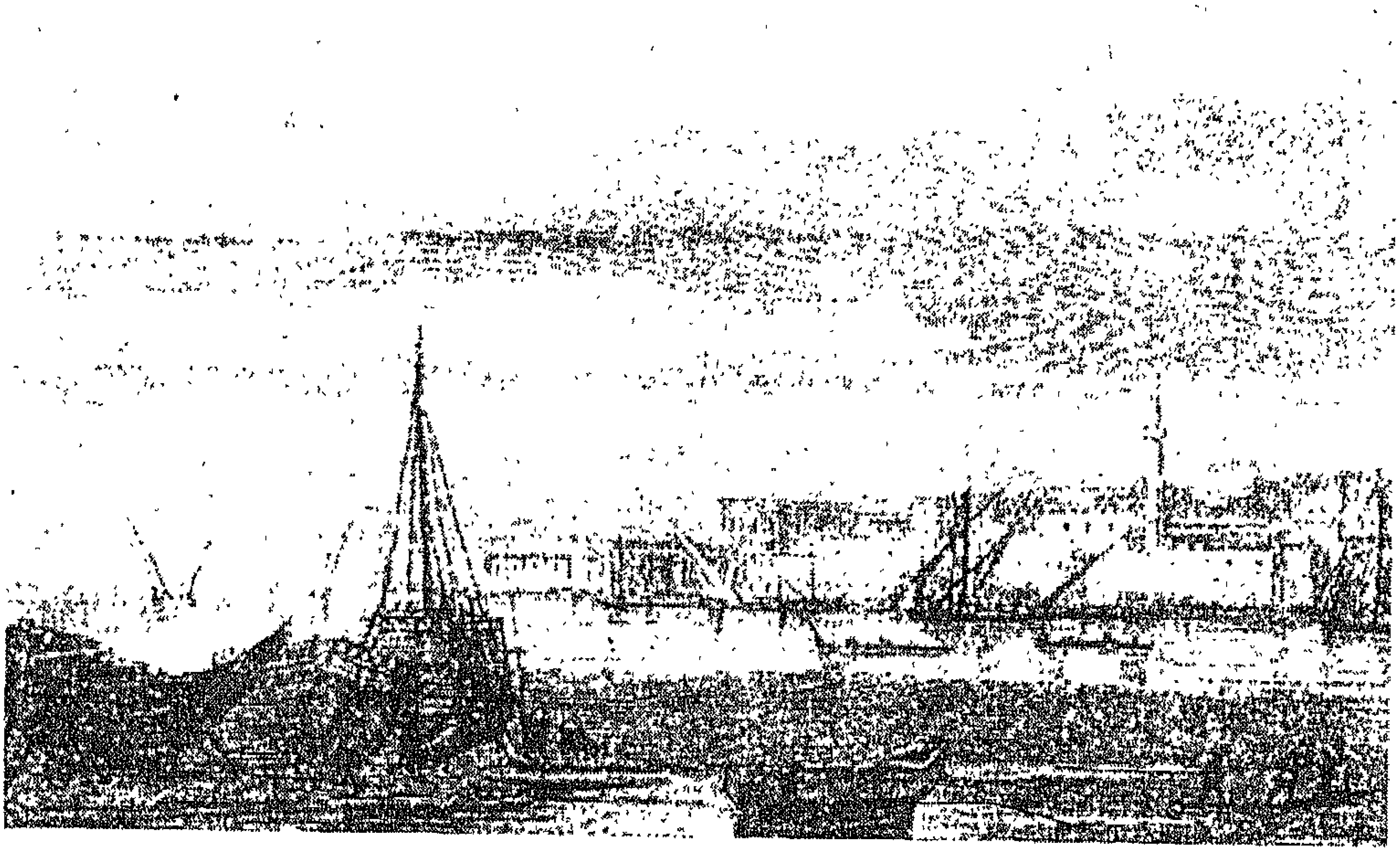
أن فى يوم الجمعة حادى عشرينه قصدنا أن نطير مركباً* ببركة الأزبكية فى الهواء بحيلة فرنساوية. فكثر لغط الناس فى هذا كعادتهم، فلما كان ذلك اليوم قبل العصر تجمع

(*) تجربة البالون الفرنسى الفاشلة.

الناس والكثير من الإفرنج ليروا تلك العجيبة، وكنت بجملتهم، فرأيت قماشا على هيئة الأوية على عمود قايم، وهو ملون أحمر وأبيض وأزرق على مثل دايرة الغربال، وفى وسطه مسرجة بها فتيلة مغموسة ببعض الأدهان، وتلك المسرجة مصلوبة بسلوك من حديد منها إلى الدايرة، وهى مشدودة ببكر وأحبال، وأطراف الأحبال بأيدى أناس قايمين بأسطحة البيوت القريبة منها، فلما كان بعد العصر بنحو ساعة أوقدوا تلك الفتيلة، فصعد دخانها إلى ذلك القماش وملأه، فانتفخ، وصار مثل الكرة، وطلب الدخن الصعود إلى مركزه، فلم يجد منفذاً فجذبها معه إلى العلو، فجذبوها بتلك الأحبال مساعدة لها حتى ارتفعت عن الأرض، فقطعوا تلك الحبال، فصعدت إلى الجو، مع الهواء ومشت هنيهة لطيفة، ثم سقطت طارتها بالفتيلة، وسقط أيضاً ذلك القماش، وتناثر منها أوراق كثيرة من نسخ الأوراق المبصومة [المطبوعة].

فلما حصل لها ذلك انكسف طبعهم لسقوطها، ولم يتبين صحة ما قالوه من أنها على هيئة مركب تسير فى الهواء بحكمة مصنوعة، ويجلس فيها أنفار من الناس ويسافرون فيها إلى البلاد البعيدة لكشف الأخبار وإرسال المراسلات، بل ظهر أنها مثل الطيارة التى يعملها الفراشون بالمواسم والأفراح.

وفى تلك الليلة: طاف منهم أنفار بالأسواق، ومعهم مقاطف بها لحوم مسمومة، فأطعموها للكلاب، فمات منها جملة كثيرة، فلما طلع النهار وجد الناس الكلاب مرمية



* ميناء السويس

وطرحى بالأسواق، وهى موتى، فاستأجروا لها من أخرجها إلى الكيمان. وسبب ذلك أنهم لما كانوا يمرون بالأسواق فى الليل، وهم سكوت كانت الكلاب تنبحهم، وتعدو خلفهم، ففعلوا بها ذلك، وارتاحوا هم والناس منها.

وفى خامس عشرينه: سافر عدة عساكر إلى جهة مراد بك، وكذلك إلى جهة كرداسة بسبب العربان، وكذلك إلى السويس والصالحية، وأخذوا جمال السقايين برواياها وحميرهم، ولكن يعطونهم أجرتهم فشح الماء وغلا، وبلغت القربة عشرة أنصاف فضة.

وفيه: ظفروا بعدة ودايع وخبايا بأماكن متعددة بها صناديق وأمتعة وأسلحة وأوانى صينى وأوانى نحاس قناطير، وغير

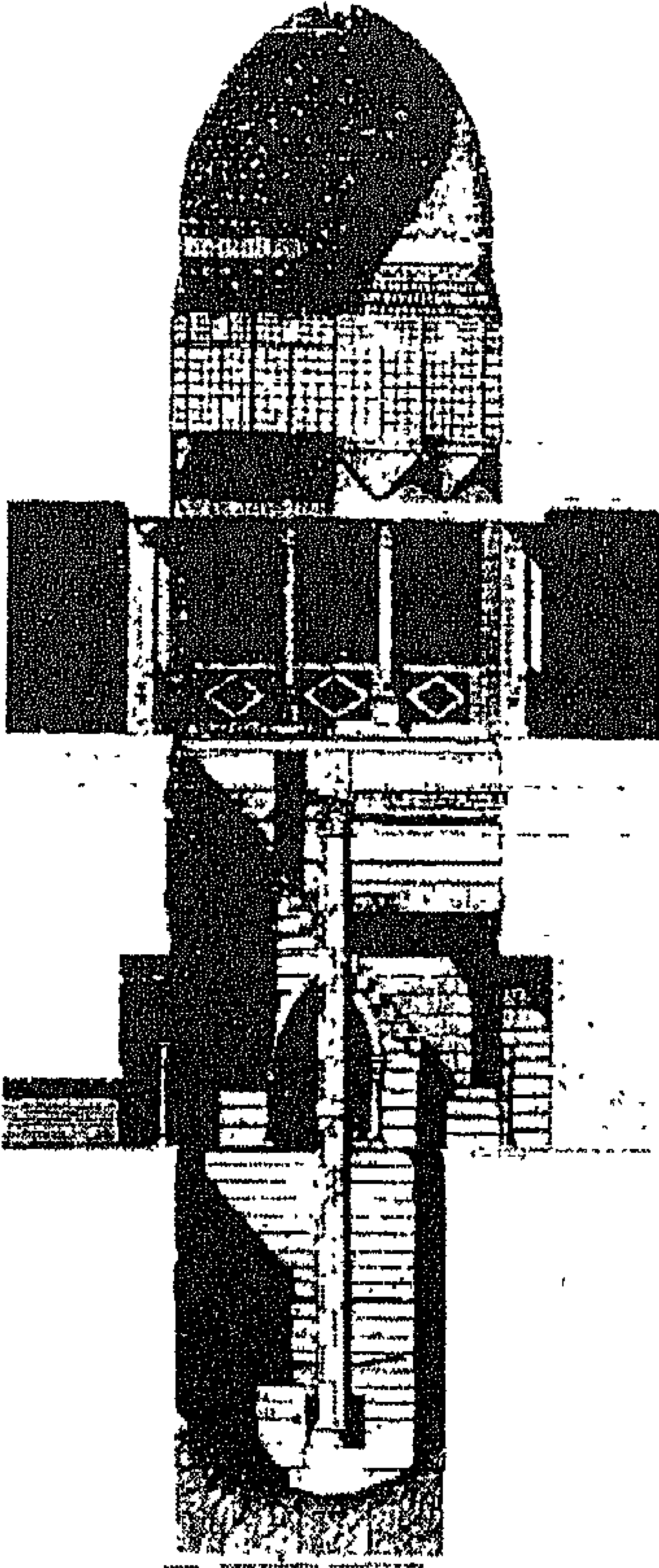
ذلك، وانقضى هذا الشهر، وما حصل به من الحوادث الكلية والجزئية التى لا يمكن ضبطها لكثرتها.

منها أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة منزهة* يجتمع بها النساء والرجال للهو والخلاعة فى أوقات مخصوصة، وجعلوا على كل من يدخل إليه قدراً مخصوصاً يدفعه أو يكون مأذوناً وبيده ورقة.

(*) بناء متنزهات ومسارح خاصة بالفرنساوية فى الأزبكية.

ومنها أنهم هدموا وبنوا بالمقياس والروضة*، وهدموا أماكن بالجيزة، ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون، وجعلوا فى أعلاه طاحونا تدور فى الهواء عجيبة، وتطحن الأرادب من البر، وهى بأربعة أحجار، وطاحونا أخرى بالروضة تجاه مساطب النشاب، وهدموا الجامع المجاور لقنطرة الدكة.

(*) بناء مقياس الروضة من جديد.



وشرعوا فى ردم جهات حوالى بركة الأزبكية، وهدموا الأماكن المقابلة لبيت سارى عسكر حتى جعلوها رحبة، متسعة، وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى والجناين التى خلف ذلك، وقطعوا أشجارها وردموا مكانها بالأتربة الممهدة على خط معتدل من الجهتين مبتدأ من حد بيت سارى عسكر إلى قنطرة المغربى.

وجددوا القنطرة المذكورة، وكانت آلت إلى السقوط، وفعلوا بعدها كذلك الوضع والنسق بحيث صار جسراً عظيماً ممتداً ممهداً مستوياً على خط مستقيم من الأزبكية إلى بولاق، وينقسم بقرب بولاق قسمين: قسم إلى طريق أبى العلا، وقسم يذهب إلى جهة التبانة وساحل النيل،

وبطريقه الطريق المسلوكة الواصلة من طريق أبى العلاء وجامع الخطيرى إلى ناحية المدابغ، وحفروا فى جانبى ذلك الجسر من مبداه إلى منتهاه خندقين، وغرسوا بجانبه أشجاراً وسيسَباناً.

وأحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب، حيث معمل الفواخير، وردموا جسراً ممتداً ممهداً مستطيلاً يبتدىء من الحد المذكور، وينتهى إلى جهة المذبح خارج الحسينية، وأزالوا ما يتخلل بين ذلك من الأبنية والغيطان والأشجار والتلول.

وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب، وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى*، وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى، وأشجار الجسر أيضاً، والأبنية التى بين باب الحديد والرحبة التى بظاهر جامع المقس*، وساروا على المنخفض بحيث صارت طريقاً ممتدة من الأزبكية إلى جهة قبة النصر المعروفة بقبة العزب جهة العادلية* على خط مستقيم من الجهتين.

وقيدوا بذلك أنفاراً منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتدال بكثرة الدوس وحوافز الخيول والبغال والحمير.

وفعلوا هذا الشغل الكبير والفعل العظيم فى أقرب زمن، ولم يسخروا أحداً فى العمل، بل كانوا يعطون الرجال زيادة

(*) بركة الرطلى: هى من جملة أرض الطبالة عرفت ببركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب، وسميت بالرطلى لأنه كان يوجد فيها رجل يصنع الأرطال بزاوية بها. كان الناس يخرجون للنزهة واللهو بها ولاسيما فى أيام وفاء النيل.
(*) جامع المقس: موقعه الآن بميدان رمسيس (باب الحديد) وقد عرف باسم جامع باب البحر ثم بجامع أولاد عنان. ومحله الآن جامع الفتح صاحب أعلى مئذنة فى القاهرة.
(*) العادلية: هى العباسية فى الوقت الحاضر وعرفت بالعادلية نظراً لوجود مقام يعرف بمقام العادل وما زال بها حتى الان.

عن أجرتهم المعتادة، ويصرفونهم من بعد الظهيرة، ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة الأخذ السهلة التناول المساعدة فى العمل، وقلة الكلفة، كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاه عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف يملؤها الفاعل تراباً أو طيناً أو أحجاراً من مقدمها بسهولة بحيث تسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتها المذكورتين، ويدفعها أمامه فتجرى على عجلتها بأدنى مساعدة إلى محل العمل، فيميلها بإحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة، وكذلك لهم فوس وقزم محكمة الصنعة متقنة الوضع، وغالب الصناع من جنسهم، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية على الزوايا القايمة، والخطوط المستقيمة.

وجعلوا جامع الظاهر بيبرس* خارج الحسينية قلعة، ومنارته برجا، ووضعوا على أسواره مدافع، وأسكنوا به جماعة من العسكر، وبنوا فى داخله عدة مساكن تسكنها العسكر المقيمة به، وكان هذا الجامع معطل الشعاير من مدة طويلة، وباع نظاره منه أنقاضاً وعمداً كثيرة.

ومنها: أنهم أحدثوا على التل المعروف بتل العقارب بالناصرية أبنية * وكرانك وأبراجاً، وضعوا فيها عدة من آلات الحرب والعساكر المرابطين فيه، وهدموا عدة دور من دور الأمرا، وأخذوا أنقاضها ورخامها لأبنيتهم، وأفردوا للمدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين

* ظل هذا الجامع رغم صخامته وفخامة بنيانه مهملاً حتى قدوم الحملة الفرنسية التى حولته إلى قلعة عسكرية تم تحول بعد خروج الحملة إلى مخبز للجهديه، وفى ظل الاحتلال البريطانى تحول إلى مذبح عرف بمذبح الإنجليز.

() مرسوم إنشاء المجمع المصرى
أصدر الجنرال بونابرت القائد العام أمرا بتاريخ ٣ فروكتيدور سنة ٦ يقضى بإنشاء مجمع للعلوم والفنون فى القاهرة، أهم اختصاصته ما يلى:
١ – نشر العلوم والمعارف فى مصر والعمل على تقدمها وازدهارها.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية حيث الدرب الجديد،. وما به من البيوت مثل بيت قاسم بك، وأمير الحاج المعروف بأبي يوسف، وبيت حسن كاشف جركس القديم والجديد الذى أنشأه وشيده وزخرفه وصرف عليه أموالا عظيمة من مظالم العباد، وعند تمام بياضه وفرضه حدثت هذه الحادثة؛ ففر مع الفارين وتركه.

فيه جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة، ومن يريد المراجعة فيراجعون فيها مرادهم فتجتمع الطلبة منهم كل يوم قبل الظهر بساعتين، ويجلسون فى فسحة المكان المقابلة لمخازن الكتب على كراسى منصوبة موازية لتختاة عريضة مستطيلة، فيطلب من يريد المراجعة ما يشاء منها، فيحضرها الخازن، فيتصفحون ويراجعون ويكتبون حتى أسافلهم من العساكر.

وإذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد الفرجة لا يمنعونه الدخول إلى أعز أماكنهم، ويتلقونه بالبشاشة والضحك، وإظهار السرور بمجيئه إليهم، وخصوصا إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر فى المعارف -بذلوا له مودتهم ومحبتهم، ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكورات البلاد [الخرائط]، والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات، وتواريخ القدما وسير الأمم وقصص الأنبياء بتصاويرهم وآياتهم ومعجزاتهم، وحوادث أممهم مما يحير الأفكار.

٢ - القيام بالبحوث والدراسات الخاصة بالشئون الطبيعية والصناعية والتاريخية المصرية، وإصدار الكتب والنشرات المتعلقة بها.

وقد تم إنشاء المجمع، وهو يحتوى على أربعة أقسام: الرياضيات - الطبيعة - الآداب والفنون - الاقتصاد السياسى. ويضم كل قسم ١٢ عضوا. وقسم الرياضيات هو القسم الوحيد الذى اكتمل عدد أعضائه حاليا، والمقاعد الشاغرة هى: ٢ فى قسم الطبيعة و ٦ فى قسم الاقتصاد السياسى و ٤ فى قسم الآداب والفنون الجميلة.

قائمة بأعضاء المجمع

الرياضيات

لوروا	Leroi
مالوس	Malus
مونج	Monge
نوييه	Neuet
كيسنو	Quesnot
سى	Say
اندريوسى	Andreossy
بونابرت	Bonaparte
كوستاز	Costaz
فورييه	Fourier
جيرار	Girard
لوبير	Le Pére

الطبيعة

ديجينيت	Desgenettes
دولوميو	Dolomieu
دوبوا	Dubois
جيوفروى	Geoffroy
سافينى	Savigny
بيرتوليه	Bertholet
شامبى	Champy
كونتيه	Conté
ديليل	Delille
ديسكوتيل	Descotils

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

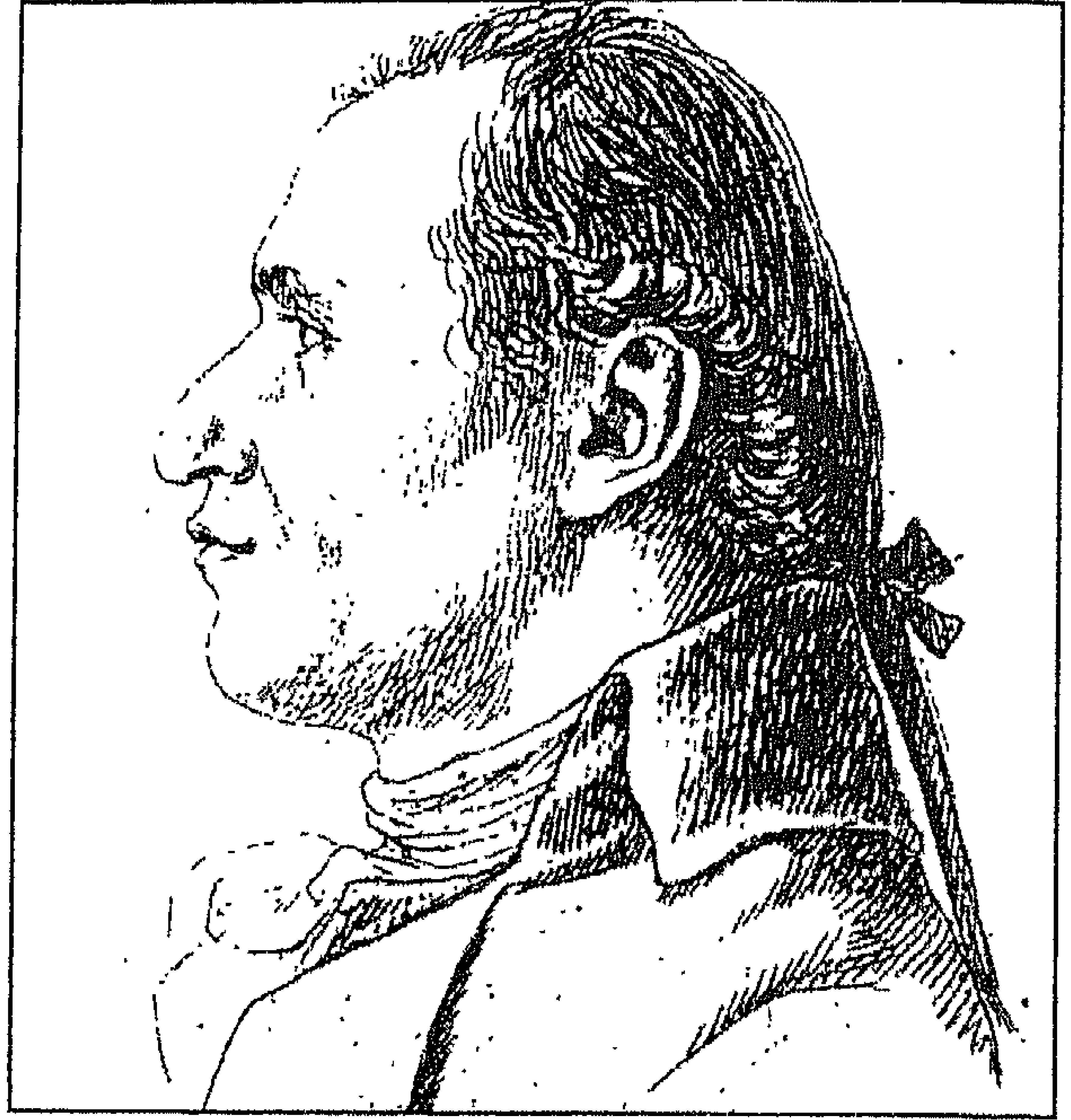
الاقتصاد السياسى

شولكوسكى	Shulkouski
سوسى	Sucy
تاليان	Tallien
كافاريللى	Cafarelli
جلوتييه	Gloutier
بوسيلج	Peussielgue

الآداب والفنون

د. رافائيل	D.Raphael
رودوتيه	Redouté
ريجيل	Rigel
فنتور	Venture
دينون	Denon
دوتيرتر	Dutertre
نورى	Norry
بارسيفال	Parseval

صحف بونابرت فى مصر. صحيفة لا ديكاد ايجبسين. العدد الأول ص ١٤ ، ١٥.



* مونج: عضو الرياضيات

ولقد ذهبت إليهم مراراً، وأطلعونى على ذلك، فمن جملة ما رأيته كتاب* كبير يشتمل على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم، وهو قايم على قدميه ناظر إلى السماء كالمرهب للخليقة وبيده اليمنى السيف وفى اليسرى الكتاب [المصحف]، وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف، وفى صفحة أخرى صورة الخلفاء الراشدين، وفى الأخرى صورة المعراج والبراق، وهو صلى الله عليه وسلم راكب عليه من صخرة بيت المقدس، وصورة بيت المقدس والحرم المكى والمدنى، كذلك صورة الأئمة المجتهدين، وبقية الخلفاء والسلاطين، ومثال إسلامبول وما بها من المساجد العظام كآيا صوفية، وجامع السلطان سليمان، وهيئة صلاة الجمعة فيه، وأبى أيوب الأنصارى، وهيئة صلاة الجنازة فيه.

(*) يبدو أن هذا الكتاب كان النسخة الأصلية لكتاب وصف مصر قبل أن تحذف منه صورة النبى وما ذكره الجبرتى هنا.



* مالوس: عضو الرياضيات

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م


* كوستاز: عضو الرياضيات


* فورييه: عضو الرياضيات


* جيرار: عضو لجنة الطبيعة، وقد ذكر بالخطاء فى لجنة الرياضيات فى مجلة ديكار الجيبيين

وصور البلدان والسواحل والبحار والأهرام وبرابى الصعيد، والصور والأشكال والأقلام المرسومة بها، وما يختص بكل بلد من أجناس الحيوان والطيور والنبات والأعشاب وعلوم الطب والتشريح والهندسيات وجر الأثقال.

وكثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم، ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضى عياض، ويعبرون عنه بقولهم: شفا شريف، والبردة للبوصيرى، ويحفظون جملة من أبياتها وترجموها بلغتهم، ورأيت بعضهم يحفظ سورا من القرآن.

ولهم تطلع زايد للعلوم وأكثرها الرياضة ومعرفة اللغات واجتهاد كبير فى معرفة اللغة والمنطق، ويدأبون فى ذلك الليل والنهار.

وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت.

وعند توت الفلكى وتلامذته فى مكانهم المختص بهم الآلات الفلكية الغريبة المتقنة الصنعة وآلات الارتفاعات البديعة العجيبة التركيب العالية الثمن المصنوعة من الصفر [النحاس] المموه، وهى تركب ببراريم مصنوعة محكمة، كل آلة منها عدة قطع تركب مع بعضها البعض برباطات وبراريم لطيفة بحيث إذا ركبت صارت آلة كبيرة أخذت قدرا من الفراغ، وبها نظارات وثقوب ينفذ النظر منها إلى المرئى، وإذا انحل تركيبها وضعت فى ظرف صغير.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م


* جيوفروى: عضو الطبيعة


* دولوميو: عضو الطبيعة


* سافين: عضو الطبيعة


* ديليل: عضو الطبيعة

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

وكذلك نظارات للنظر فى الكواكب وأرصادها، ومعرفة مقاديرها وأجرامها وارتفاعاتها واتصالاتها ومناظراتها، وأنواع المنكابات والساعات التى تسير بثوانى الدقايق الغريبة الشكل الغالية الثمن، وغير ذلك.

وأفردوا لجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السنارى، وهم المصورون لكل شى، ومنهم أريجو المصور، وهو يصور صور الآدميين تصويراً يظن من يراه أنه بارز فى الفراغ مجسم يكاد ينطق، حتى إنه صور صورة المشايخ كل واحد على حدته فى دايرة، وكذلك غيرهم من الأعيان، وعلقوا ذلك فى بعض المجالس سارى عسكر.

وآخر فى مكان آخر يصور الحيوانات والحشرات، وآخر يصور الأسماك والحيتان بأنواعها وأسمائها، ويأخذون الحيوان



* شولكوسكى: عضو الاقتصاد السياسى.



* تاليان: عضو الاقتصاد السياسى



* رودوتيه: عضو الآداب والفنون

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

أو الحوت الغريب الذى لا يوجد ببلادهم فيضعون جسمه بذاته فى ماء مصنوع حافظ للجسم [الفورمالين]، فيبقى على حالته وهيئته لا يتغير ولا يبلى، ولو بقى زمناً طويلاً.

وكذلك أفردوا أماكن للمهندسين وصناع الدقايق، وسكن الحكيم (رويبا) ببيت ذى الفقار كتخدا بجوار ذلك ووضع آلاته ومساحقه وأهوانه فى ناحية، وركب له تنانير وكوانين لتقطير المياه والأدهان واستخراج الأملاح، وقدورا عظيمة وبرامات، وجعل له مكانا أسفل وأعلى وبهما رفوف عليها القدور المملوة بالتراكيب والمعاجين والزجاجات المتنوعة وبها كذلك عدة من الأطباء والجرايحية.

وأفردوا مكانا فى بيت حسن كاشف جركس لصناعة الحكمة والطب الكيماوى، وبنوا فيه تنانير مهندمة وآلات تقاطير عجيبة الوضع، وآلات تصاعيد الأرواح، وتقاطير المياه، وخلاصات المفردات وأملاح الأرمدة المستخرجة من الأعشاب والنباتات، واستخراج المياه الجلاءة والحلالة، وحوله المكان الداخل قوارير وأوان من الزجاج البلورى المختلفة الأشكال والهيئات على الرفوف والسدلات، وبداخلها أنواع المستخرجات.

ومن أغرب ما رأيته فى ذلك المكان: أن بعض المتقدمين لذلك أخذ زجاجة من زجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة فصب منها شيأ فى كأس، ثم صب عليها شيأ من زجاجة أخرى – فعلا المآن وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما فى الكاس، وصار حجرا أصفر فقلبه على البرجات حجرا يابسا أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك



* ينون: عضو الآداب والفنون، وقد أشتهر برسومه العديدة فترة الحملة.



* كافاريللى: عضو الاقتصاد السياسى

بمياه أخرى فجمد حجرا أزرق وبأخرى فجمد حجرا أحمر ياقوتيا، وأخذ مرة شيأ قليلاً جداً من غبار أبيض ووضعه على السندال وضربه بالمطرقة بلطف - فخرج له صوت هايل كصوت القربانة انزعجنا منه - فضحكوا منها، وأخذ مرة زجاجة فارغة مستطيلة فى مقدار الشبر ضيقة الفم فغمسها فى ماء قراح موضوع فى صندوق من الخشب مصفح من الداخل بالرصاص، وأدخل معها أخرى على غير هيئتها، وأنزلهما فى الماء، وأصعدهما بحركة انحبس بها الهواء في إحداهما، وأتى آخر بفتيلة مشتعلة وأبرز ذلك فم الزجاجة من الماء وقرب الآخر الشعلة إليها فى الحال فخرج ما فيها من الهواء المحبوس، وفرقع بصوت هايل أيضاً.



* دوتيرتر: عضو الآداب والفنون. ومعظم الشخصيات المرسومة هنا برشيته.

وغير ذلك الأمور كثيرة وبراهين حكمية تتولد من اجتماع العناصر وملاتاة الطبايع ومثل الفلكة المستديرة التى يديرون



* نورى: عضو الآداب والفنون.

بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شي كثيف، ويظهر له صوت طقطقة، وإذا مسك علاقتها شخص ولو خيطا لطيفا متصلا بها ولمس آخر الزجاجة الدايرة، أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه* وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيأ من ثيابه أو شيأ متصلا به حصل له ذلك، ولو كانوا ألفا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتايج لا يسعها عقول أمثالنا.

(*) بدايات فكرة توليد الكهرباء.



* بارسيڤال: عضو الآداب والفنون.

وأفردوا أيضاً مكانا للنجارين وصناع الآلات والأخشاب وطواحين الهوا والعربات واللوازم لهم في أشغالهم وهندساتهم وأرباب صنايعهم.

ومكان آخر للحدادين وبنوا فيه كوانين عظاماً وعليها منافيخ كبار يخرج الهواء متصلا كثيراً بحيث يجذبه النافخ من أعلى بحركة لطيفة، وصنعوا السندانات والمطارق العظام لصناعات الآلات من الحديد والمخارط وركبوا مخارط عظيمة لخرط القلوزات الحديد العظيمة.

ولهم فلكات مثقلة يديرها الرجال للمعلم* الخراط للحديد بالأقلام المتينة الجافية، وعليها حق صغير معلق مثقوب، وفيه ماء يقطر على محل الخرط لتبريد النارية الحادثة من الاصطكاك، وبأعلى هذه الأمكنة صناع الأمور الدقيقة مثل البركارات وآلات الساعات والآلات الهندسية المتقنة، وغير ذلك.

(*) آلات الخراطة.

شهر رجب سنة ١٢١٣

استهل بيوم الأحد فى* ثالثه قتلوا شخصا من الأجناد يقال له مصطفى كاشف من جماعة حسين بك المعروف بشفت [اليهودى]، وكان قد فر مع الفارين ثم رجع من غير استيذان، وأقام أياما مستترا ببيت الشيخ سليمان الفيومى، فسلمه لمصطفى أغا مستحفظان ليأخذ له أمانا، فأخبر الفرنسيس بشأنه وأغراهم عليه، فأمروه بقتله، فقطع رأسه، وطافوا بها ينادون عليها بقولهم: «هذا جزا من يدخل إلى مصر بغير إذن الفرنسيس».

* يذكر الجبرتى فى مخطوطة «ليدن» (انظر ملحق ٢٦) أنه فى نفس هذا اليوم عمل الشيخ السادات مولد السيدة زينب بقناطر السباع ودعى صارى عسكر بونابرته فحضر فى عصريتها فى البيت الذى سكن به الشيخ وهو بيت أيوب بك الجداوى وتعشى هناك هو وخواصه ثم ركب وعاد إلى «داره».
ولعل الجبرتى حذف هذا الحدث من هذا اليوم كما حذفه من كتاب «مظهر التقديس» مراعاة لجانب السادات وحفاظا على سمعته لدى العثمانيين بعد عودتهم.

وفى يوم الخميس حضر كبير الفرنسيس الذى بناحية قليوب وصحبته سليمان الشواربى شيخ الناحية وكبيرها فلما حضر حبسوه بالقلعة، قيل إنهم عثروا له على مكتوب أرسله وقت الفتنة السابقة إلى سرياقوس لينهض أهل تلك النواحى فى القيام، ويأمرهم بالحضور وقت أن يرى الغلبة على الفرنسيس، ولما حبسوه حبسوا معه أربعة من الأجناد أيضا.

وفيه أحدثوا مزمارا يضربونه فى كل وقت الزوال، لأن ذلك الوقت عندهم ابتداء اليوم

* مزمار [نفير] تحديد وقت الزوال.

وفى يوم الأربعا عاشره نادوا فى الأسواق بأن من أراد أن يشترى فرسا أو حمارا فليحضر يوم الجمعة ثالث عشره ببولاق ويشترى من الفرنسساوية ما أحب من ذلك، وكتبوا بذلك أوراقا وألصقوها بالأسواق والأزقة وهى مطبوعة وعليها الصورة، ونصها:

فليكن معلوما عند كافة الرعايا المصرية أن فى يوم الجمعة ثلاثة عشر من شهر رجب الساعة اثنين يباع فى بولاق جملة خيل من المشيخة الفرنساوية فلأجل هذا المشترى كل من أراد أن يقتنى خيلا فمنحنا له الإجازة أنه يقتنى كما يريد ويشاء. انتهى».

وفى يوم الاثنين سادس عشره سافر سارى عسكر بونابارته إلى السويس*.

وأخذ صحبته السيد أحمد المحروقى وإبراهيم أفندى كاتب البهار وأخذ معه أيضا بعض المديرين والمهندسين والمصورين وجرجس الجوهرى، وألطون أبو طاقية، وغيرهم، وعدة كثيرة من عساكر الخيالة والمشاة وبعض مدافع وعربات وتختروان وعدة جمال لحمل الذخيرة والماء والقومانية.

وفيه شرعوا فى ترتيب الديوان* على تنظيم آخر وعينوا له ستين نفرا، منهم أربعة عشر يقال لهم خصوص، وهم الذين يحضرون دايما، ويقال لهم الديوان الخصوصى والديوان الديمومى، والباقى بحسب الاقتضا، والأربعة عشر هم: من المشايخ / الشرقاوى والمهدى والصاوى والبكرى والفيومى، ومن التجار/ المحروقى وأحمد محرم، ومن النصارى القبطة/ لطف الله المصرى، ومن الشوام / يوسف فرحات ومخاييل كحيل ورواحة الإنكليزى وبودنى وموسى كافرلى الفرنساوى، ومعهم وكلا ومباشرون من الفرنسيس ومترجمون.

وأما العمومى فأكثرهم مشايخ حرف، وكتبوا بذلك طومار كبيرا بصموا منه نسخا كثيرة، وأرسلوا منها نسخا كثيرة

* غادر بونابرت القاهرة متجها إلى السويس بصحبة عدد من ضباطه ومن علماء الحملة الفرنسية. وكانت القافلة تتكون من ٣٠٠ شخص ومنهم عدد من تجار القاهرة، ولقد اجتمع بونابرت مع قباطنة السفن الراسية فى ميناء السويس وتحدث معهم عن التجارة فى البحر الأحمر فقد افهمهم أن نية الجمهورية هى حماية التجارة والمشتغلين بالملاحة ومساعدتهم بجميع الطرق ـ وأصدر بونابرت أمامهم قرارا بتخفيف الرسوم الجمركية التى تحصل عن البن المستورد.

* ترتيب الديوان الجديد (انظر هامش ص ١٣٠).

السفر إلى السويس

غادر الجنرال بونابرت القاهرة فى ١٤ نيفوز متجها إلى السويس بصحبة الجنرالات برتييه Berthier ودومارتان Dommartin وكافاريللى Gaffarell والاميرال جانتوم Gantaume.

وقد انتهز هذه الفرصة المواطنون برتوليه Berthollet ومونج Monge ودوتيرتر Dutertre وديكوتيل Descotils ولوبير المهندس وكوستاز Costaz أعضاء المعهد المصرى

فزاروا هذه البقعة من الأرض الشهيرة بموقعها الجغرافي وبتاريخها التجارى.

كانت القافلة تتكون من ٣٠٠ شخص يسيرون، البعض منهم على الأقدام والبعض الآخر يركبون الخيل، ومعهم عدد الجمال الكافية لنقل المياه والمؤن والزاد.

وقد انضم إلى القافلة تجار من القاهرة استدعتهم تجارتهم إلى السفر إلى السويس وهم مطمئنون جدا مع الفرنسيين على غير ما اعتادوا عليه مع قوافل أخرى.

قضينا ليل ٤/٥ نيفوز بالقرب من بركة الحاج (بحيرة الحجاج) ولناهناك مركز حصين، وكان للرومان من قبلنا مركز حصين ايضا اطلقوا عليه اسم (مخيمات قدماء العسكريين).

وفى ليل اليوم الخامس توقفت القافلة بالقرب من شجرة العامرة التى كانت تشاهد منعزلة وسط سهل فسيح الأرجاء تغطية الحجارة، وعلى مسيرة بضع ساعات قبل الوصول إليها. ويقع هذا السهل فى المرتفعات الواقعة بجانب الطريق المؤدى من البحر المتوسط إلى البحر الأحمر. وهذه الجهة قارسة البرد ولا تتوفر فيها أية وسائل تمكننا من أن نضرم نارا ونبقى على وقودها. وقد قررنا عدم المساس بهذه الشجرة فضلا عن أن الجنرال بونابرت نفسه أمر بضرب خيمته تحتها لحمايتها من كل من تسول له نفسه بتر هذه الشجرة ذات المنظر الجميل الخلاب للمسافرين وسط هذه الطبيعة الموحشة، وهذه البقاع الصحراوية التى لا نهاية لها.

وقد تركنا شجرة العامرة فى الثالثة صباحا وقد أسرع الجنرال بونابرت الذى كان طوال اليوم السابق يصاحب القافلة فى مسيرها إلى الانفصال عن القافلة وفى معيته بقية الجنرالات. وقد عقد العزم على ان يصل إلى السويس فى اليوم ذاته. اما بقية القافلة فقد أمضت الليل بالقرب من بئر عجرود التى يبلغ عمقها حوالى ١٠٠ متر. هذه البئر ماؤها ملح لا يشربه الإنسان، ولكن الجمال والخيول العربية ترتوى منه. وقد بنى حولها سور على كل جانب منه برج، وشيد على مقربة من هذه البئر قصر تداعى الآن إلى السقوط. هذه المبانى كلها عربية، والغرض منها تأمين الانتفاع من البئر لكى ترتوى منها خيول ودواب القوافل الخاصة بحجاج مكة المكرمة.

من أجل ذلك كانت الجمال ترسل قبل مرور القافلة بها بحوالى شهر أو شهرين لإدارة جهاز خاص لرفع المياه منها وصبها فى قدوات مؤدية إلى ثلاثة خزانات كبيرة مبنية ومبطنة بالاسمنت لمنع تسرب المياه فى جوف الأرض. وقد أقيم حول هذه الخزانات عدد كبير من الأحواض لاستعمالها مساقى للحيوانات.

وقد أمر القائد العام بإجراء كل الإصلاحات اللازمة لجهاز تشغيل البئر وإعداده للعمل فوراً.

تبعد بئر عجرود عن السويس بمسيرة حوالى خمس ساعات وقبل الوصول إلى المدينة بساعة واحدة نجد بئر السويس ومياهها أقل ملوحة من بئر عجرود.

وفى يوم ٧ نيفوز طلب قباطنة السفن الرأسية فى الميناء المثول أمام الجنرال بونابرت فقابلوه فى خيمته وكلهم سواء من الأقطار الحجازية أو اليمنية يمارسون الملاحة بين موانىء البحر الأحمر وقد أكد أحدهم وهو من مسقط خبر ما استولى عليه البريطانيون من المواطنين الفرنسيين فى جزيرة فرنسا (حاليا جزيرة موريس) واضاف قائلاً: عند مغادرته مسقط كانت الشائعات قد انتشرت عن دخول ٧٠ قطعة حربية فرنسية إلى البحر الأحمر قادمة إلى السويس. أن مشاعر حاكم مسقط نحو الفرنسيين طيبة جداً، فقد قاوم دائما الحاح البريطانيين فى اغلاق موانىء هذا البلد فى وجهنا.

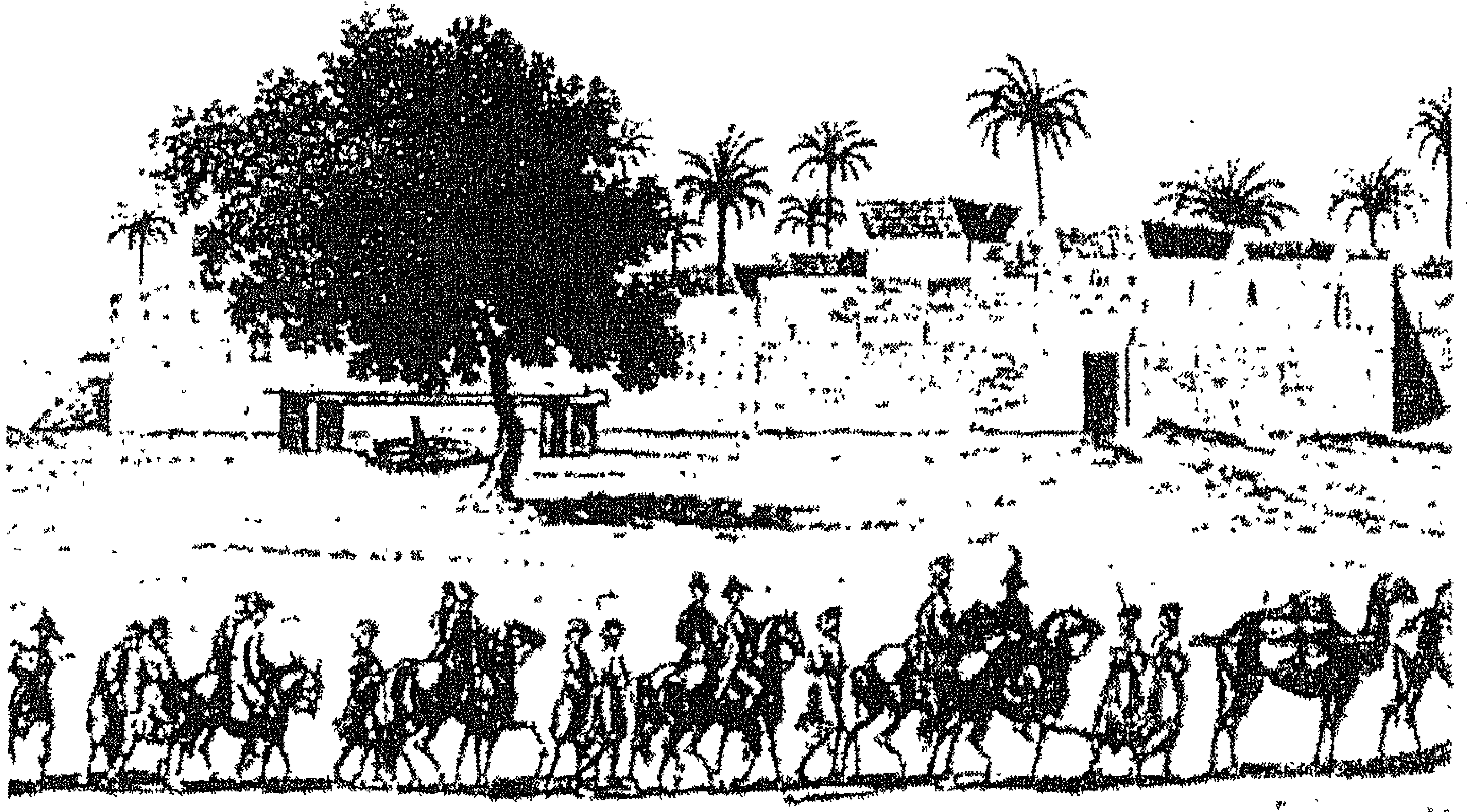
لقد استمع الجنرال بونابرت إلى جميع القباطنة وتحدث معهم عن التجارة فى البحر الأحمر وقد أفهمهم أن نية الجمهورية هى حماية التجارة والمشتغلين بالملاحة ومساعدته بجميع الطرق. وقد فض المجلس بعد أن أصدر أمامهم أوامره بتخفيف الرسوم الجمركية التى تحصل عن البن المستورد.

للأعيان، وألصقوا منها بالأسواق على العادة، وأرسلوا للذين عينوا بالديوان أوراقا بأسمايهم شبه التقارير وصورة صدر ذلك الطومار المكتتب فى شأن ذلك، وقد أوردت ذلك، وإن كان فيه بعض طول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول والتسلق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل فضلا عن النظر، وهى مقولة على لسان بونابارته كبير الفرنسيس ونصه*.

* نشر فى ١٦ رجب ١٢١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

من أمير الجيوش الفرنساوى خطابا إلى كافة أهالى مصر الخاص والعام نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقا أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة، والبارى سبحانه وتعالى أمرنى بالشفقة والرحمة على العباد فامتثلت أمره وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم، ولكن كان حصل عندى غيظ وغم شديد بحسب تحريك هذه الفتنة بينكم ولأجل ذلك أبطلت الديوان الذى كنت رتبته لنظام البلد وصلاح أحوالكم من مدة شهرين، والآن توجه خاطرنا إلى ترتيب الديوان كما كان لأن حسن أحوالكم ومعاملتكم فى المدة المذكورة أنسانا ذنوب الأشرار وأهل الفتنة التى وقعت سابقا. أيها العلما والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم، ولا ينجو من بين يدى الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه



* جنود الحملة فى الطريق إلى السويس مع بونابرت

وتعالى، والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله تعالى وارادته وقضايه، ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة، وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعدا الإسلام وتكسير الصلبان على يدى، وقدر فى الأزل أنى أجى* من الغرب إلى أرض مصر لهلاك الذين ظلموا فيها، وإجراء الأمر الذى أمرت به ولا يشك العاقل أن هذا كله بتقدير الله وإرادته وقضاه، وأعلموا أيضا أمتكم أن القرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل وأشار فى آيات أخرى إلى أمور تقع فى المستقبل، وكلام الله فى كتابه صدق وحق لا يتخلف، إذا تقرر هذا وثبتت هذه المقالات فى آذانكم فلترجع أمتكم جميعا إلى صفاء النية وإخلاص الطوية فإن منهم من يمتنع عن الغى وإظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوتى، ولم يعلموا أن الله مطلع على

* يشير بونابرت هنا إلى انه المهدى المنتظر.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

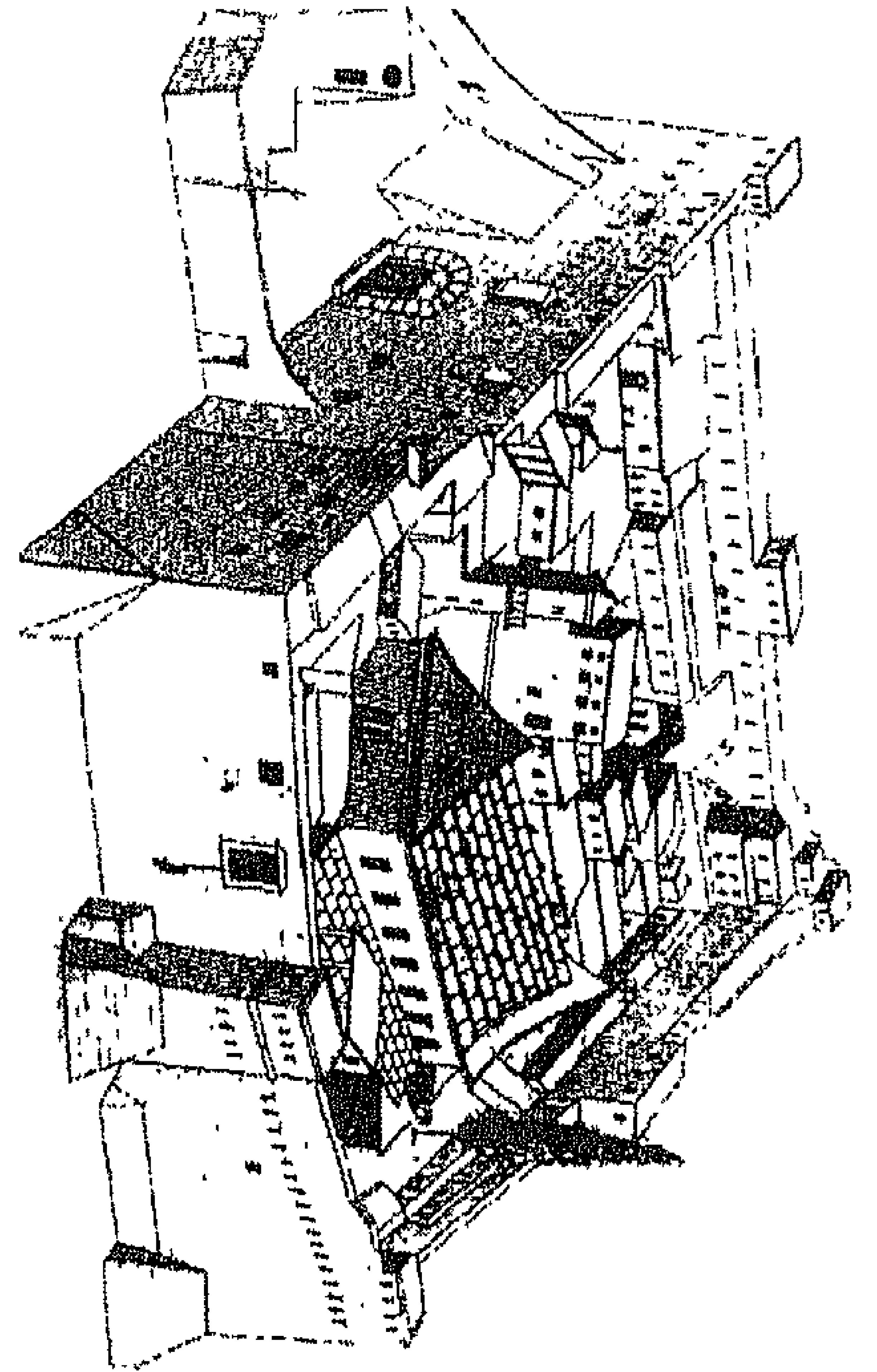
السراير يعلم خاينة الأعين وما تخفى الصدور والذى يفعل ذلك يكون معارضا لأحكام الله ومنافقا وعليه اللعنة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا أيضا أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل أحد منكم لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ولكن يأتى وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلت وحكمت به فهو حكم إلهى لا يرد، وأن اجتهاد الإنسان غاية جهده وما يمنعه عن قضا الله الذى قدره وأجراه على يدى، فطوبى للذين يسارعون فى اتحادهم وهمتهم مع صفا النية وإخلاص السريرة والسلام.

ورتبوا لأرباب الديوان الديمومى شهرية تدفع إليهم نظير تقيدهم بمصالح العامة والدعاوى وما يترتب عليه النظام بينهم وبين المسلمين.

وفى ثامن عشره طافوا على الطواحين واختاروا من كل طاحون فرسا أخذوها.

وفى رابع عشرينه حضر السيد المحروقى وكاتب البهار من السويس، وكان سارى عسكر ذهب إلى ناحية بلبيس فاستأذنوه فى ذهابهم إلى مصر فأذن لهم، وأرسل معهم خمسين عسكريا ليوصلوهم إلى مصر، فلما حضروا حكوا أن أهل السويس لما بلغهم مجى الفرنساوية هربوا وأخلوا البلدة فذهبوا إلى الطور وذهب البعض إلى العرب بالبادية، فنهب الفرنسيس ما وجدوه بالبندر من البن والمتاجر والأمتعة وغير ذلك، وهدموا الدور وكسروا الأخشاب وخوابى الماء، فلما حضر كبيرهم وكان متأخرا عنهم، كلمه التجار

* دير جبل الطور (سانت كترين).



الذاهبون معه وأعلموه أن هذا الفعل غير صالح، فاسترد من العسكر بعض الذى أخذوه ووعدهم باسترجاع الباقى أو دفع ثمنه بمصر، وأن يكتبوا قايمة بالمنهوبات.

ثم إنه وجد مركبين حضرا إلى قريب من السويس بهما بن ومتاجر فغرقت* إحداهما فنزلت طايفة من الفرنسيس فى مراكب صغار وذهبوا إليها فى الغاطس وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها من علم جر الأثقال.

وفى مدة إقامته بالسويس صار يركب ويتأمل فى النواحى وجهات ساحل البحر والبر ليلا ونهارا وكان معه من الأدم فى هذه السفرة ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة فى ورق وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة وكل شخص من معسكره معه رغيف كبير، مرشوق فى طرف حربته يتزود منه ويشرب من سقاءٍ لطيف من صفيح معلق فى عنقه [زمزميه].

وفى يوم السبت حضر عدة من العسكر الفرنساوية من ناحية بلبيس ومعهم عدة من العربان نحو الثلاثين نفراً موثقون بالحبال وأسروا أيضًا عدة من أولادهم ذكوراً وإناثًا ودخلوا بهم إلى مصر يزفونهم بالطبول أمامهم ومعهم أيضاً ثلاثة حمول من حمول التجار وبعض جمال مما كان نهب منهم عند رجوعهم من الحج.

وفى ليلة الاثنين غايته حضر سارى عسكر من ناحية بلبيس إلى مصر ليلا وأحضر معه عدة عربان وعبد الرحمن أباظه أخو سليمان أباظه شيخ العيايدة وخلافه رهاين وضربوا

* ذكرت قصة غرق هذه السفينة فى كوربيه دى ليجيبت العدد ٢٤ ص ٩٢ كالآتى:
وصل أحد القباطنة إلى مرسى الميناء فى وقت هبت فيه عاصفة هوجاء جعلت سفينته تجنح بحيث لم يتيسر مشاهدة شى منها سوى صواريها وكان قادما من ينبع، ولما رأى القبطان أن سفينته غارقة لا محالة، شرع يصيح قايلا أن ذلك أمر الله ولم يحاول اتخاذ أى إجراءات لسحب سفينته إلى بر الأمان.
وعندما رأى ذلك المواطن فالنتين قايد حامية السويس أمر بمده بكل المساعدات الممكنة. وقد توصل البحارة الفرنسيون بعد محاولات جبارة إلى رفع السفينة إلى سطح الماء وانقاذ حمولتها .... ولم يشترك صاحبها فى شى من هذه العمليات وعندما احيط علما بالنتيجة ذهل ولم يصدق القول.

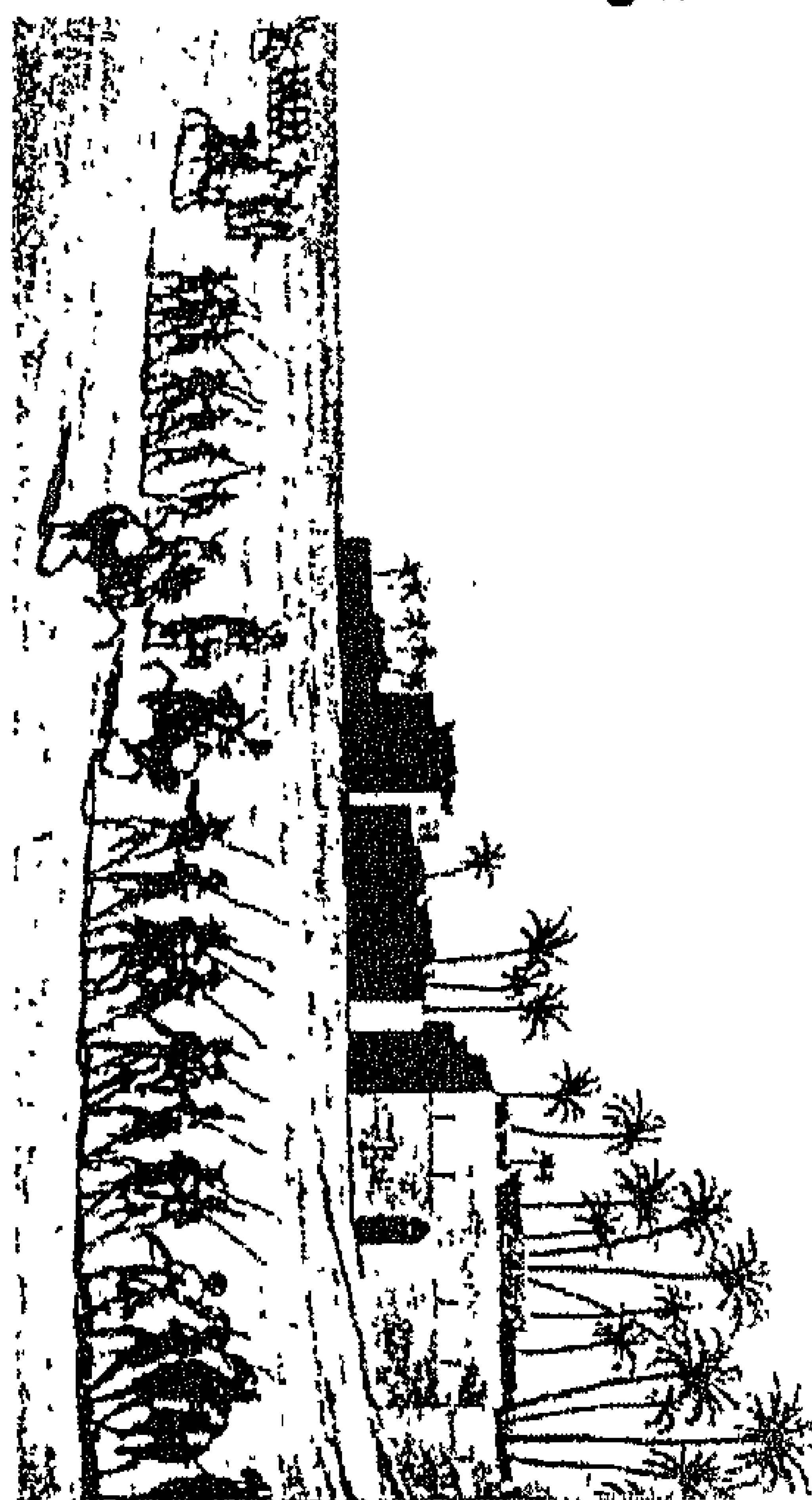
أبو زعبل والمنير وأخذوا مواشيهم وحضروا بهم إلى القاهرة وخلفهم أصحابهم رجالا ونساء وصغاراً.

وفى ذلك اليوم قتلوا شيخ العرب سليمان الشواربى شيخ قليوب ومعه أيضا ثلاثة رجال يقال لهم عرب الشرقية فأنزلوهم من القلعة إلى الرميلة على يد الأغا وقطعوا روسهم وحملوا جثة الشواربى مع رأسه فى تابوت وأخذه أتباعه فى بلدة قليوب ليدفن هناك عند أسلافه وانقضى هذا الشهر وحوادثه الجزئية والكلية.

* انظر بقية تفصيل هذه الحادثة فى الصفحةالتالية.

منها أن فى ليلة السابع والعشرين منه أتت جماعة* [فرنساويه] إلى دار الشيخ محمد بن الجوهرى الكاين بالأزبكية بالقرب من باب الهوا فخلعوا الشباك المطل على البركة، ودخلوا منه وصعدوا إلى أعلى الدار وكان بها ثلاثة من النسا الخدامات وابنة خدامة أيضا وبواب الدار ولم يكن رب الدار بها ولا الحريم بل كانوا قد انتقلوا إلى دار أخرى لما سكن معظم العسكر بالأزبكية فاستيقظ النسا وصرخن فضربوهن وقتلوا منهن امرأة واختفت البنت فى جهة، وعاثوا فى الدار وأخذوا متاعًا ومصاغًا ونزلوا واستيقظ البواب فاختفى خوفا منهم، فلما طلع النهار وشاع الخبر وكان سارى عسكر غايبا فلم يقع كلام فى شأن ذلك، فلما قدم من سفره ركب مشايخ الديوان وأخبروه، فاغتم لذلك وأظهر الغيظ وذم فاعل ذلك لما فيه من العار الذى يلحقه، واهتم فى الفحص عمن فعل ذلك وقتله.

* عسكر فرنساوية فى الطريق إلى بلبيس



ومنها كثرة تعدى القلقات [الشرطة] وتشديدهم على وقود القناديل بالأزقة وهم من أهل البلد، وإذا مروا بالليل

ووجدوا قنديلا أطفاه الهوا أو فرغ زيته سمروا الحانوت أو الدار التى هو عليها ولا يقلعون المسمار حتى يصالحهم صاحبها على ما أحبوه من الدراهم؛ وربما تعمدوا كسر القناديل لأجل ذلك، واتفق أن المطر أطفأ عدة قناديل بسوق أمير الجيوش بسبب كونها فى ظروف من الورق والجريد فابتل الورق وسال الماء فأطفا القناديل فسمروا حوانيت السوق وأصبح أهلها صالحوا عليها، ووقع مثل ذلك فى طرق عديدة، فجمعوا فى ذلك اليوم جملة من الدراهم، وأمثال ذلك، حتى فى الأزقة والعطف الغير النافذة حتى كأن الناس ليس لهم شغل إلا القناديل وتفقد حالها وخصوصاً فى ليل الشتا الطويل.

شهر شعبان المعظم سنة ١٢١٣

استهل بيوم الثلاثا: فيه قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيس وبندقوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قيل إنهم من المتسلقين* على الدور، وفيه أخبر السفار بأن مراد بك ومن معه ترفعوا إلى قبلى ووصلوا إلى عقبة الهوا، وكلما قرب منهم عسكر الفرنساوى انتقلوا وقبّلوا ولقد داخلهم من الفرنساوية خوف شديد، ولم يقع بينهم ملاقاة ولا قتال.

وفيه قدمت رِباعة(*) تحمل البن الذى حضر من السويس بالمركب الداو(*) بصحبة جماعة من الفرنساوية لخفارتها من قطاع الطريق.

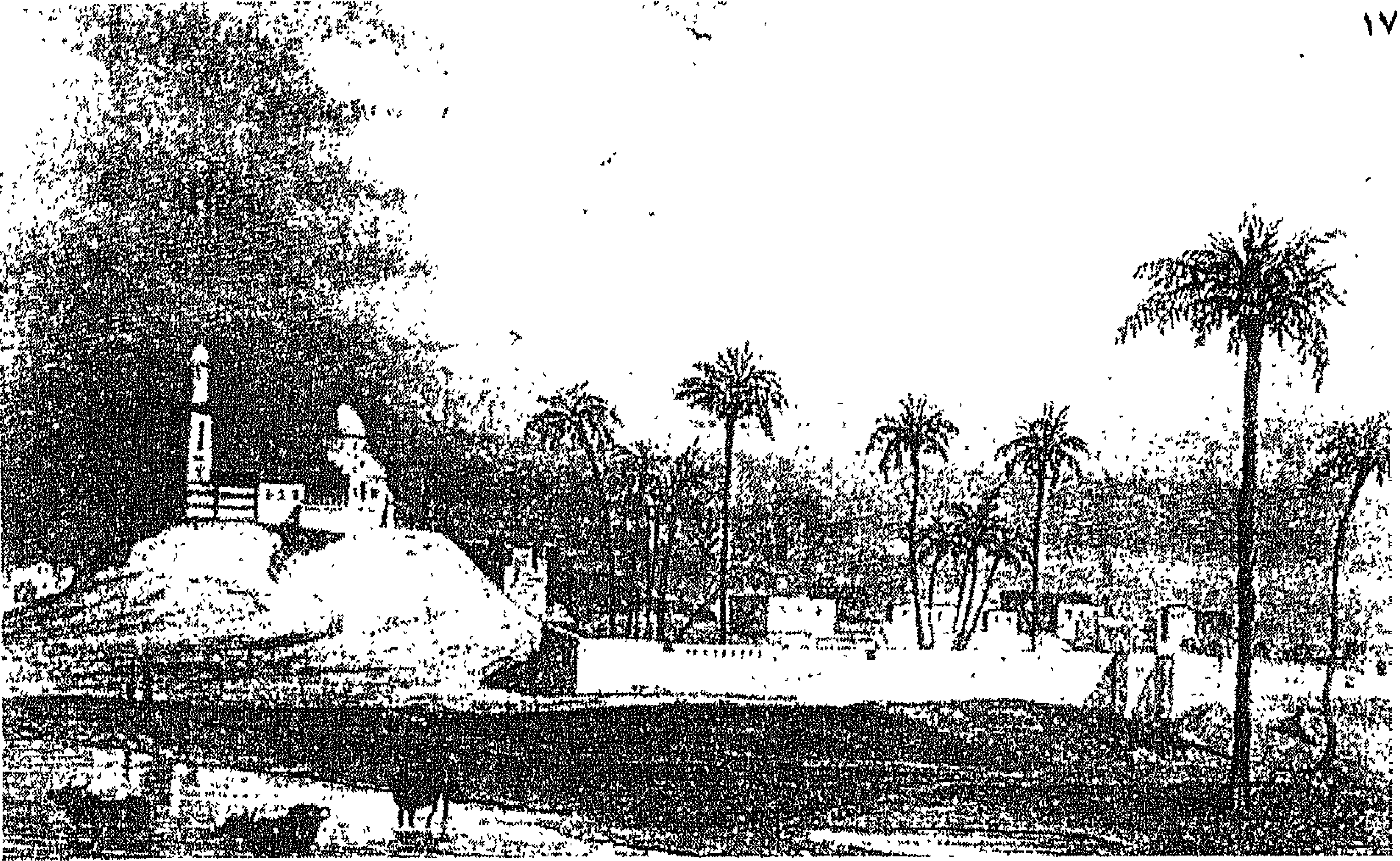
وفى يوم الأحد سادسه نادى القبطان الفرنساوى الساكن بالمشهد الحسينى* على أهل تلك الخطة وما جاورها بفتح

* انظر حادثتهم فى الصفحة السابقة، وتذكر بعض المصادر الفرنسية أن بونابرت اضطرّ إلى إعدام ثلاثة من الجنود دون أن يتأكد من انهم الفاعلين للحادثة حفاظاً على سمعة الجيش الفرنسى.

* رباعة: الرِباع بكسر الراء ما ولد من الإبل فى الربيع والمعنى وصلت إبل تحمل البنّ.

* الداو نوع من السفن. وكانت تسير على الخصوص فى البحر الأحمر، وجمعها داوات.

* مولد الحسين ومنشأه.

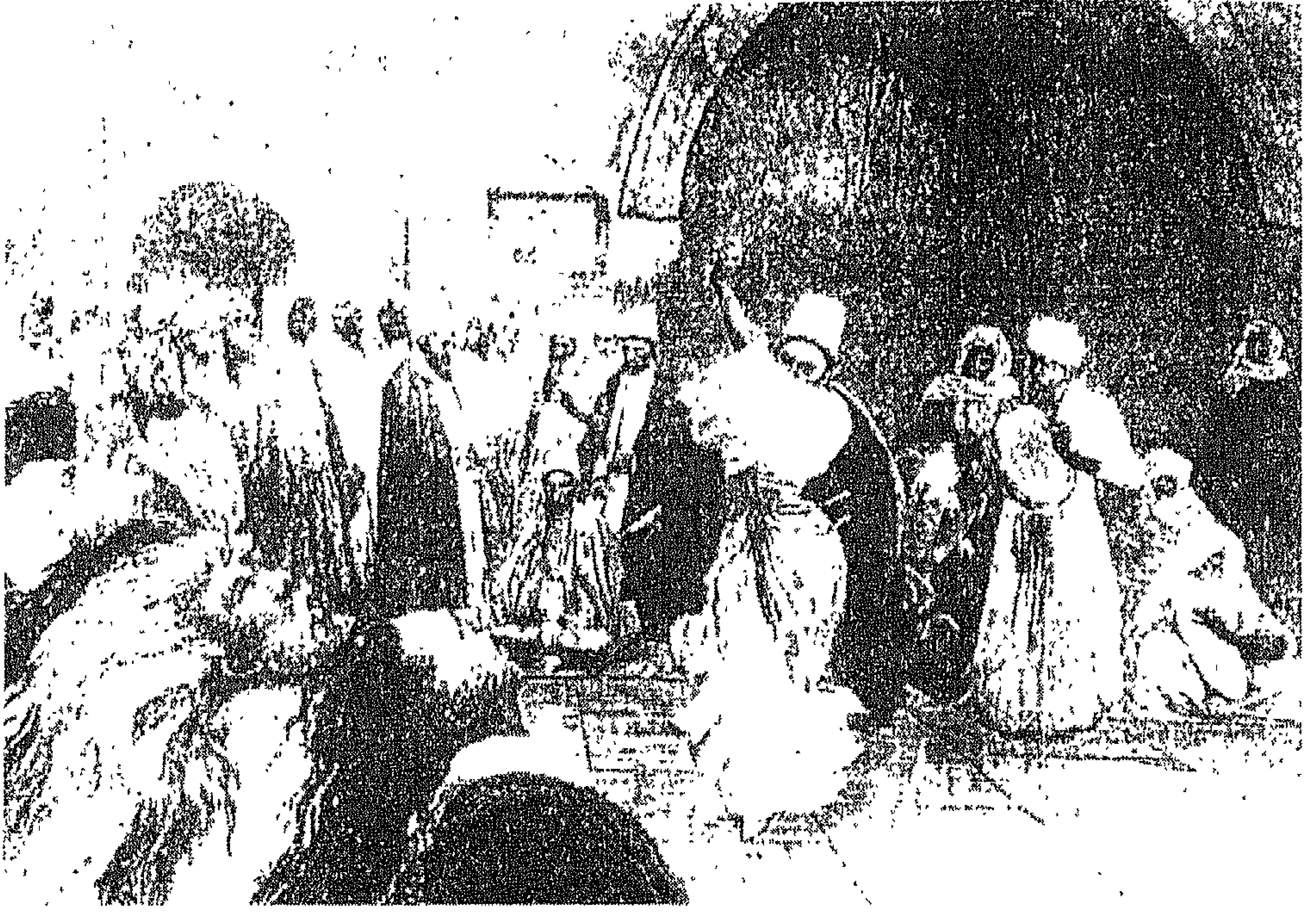


* بلبيس فى وقت الحملة الفرنسية

الحوانيت والأسواق لأجل مولد الحسين وشدد فى ذلك وأوعد من أغلق حانوته بتسميره وتغريمه عشرة ريال فرانسه مكافأة [غرامة] له على ذلك، وكان السبب فى ذلك والأصل فيه أن هذا المولد ابتدعه السيد بدوى ابن فتيح مباشر وقف المشهد، فكان قد اعتراه مرض الحب الإفرنجى* فنذر على نفسه هذا المولد إن شفاه الله تعالى، فحصلت له بعض إفاقة، فابتدا به وأوقد فى المسجد والقبة قناديل وبعض شموع ورتب فقهها يقرون القرآن بالنهار مدارسة، وآخرين بالمسجد يقرون بالليل دلايل الخيرات للجزولى، ثم زاد الحال وانضم إليهم كثير من أهل البدع كجماعة العفيفى والسمان والعربى والعيسوية، فمنهم من يتحلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصايد والموالات، ومنهم من يقول أبياتا من بردة المديح للبوصيرى ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبى.

* [الزهرى أو السيلان] ولقد ظل المصريون حتى وقت قريب يستخدمون هذا الاصطلاح لهذا المرض.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



وأما العيسوية* فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهوا ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدى محمد بن عيسى، وطريقتهم أنهم يجلسون قبالة بعضهم صفين ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على قدر النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم فى أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويلتوون وينتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم، كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزايدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة، وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دوى عظيم وضجات من هولا ومن غيرهم من جماعة الفقرا كل أحد

* اصل الطريقة العيسوية.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

له طريقة وكيفية تباين الأخر، هذا مع ما ينضم إلى ذلك من جمع العوام وتحلقهم بالمسجد للحديث والهذيان وكثرة اللغط والحكايات والأضاحيك والتلفت إلى حسان الغلمان الذين يحضرون للتفرج والسعى خلفهم والافتتان بهم، ورمى قشور اللب والمسكرات والمأكولات فى المسجد وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه وسقاة الما، فيصير المسجد بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق الممتهنة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

ثم زاد الحال على ذلك بقدوم جماعة الأشاير من الحارات البعيدة والقريبة وبين أيديهم مناور القناديل والجوامع العظيمة التى تحملها الرجال والشموع والطبول والزمور، ويتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذِكْر وتوسلات يثابون عليها وينسبون من يلومهم أو يعترضهم إلى الاعتزال والخروج والزندقة وغالبهم السوقة وأهل الحرف السافلة ومن لا يملك قوت ليلته، فتجد أحدهم يجتهد بقوة معينه ويبيع متاعه أو يستدين الجملة من الدراهم ويصرفها فى وقود القناديل وأجرة الطبالة والزمارة وكل يجتمع عليه ما هو من أمثاله من الحرافيش ثم يقطع ليلته تلك سهرانا ويصبح دايخا كسلانا، ويظن أنه بات يتعبد ويذكر ويتهجد.

واستمر هذا المولد أكثر من عشر سنين، ولم يزدد الناذر لذلك إلا مرضا ومقتا، واستجلب خدمة الضريح ما لاح لهم من خساف العقول مثل الشمع والدراهم، واتخذوا ذلك حيالة لأكل أموال الناس بالباطل.

فلما حصلت هذه الحادثة بمصر ترك هذا المولد فى جملة المتروكات، ثم حصلت الفتنة التى حصلت، وسكن هذا الفرنساوى فى خط المشهد الحسينى لضبط تلك الجهة وفيه مسايرة ومداهنة، فصار يظهر المحبة للمسلمين ويلاطفهم ويدخل بيوت الجيران ويقبل شفاعة المتشفعين ويجل الفقها ويعظمهم ويكرمهم وأبطل وقوف عسكره بالسلاح كعادتهم فى غير هذه الجهة، وكذلك منع ما يفعله القلقات من أنواع التشديد على الناس فى مثل القناديل، فاطمأن به أهل الخطة وتراجعوا للبكور إلى الصلاة فى المساجد بعد تخوفهم من العسكر الذى رتب معهم وتركهم التبكير، فلما أنسوا به وعرفوا أخلاقه رجعوا لعادتهم ومشوا بالليل أيضا بدون فزع وخوف وترجمانه على مثل طريقته، وهو رجل شريف من أهل حلب كان أسيرا بمالطة فاستخلصه الفرنسيس فى جملة من استخلصوه من أسرى مالطة وقدم معهم مصر.

فلما أجلس هذا لضبط الخط كان ترجمانه يهوديا فاحتال بعض أعيان الجهة ورتب* هذا الشريف المذكور ليكون فيه راحة للناس ففتح له قهوة بالخط بالقرب من دار مخدومه وجمع الناس للجلوس فيها والسهر حصة من الليل وأمرهم بعدم غلق الحوانيت مقدارا من الليل كعادتهم القديمة فاستأنسوا، بالاجتماعات والتسلى والخلاعات وعم ذلك جهات تلك الخطة، ووافق ذلك هوى العامة لأن أكثرهم مطبوع على المجون والخلاعة وتلك هى طبيعة الفرنساوية، فصاروا يجتمعون عنده للسمر والحديث واللعب والممازحة ويحضر معهم ذلك الضابط ومعه زوجته وهى من أولاد

* أى رتبوا عزل اليهودى ليكون الشريف بدلاً منه ترجماناً للقبطان الفرنسى.

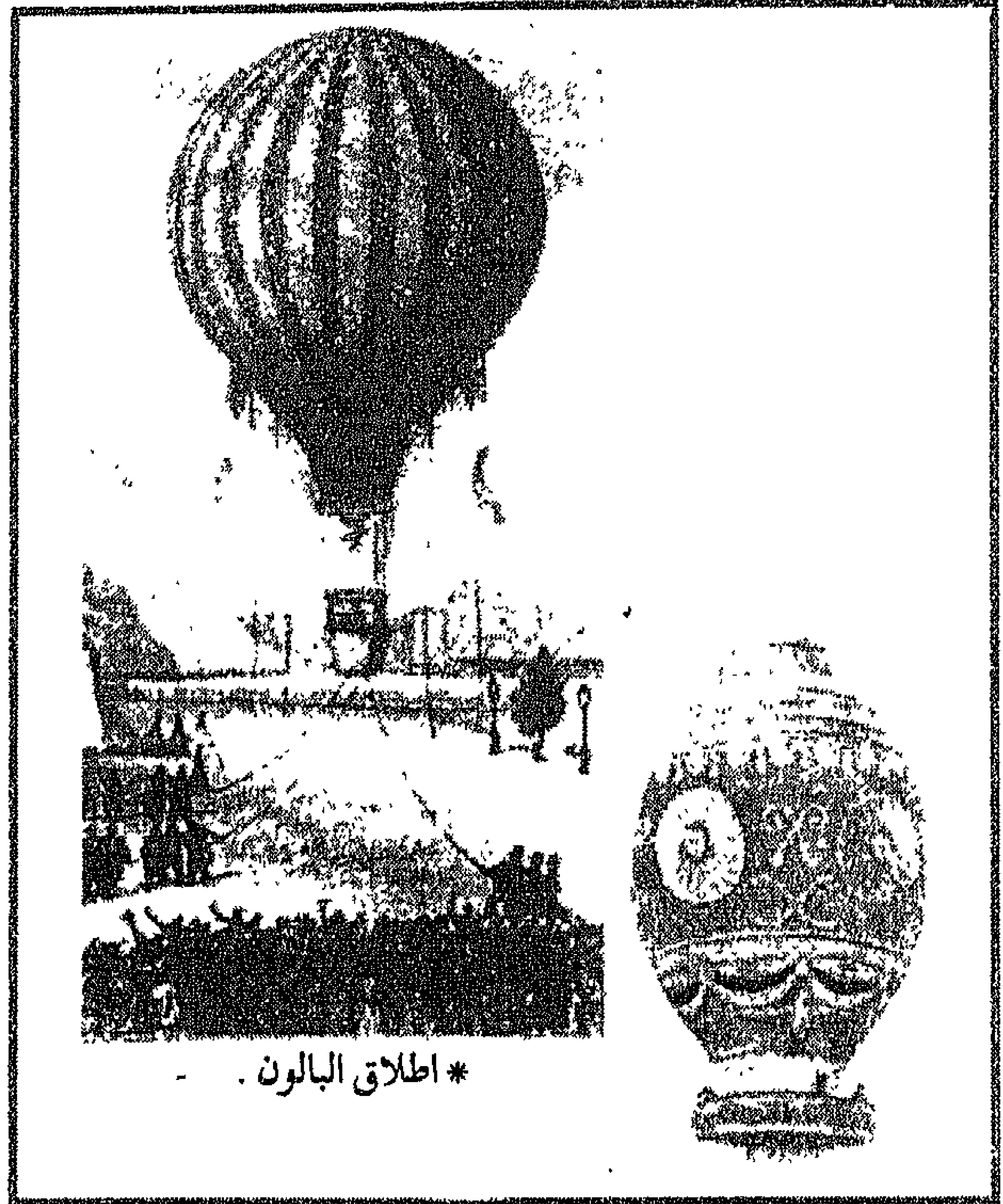


البلد المخلوعين أيضا، فانساق الحديث لذكر هذا المولد الشهرى وما يقع فى لياليه من الجمعيات والمهرجان وحسنوا له إعادته فوافقهم على ذلك وأمر بالمناداة وفتح الحوانيت ووقود القناديل وشدد فى ذلك.

وفى يوم الأربعا كتبوا أوراقا بتطيير طيارة* ببركة الأزبكية مثل التى سبق ذكرها وفسدت، فاجتمعت الناس لذلك وقت الظهر وطيروها وصعدت إلى الأعلى ومرت إلى أن وصلت تلال البرقية وسقطت ولو ساعدها الريح وغابت عن الأعين لتمت الحيلة وقالوا إنها سافرت إلى البلاد البعيدة بزعمهم.

* تجربة فاشلة أخرى للبالون عند بركة الأزبكية.

وفيه سافر الخواجه مجلون إلى الصعيد واليا على جرجا لتحرير البلاد وقبض الأموال والغلال المتأخرة بالنواحى للغز.



* اطلاق البالون .

وفيه سافرت قافلة بها أحمال كثيرة ومواش ونسا إفرنجيات وصناديق قيل إنهم أرسلوها إلى الطور وصحبتهم عدة من العسكر.

وفي يوم الخميس عاشره حضر طايفة من العسكر الفرنساوية إلى وكالة ذى الفقار بالجمالية ففتحوا طبقة كانت لكتخدا على باشا الطرابلسى* وأخذوا ما وجدوه بها من الأمتعة وختموا عدة حواصل وطباق بذلك الخان بالوكالة الجديدة وغيرها للمسافرين والهاربين والقليونجية، وضبطوا ما بها وقبضوا على جماعة من الأتراك والقليونجية التجار وسجنوهم بالقلعة، وصاروا يفتشون على من بقى منهم بالقاهرة وبولاق خصوصاً الكرتليه* الذين كانوا عسكراً لمراد بك.

* على باشا الطرابلسى: هو على باشا برغل الجزايرلى، تمكن فى عام ١٧٩٣ من الاستيلاء على حكم ولاية طرابلسى الغرب من الأسرة القرامانليه ـ ولكن تمكن القرامانليون بمساعدة باى تونس من طرده من ليبيا فى سنة ١٧٩٥ . فهرب إلى مصر وانظم إلى مماليكها ورجع القرامانليون إلى حكم طرابلس.

* الكرتلية: نسبة إلى جزيرة كريت.

وأخذوا الكثير من نصارى الأروام والقليونجية الذين كانوا مع مراد بك وبعضهم كان بمصر فأدخلوهم فى عسكرهم وزيوهم بزيهم وأعطوهم أسلحة وانتظموا فى سلكهم.

وفيه تواترت الأخبار بأن على باشا ونصوح باشا فارقا مراد بك وذهبا من خلف الجبل على الهجن إلى جهة الشام وصحبتهم جماعة إبراهيم بك وكان ذهابهم فى أواخر رجب.

وفيه نادوا بإبطال القناديل التى توقد فى الليل على البيوت والدكاكين وأن يوقدوا عوضها فى وسط السوق مجامع فى كل مجمع أربعة قناديل بين كل مجمع ثلاثون ذراعا ويقوم بذلك الأغنيا دون الفقرا ولا علاقة للقلقات فى ذلك، ففرح بذلك فقرا الناس وانفرجت عنهم هذه الكربة.

وفيه نادوا أيضاً أن كل من كان له دعوى شرعية أو ظلامة فليذهب إلى العلما والقاضى.

وفيه ذهبت طايفة من العسكر وضربوا عرب الكوامل ورجعوا بمنهوباتهم من الغنم والمعز والدجاج والاوز والحمير وغير ذلك.

وفيه حضر رجل من ناحية غزة [بخطاب] يطلب أمانا للست فاطمة زوجة مراد بك ولابنة المرحوم محمد أفندى البكرى وزوجها الأمير ذى الفقار وخشداشينه *والخطاب للشيخ خليل البكرى، فعرض ذلك على سارى عسكر وترجَى عنده فكتب له أمانا بحضورهم وأرسل لهم نفقة، وكان ذلك حيلة منهم لتأتيهم النفقة وبعض الاحتياجات،

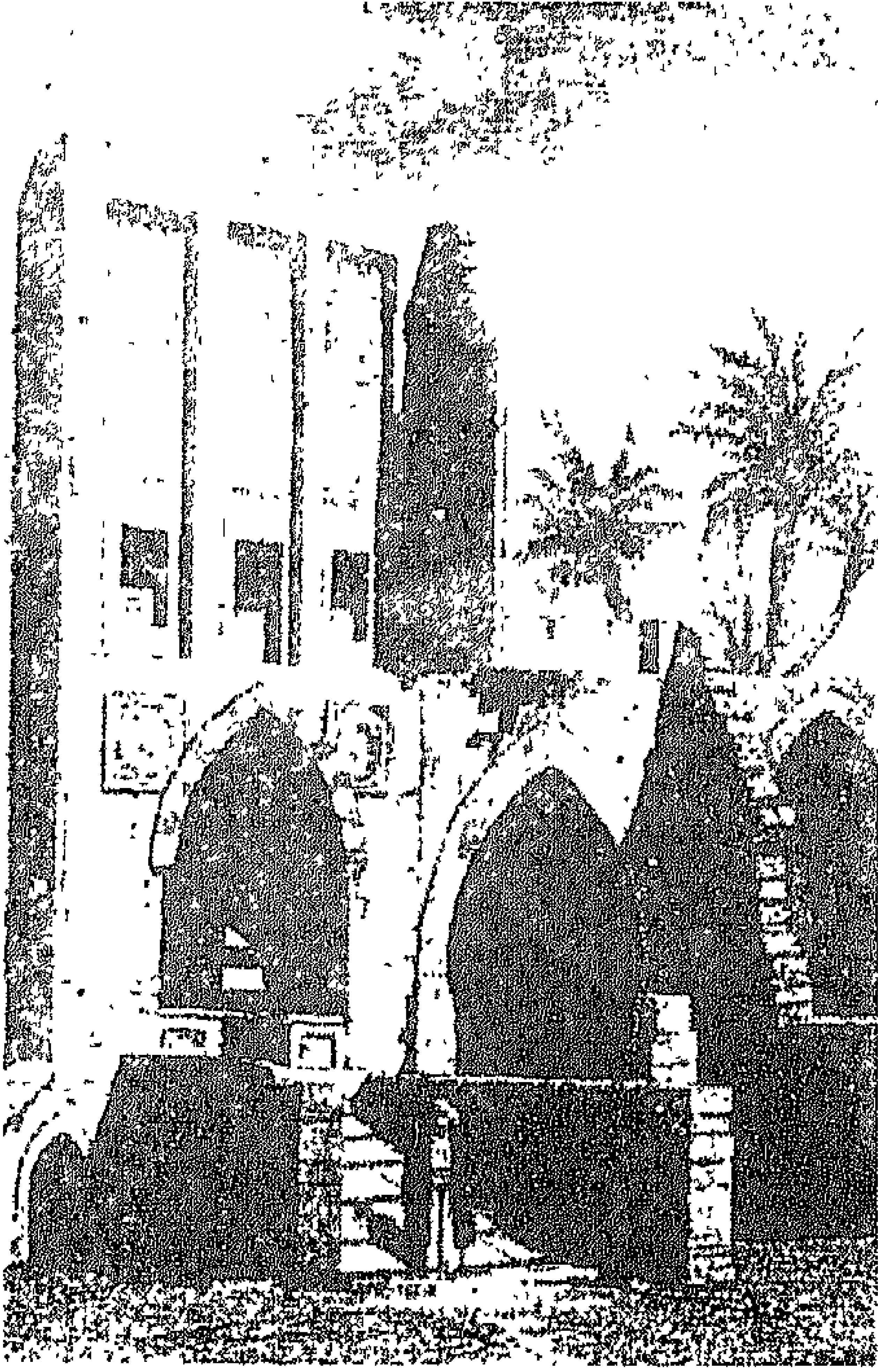
* خشداش: وهى تكتب بصيغ مختلفة مثل خوشداش وخجداش وخوجداش. وهى فى المعجم الفارسى تعنى خواجه تاش ومعناها لغويا هو الشريك فى السيد ونطلق هذه الكلمة بصيغها المختلفة على المملوك ينشأ مع مملوك غيره فى خدمة سيد واحد مشترك فهما مولياه وهما أخوا ولاء له.

وأخبر ذلك الرسول أن عبد الله باشا ابن العظم بغزة وإبراهيم بك ومن معه خارج البلد وهم فى ضيق وحصر وحيز عنهم داخل البلد.

وفيه ذهب عدة من العسكر الفرنساوية إلى قطيا وشرعوا فى بنا أبنية هناك، وأشيع سفر سارى عسكر إلى جهة الشام والإغارة عليها.

(وفى ليلة الأحد ثالث عشر) كان انتقال الشمس لبرج الدلو وهو أول شهر من شهورهم وعملوا تلك الليلة حراقة بارود وسواريخ كما هى عاداتهم عند كل انتقال الشمس من برج إلى برج.

وفى يوم الاثنين رابع عشره. نادى المحتسب على اللحم الضانى بسبعة أنصاف الرطل وكان بثمانية واللحم الجاموسى بخمسة وكان بستة.



* قصر السودان بغزه وقت الحملة الفرنسية.

وفيه ذهبت طايفة من العسكر وضربوا عرب العيايدة نواحى الخانكة وقتلوا منهم طايفة ونهبوهم ووجدوا من منهوبات الناس وأمتعة عسكر الفرنساوية وأسلحتهم جملة، فأخذوا ذلك مع ما أخذوه وأحضروا معهم بعض رجال ونسا جبسوهم بالقلعة.

وفيه ذهب عدة من العسكر إلى صنافير(*) وأجهور الورد وقرنفيل وكفر منصور(*) وبلاد أخرى للتفتيش على العرب، فأخذوا ما وجدوه للعرب من بهايم وغيرها، والذى عصى عليهم ضربوه ونهبوه أيضًا ونهبوا جمالا وبهايم ممن لم يعص أيضًا، ودخلوا بذلك المدينة فصاروا يبيعون البقرة بريالين وثلاثة، والنعجة وابنها بريال، فاشترى غالب ذلك نصارى القبط.

* صنافير وقرنفيل قريتان من قرى مركز قليوب. وأجهور الورد هى أجهور الكبرى من قليوب أيضًا.
* كفر منصور: قرية من مركز بنها. ووجدتها أيضًا فى مركز طوخ قرية أخرى.

وفى يوم السبت قتلوا بالقلعة نحو التسعين نفراً وغالبهم من المماليك الذين وجدوهم هاربين فى البلاد والذين عَسَّ عليهم الخبيث الأغا وبرطلمين والقلقات ووجدوهم مختفين فى البيوت.

وفيه قبضوا على خمسة أنفار من اليهود وامرأتين فألقوا الجميع فى بحر النيل، وفيه نادوا بأن كل من اشترى شيئًا من منهوبات العرب التى نهبتها العسكر يحضره لبيت سارى عسكر.

وفيه كثر الاهتمام والحركة بسفر الفرنسيس إلى جهة الشام وطلبوا وهيئوا جملة من الهجن وأحضروا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط، ثم رسموا على الأهالى عدة كبيرة من الحمير وكذلك عدة من البغال فطلب شيخ الحمارة* وأمر بجمع ذلك، وكذلك الركبدارية، أمرهم بجمع البغال فاختفى غالب أصحاب الحمير وخاف الناس على حميرهم فامتنع خروج السقايين* الذين ينقلون الما بالقرب على الحمير وسقايين الجمال والبراسمية، فحصل للناس ضيق بسبب ذلك.

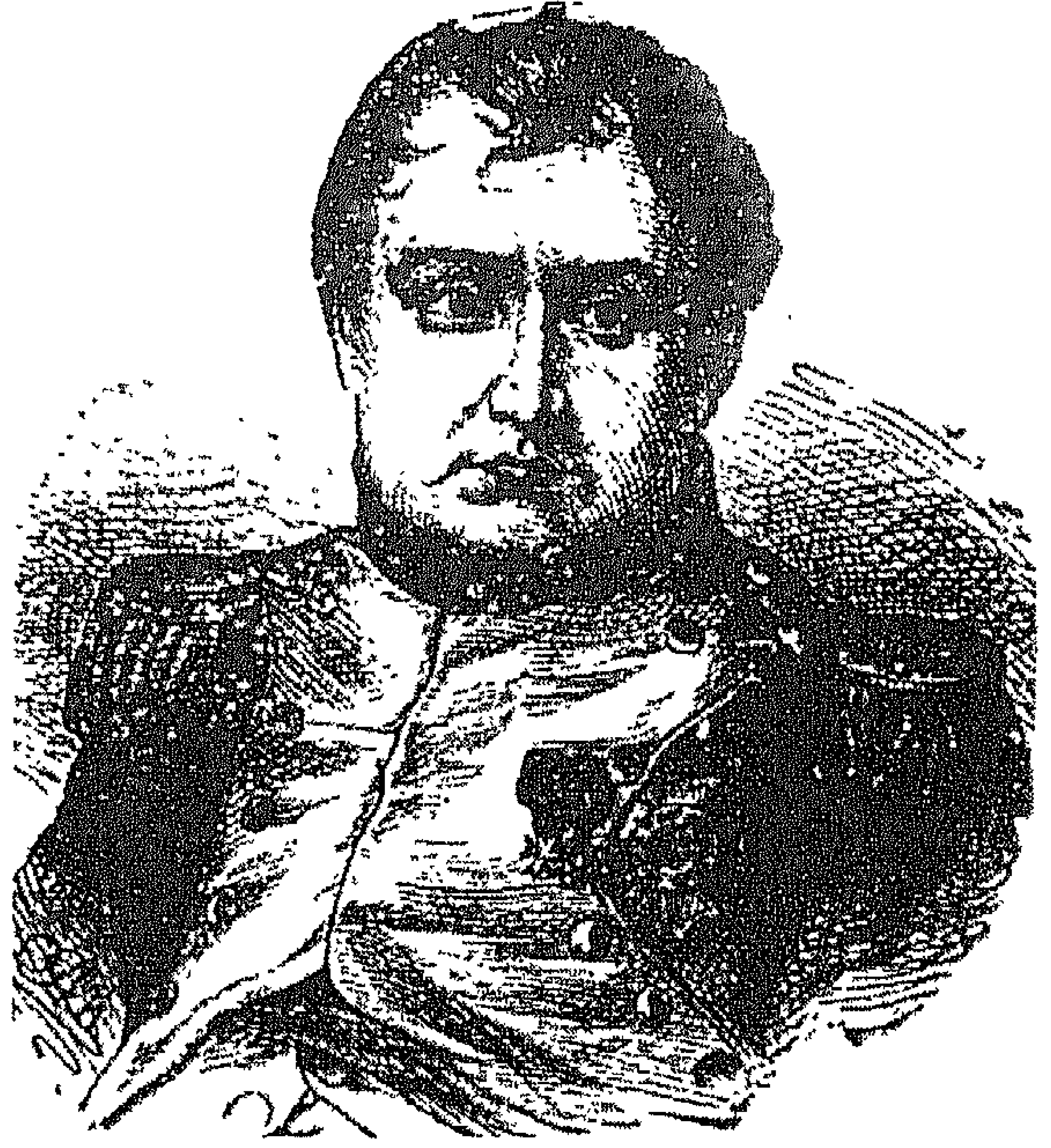
وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كتبوا أوراقا وألصقوها بالأسواق على العادة ونصها:

الحمد لله وحده هذا خطاب إلى جميع أهل مصر من خاص وعام من محفل الديوان الخصوصى من عقلا الأنام علما الإسلام والوجاقات والتجار الفخام، نعلمكم معاشر أهل

* ضرائب على شيخ الحمارة.
* السقايين فى القاهرة*
على مدار القرون العشرة التى انقضت منذ إنشاء القاهرة، وحياة المدينة رهن بالنيل، إذ كانت تعتمد عليه كلية سواء فى الحصول على احتياجاتها المادية (كالمياه النقية والمواد الغذائية)، أو فى مزاولة نشاطها الاقتصادى. وقد ظلت القاهرة تقاسى - وأحيانا بشدة - حتى القرن التاسع عشر، من نتائج التناقض القائم بين ضرورة تكدس سكانها حول النيل، وبين الحاجة للأمن التى تؤدى بالضرورة إلى البحث عن مكان فى منأى عن المخاطر الناجمة عن الفيضانات، أو عن حوادث خروج النهر عن مجراه مع ضرورة توفير احتياجاتها سكانها.
وتاريخ المدينة فى العصور الوسطى شاهد على هذا الصراع الملموس بين الرغبة فى الاقتراب من النهر، وبين الانجذاب نحو الهضبة. ولم يتيسر للمدينة أن تخرج من هذه المعضلة. إلا فى القرن التاسع عشر. بعد أن أمكن تنظيم الفيضانات واصلاح الطرق البرية.
ولم يكن يتهيأ لسكان القاهرة من مصدر للمياه سوى النيل، وفى المنطقة المحصورة بين شاطىء النيل وجبل المقطم. حيث استقرت المدينة وأخذت تنمو وتتطور مع بداية القرن العاشر، كان بإمكان الناس أن يحصلوا على المياه الجوفية، لكن هذه المياه كانت تعتمد اساسا على النيل، كما يبين ذلك تذبذب مستوى منسوبها تبعا لمستوى منسوب النيل، بالإضافة إلى أن هذه المياه كانت قليلة الأهمية من الناحية الغذائية بسبب مذاقها المالح،

---

* فصول عن التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية اندريه ريمون. ترجمة: زهير الشايب روزاليوسف ١٩٧٤ / القاهرة



مصر أن حضرة سارى عسكر الكبير بونابرته أمير الجيوش الفرنساوية صفح الصفح الكلى عن كامل الناس والرعية بسبب ما حصل من أراذل أهل البلد والجعيدية من الفتنة والشر مع العساكر الفرنساوية وعفا عفوا شاملا وأعاد الديوان الخصوصى فى بيت قايد أغا بالأزبكية ورتبه من أربعة عشر شخصا أصحاب معرفة وإتقان خرجوا بالقرعة من ستين رجلا كان انتخبهم بموجب فرمان. وذلك لأجل قضايا حوايج الرعايا وحصول الراحة لأهل مصر من خاص وعام وتنظيمها على أكمل نظام وأحكام كل ذلك من كمال عقله وحسن تدبيره ومزيد حبه بمصر وشفقته على سكانها من صغير القوم قبل كبيره، رتبهم بالمنزل المذكور كل يوم لأجل خلاص المظلوم من الظالم، وقد اقتص من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهرى وقتل

فلم تكن تناسب إلا الغسيل ورش الحدابق، وسقاية الماشية.

ولذلك، فان الآبار المنتشرة فى مختلفة احياء القاهرة وفى القلعة (خصوصا بئر يوسف الشهيرة) وفى المناطق القريبة من المدينة، لم تكن بقادرة إلا على تقديم كمية محدودة من المياه تتضح قيمتها الحقيقية وقت الأزمات، عندما لا يمكن الوصول للنهر لسبب أو لآخر. واصرار الشيخ حسن الحجازى على أن يعيد ويكرر أنه اضطر لشرب المياه المالحة فى عام ١٧١١ ـ تلك السنة المشئومة التى احتدم فيها الصراع بين طائفتى عزبان والانكشارية ـ هذا الإصرار يبين بوضوح انه كان لابد من البحث عن مخرج.

احاطوا بنا وقد منعونا
استقاء من نيلنا أو نصوب
فعطشنا، وماء ملح شربنا
ورمونا بكل ما كان يرعب

وكذلك:

فأحرقوناوأحصرونا
واعطشونا بالمنع قسر
عن نيلنا ثم قد شربنا
ملحا فزاد الكبود حرا

ولهذا كله، فليس من الغريب أن يكون للنيل ولمياهه فى نظر سكان القاهرة صفة شبه دينية، فثمة أعياد موروثة من عصور قديمة، تبين الرابطة الوثيقة بين حياة سكان القاهرة وبين نيلها. والترحيب والسرور بقدوم الفيضان لاحد لهما، لأنه إمارة ازدهار، وعلى العكس من ذلك فانخفاضه لن يجلب للمدينة ولمصر كلها سوى نذر الجفاف ومصايب المجاعات، فمياه النيل إذن تمثل الحياة نفسها. وكان المؤرخ المصرى ابن أبى السرور البكرى ـ ككثير ممن سبقوه يعتبر أن النيل هو اعجوبة مصر الأساسية، كما كان

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



*اجتماع الديوان

منهم اثنين بقراميدان وأنزل طايفة منهم عن مقامهم العالى إلى أدنى مقام [انظر الحادثة ص ١٦٨، ١٦٩] ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيس خصوصاً مع النسا الأرامل، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس.

ووضع القبض بالقلعة على رجل نصرانى مكاس، لأنه بلغه أنه زاد المظالم فى الجمرك بمصر القديمة على الناس، ففعل ذلك بحسن تدبيره ليمتنع غيره من الظلم ومراده رفع الظلم عن كاهل الخلق ويفتح الخليج الموصل من بحر النيل إلى بحر السويس لتخف أجرة الحمل من مصر إلى قطر الحجاز الأفخم، وتحفظ البضايع من اللصوص وقطاع الطريق ونكثر عليهم أسباب التجارة من الهند واليمن وكل فج عميق، فاشتغلوا بأمر دينكم وأسباب دنياكم، واتركوا

يؤكد أن مياه النيل ـ لأنها فريدة فى نوعها ـ تمنح القوة لشاربيها.
ومما لا جدال فيه، فان لمياه النيل، التى تحدث عنها كل المسافرين الأوروبيين تقريبا، ميزات عذائية اكدتها الدراسات العلمية. ولا يعنى لونها أى ضرر، وإذا كانت مياه الفيضان فى الصيف تحوى الكثير من البكتريا، فالخطورة ليست فى طميه. وقد ابدى سكان القاهرة على الدوام الكثير من ضروب الحذق فى تنقية هذه المياه، باللجوء إلى طرق متفاوته الفاعلية، وكان التقويم القبطى يوصى بغلى المياه ابتداء من ١٥ يونيه أما المؤلفون العرب، والرحالة الأوربيون فقد حبذوا استخدام المصافى، كما اوصوا بعدد لا بأس به من المواد التى تجعل المياه صالحة، بالإضافة إلى انها تحسن من مذاقها عند خلطها بها، كالطباشير والخل وكذلك النوى الذى يقال أن من خاصيته أن ينقى المياه العكرة.
ولم يكن بإمكان مؤسس الفسطاط فى القرن السابع، ولا بامكان مؤسس القاهرة فى القرن العاشر أن يتجاهلا الفوايد التى ستعود عليهما من الاقتراب من النيل ولذا فقد بنيت المدينتان على الشاطئ نفسه. ومنذ ذلك الحين، كان على حكام القاهرة وسكانها دوما أن يجابهوا مشكلة جفاف شاطئ النهر الايمن ونقص المياه عنده نتيجة للتراجع المستمر للنهر نحو الغرب فى العصور الوسطى. وعندما انشأ جوهر القاهرة فى عام ٩٦٩، كان حدها الغربى مكان الخليج المصرى، من باب الشعرية إلى باب الفرج وكان النيل فى هذه الفترة يجرى غير بعيد من اسوارها، وكان مجراه يشغل على وجه التقريب مناطق بركة الأزبكية، وبركة الغرابين وقناطر السباع. وفى خلال القرون التى تلت ذلك ظلت حركة النهر ـ



الفتنة والشرور ولا تطيعوا شيطانكم وهواكم، وعليكم بالرضا بقضا الله وحسن الاستقامة لأجل خلاصكم من أسباب العطب والوقوع فى الندامة.

رزقنا الله وإياكم التوفيق والتسليم، ومن كانت له حاجة فليأت إلى الديوان بقلب سليم إلا من كان له دعوى شرعية فليتوجه إلى قاضى العسكر المتولى بمصر المحمية بخط السكرية، والسلام على أفضل الرسل على الدوام.

وفيه أرسلوا للوالى لينبه على السقايين بنقل الماء وعدم التعرض لهم ولحميرهم.

وفى ليلة الأربعا ثالث عشرينه خرجت عدة كبيرة من العسكر وطلب كبير الفرنساوية بونابارته أن يأخذ معه

التى بدأت منذ وفود العرب واستقرارهم ـ مستمرة متميزة بظاهرتين اساسيتين. فمن جهة، شوهد تكوين عدة جزر نتيجة لترسب الطمى وتكدسه. وهذه الجزر لم تكن فى البداية إلا كتلا بسيطة من الرمال لا تظهر إلا وقت انخفاض منسوب المياه، ثم أخذت تتقوى وتثبت حتى اصبحت جزرا حقيقية متفاوتة الثبات (ففى خلال القرن الثامن عشر وكذلك التاسع عشر لوحظ ظهور بعض الجزر، ثم لوحظ انتقالها ثم اختفاؤها تماما). ومن جهة أخرى، فبينما كان الشاطىء الأيسر للنيل يتعرض للتآكل. فان الشاطئ الايمن كان يمتد شيئا فشيئا بسبب تكدس كتل الطمى التى كان النيل يرسبها كل عام. وفى بادىء الأمر، كانت هذه الأراضى الجديدة تبقى غير متماسكة لمدة قصيرة من العام، ثم لا تلبث أن تتماسك حتى يصبح فى الإمكان استغلالها فى اغراض الزراعة والبناء، وقد كان لهذا التكدس المستمر للطمى على الشاطىء الايمن، والضعف المتواصل لفرع النيل الأيسر، بين مصر القديمة والروضة ـ اشد النتائج خطورة بالنسبة للقاهرة.

وإذا اتخذنا من الغزو العربى نقطة بداية، فاننا نلحظ أن ترسب الرمال كان ـ حتى منتصف القرن العاشر ـ بطيئا لحد ما، فيما عدا منطقة الفسطاط، التى كان فرعها فى هذه الفترة قد سد بفعل الرمال، وسرعان ما أصبح ميناء الفسطاط نفسه غير ذى نفع. ومع استمرار المشكلة، انتهى الأمر بفرع الروضة أن اقترب من حالة الجفاف التام فى القرن الثامن عشر.

وفى اقصى القاهرة كان تراجع النيل نحو الغرب شديد الوضوح ففى هذه المنطقة كان ترسب الطمى نشيطا بدرجة غير عادية، فى القرون الثانى

عشر والثالث عشر والرابع عشر، واصبحت المقس، وهي التي كانت لا تزال واقعة على شاطئ النيل فترة حكم الايوبيين ـ ممتلئة تماما بالرمال ولم تعد تلعب دورها كميناء. وعند الموقع الحالي لبولاق، تكونت جزيرة وسط النيل وفي عام ١٤٠٠ كانت هذه الجزيرة متصلة بالشاطئ الايمن. وما لبث شاطئ النيل بعد عدة قرون أن انتقل لمسافة تقرب من كيلو مترين نحو الغرب.

وفي بعض الأحيان، كان هذا الترسب التدريجي المتواصل للطمي يحدث بسرعة ملحوظة كافية لازعاج السلطات الحاكمة، التي كان يقلقها امر امداد المدينة بالمياه الصالحة، والذي كان تقهقر النيل يجعل منه مهمة تتزايد صعوبتها.

وفي عام ٩٤٧ ـ ٩٤٨ هجر المجرى شاطئ مصر القديمة، ووجب على الناس والماشية أن يذهبوا للتزود بالمياه من المجرى الواقع بين الجيزة والروضة ولم تؤد الأعمال التي نفذت في ذلك الحين لنتائج يمكن لها أن تستمر، ففي عامي ١١٩٩ و١٢٠٣ وجد سكان القاهر أنفسهم من جديد مضطرين للجوء إلى فرع الجيزة، وفي عام ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ شعر الملك الكامل بالقلق عندما لاحظ أن المياه لم تعد تصل تقريبا من جهة الروضة ـ مصر القديمة حتى في وقت الفيضان، لذلك فقد امر بإعادة حفر الفرع. وقد ساهم الناس جميعا في هذا العمل المتصل بصالح الجميع، وتم هذا العمل بعد ثلاثة أشهر. لكن ابتداء من عهد خليفة الملك الصالح ١٢٣٨ ـ ١٢٤٩ استوجب الامر أن تستمر هذه الأعمال لإعادة المجرى إلى الشاطئ الشرقي. وفي بداية القرن الرابع عشر كانت فتحة الخليج الناصري، الذي كان يتفرع من النيل على بعد ٥٠٠



الجبرتي/ سنة ١٢١٣م

متر شمال الفتحة ومنذ فترة المقريزى حتى فترة الجبرتى لم يكن الوضع يكاد يتغير: فالشاطىء الشرقى للنيل ابتعد بما يزيد عن كيلو مترين غربى الخليج، وبكيلو متر واحد من حدود المدينة فى القرن الثامن عشر (باب الحديد. باب اللوق. باب الناصرية).

ولم يعد الخليج المصرى الذى كان يخترق وسط المدينة، بقادر على أن يلعب دوره فى تزويد المدينة بالمياه إلا لفترة محددة جدا فى السنة، هى الثلاثة اشهر التى تلى الفيضان بعد قطع السد الطينى الذى كان يغلق فتحته تجاه الروضة. كما أن هذه المياه (المنزوحة من «مستنقعات نتنة» كانت شديدة (السوء) حسبما يقول Thevenot الذى كان يقيم فى القاهرة حوالى عام ١٦٦٠ ومنذ شهر اكتوبر كان الخليج يكف عن التدفق، وتنخفض المياه فيه. فيؤمر بالنداء فى الشوارع بأن على «السقايين» أن يكفوا عن أخذ المياه منه بسبب القاذورات التى تكدست فيه. بل لقد كانت تأتى سنوات. يكون الفيضان فيها ضعيفا جدا لدرجة يكون معها الخليج شبه جاف فى منتصف الصيف، وإن كان ذلك لم يكن ليمنع السقايين من أن يأخذوا منه مياها آسنة ملوثة لم يكن القاهريون يجدون بدا من الرضى بها.

ولقد كان من الممكن علاج الأمر ببناء مشروعات هندسية يمكنها أن تجلب مياه النيل إلى وسط المدينة. لكن غالبية الأعمال التى نفذت من هذا النوع، كان القصد منها خدمة الحكام والملوك فى الاعتبار الأول، وكانت فائدتها لا تعود على الشعب إلا بطريقة غير مباشرة. مثال ذلك مشروع المجرى الكبير (مجرى العيون) الذى بنى على وجه التقريب منذ العهد الطولونى لجلب مياه النيل إلى



* بائع العناب. كان غالباً من السقايين قبل أن يتحول إلى بائع للعناب.

القلعة، ابتداء من مصر القديمة بالقرب من فم الخليج حتى باب القرافة، ومثل هذه المنشئات التى أقيمت لصالح أصحاب السلطة السياسية المقيمين بالقلعة، عانت من اهمال الحكام اثناء الحكم العثمانى وخاصة فى أواخر القرن الثامن عشر. وكان على محمد على أن يعمل منذ بداية عهده على ترميم مجرى القلعة ـ الذى ظل مهملا منذ عدد من السنين ـ لكى يجلب بهذه الطريقة مياها رخيصة السعر، كان سكان الحى يفتقدونها منذ فترة طويلة.

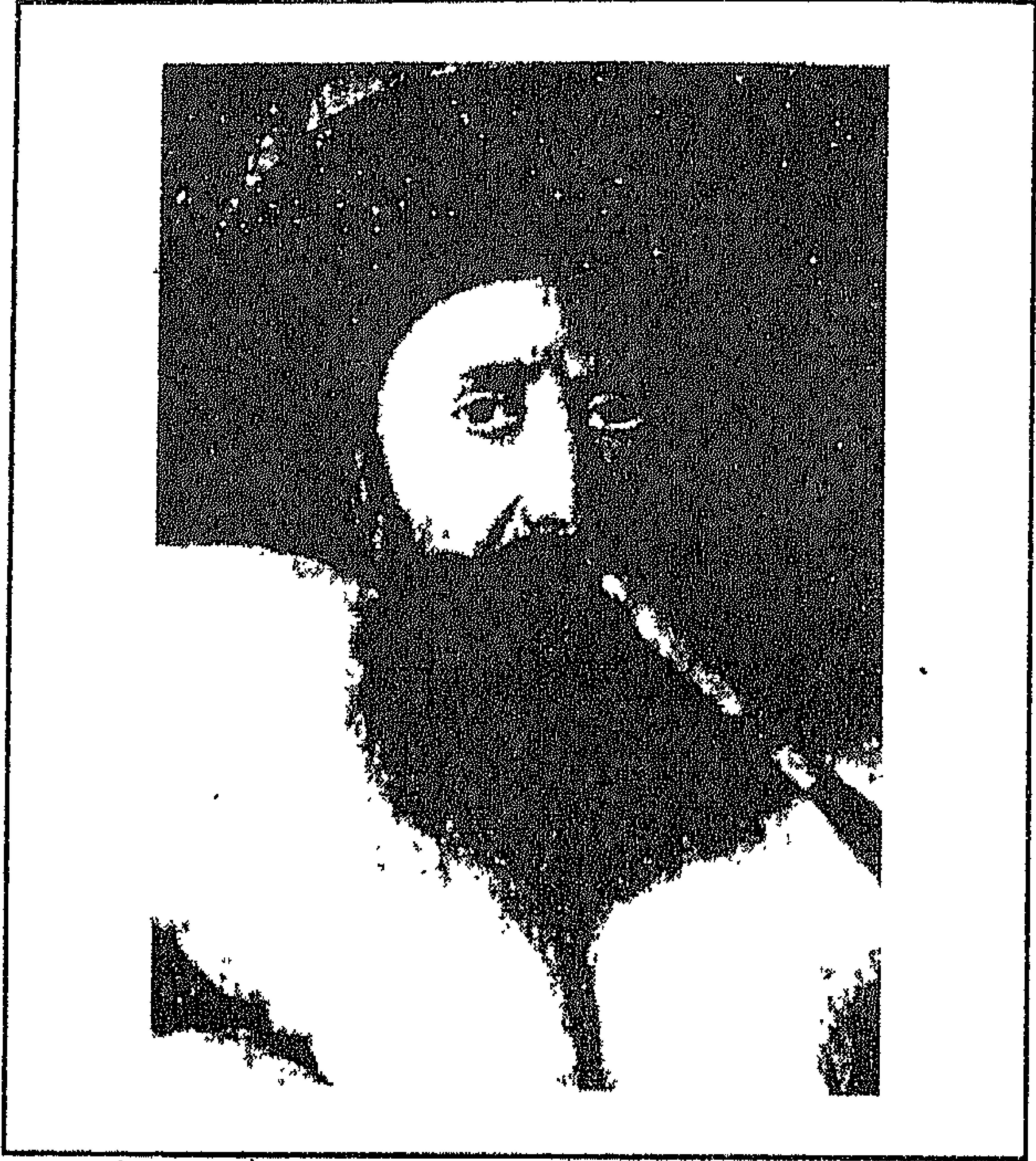
إذن، فقد كان الأمر يستوجب على هذه الكتلة من السكان التى يتراوح عددها بين مائتى ألف وثلاثمائة ألف أن تذهب إلى النيل نفسه لتتزود بالمياه، اللهم إلا إذا كان ثمة تنظيم قوى يستطيع أن يهيىء لها حاجتها من هذه المياه.

* * *

كانت احتياجات القاهرة للمياه كثيرة متعددة. فأولا: هناك الحاجة للمياه النقية اللازمة لاستهلاك سكان المدن سواء داخل بيوتهم أو فى الشوارع. وقد أشار المقريزى وغيره كثير من الرحالة الأوروبيين ـ إلى أن شوارع القاهرة كانت ترش يوميا بالمياه حرصا على نظافتها، وخصوصا لانعاش جو الاسواق وتفادى الاتربة والغبار. وقد كان هناك ـ قبل فترة المقريزى على الاقل ـ أمر من الحكام يلزم أصحاب الحوانيت فى الشارع التجارى الرئيسى فى القاهرة بأن يكون لديهم وتحت تصرفهم دائما جرة مملوة بالمياه، يلجأ إليها كنجدة أولية ضد أى حريق يمكن أن يشب. وهناك أخيرا الحمامات العامة الكثيرة فى القاهرة (حوالى المائة عام ١٨٠٠) والتى تستهلك مقادير كبيرة من المياه بالتأكيد. ولابد أن حركة الذهاب والمجىء التى لا تهدأ لجالبى



* بائع العرقسوس. كان فى الأصل من السقايين ثم تحول إلى بائع للعرقسوس. كان نداءه التقليدى «شفا وخمير يا عرقسوس».



* الشيخ خليل البكرى.

أمير الحاج ويأخذ أيضاً قاضى العسكر بجمقشى زاده وأربعة أنفار من المتعممين وهم الفيومى والصاوى والعريشى والدواخلى وجماعة أيضاً من التجار والوجاقلية ونصارى القبط والشوام.

وفى سادس عشرينه نادوا الناس بالأمان وفتح الأسواق ليلا فى رمضان حكم المعتاد.

وفيه انتقل قايمقام من بيته المطل على بركة الفيل وهو بيت إبراهيم بك الوالى وسكن بيت أيوب بك الكبير المطل على بركة الفيل وانتقلوا جميعهم إلى بركة الأزبكية.

وفيه أعرض حسن أغا محرم المحتسب لسارى عسكر أمر ركوبه المعتاد لإثبات هلال رمضان فرسم له بذلك على

المياه من النيل (السقايين). لابد أن هذه الحركة كانت تثير دهشة الرحالة الأوربيين وتؤدى بهم لتقديرات غير دقيقة، بل ومبالغ فيها دائما ـ عن عدد هؤلاء السقايين. كما أن الأرقام التى أوردها ابن بطوطة (١٢ ألفا يستخدمون الجمال و ٣٠ ألفا يستخدمون البغال) ـ هذه الأرقام هى الأخرى محل مناقشة. وربما كان الأقرب إلى الصواب أن نكتفى بما ذكره de Regny عام ١٨٧٠، إذ قدر عدد السقايين بـ ٣,٨٧٦.

وفى مقابل ذلك، فان الذى لا جدال فيه ـ والذى يهمنا أكثر بطبيعة الحال ـ هو أن مهنة السقاء ـ منذ فترة قديمة جدا ـ كانت منظمة حسب قواعد دقيقة، كما تشهد بذلك الدفاتر السنوية التى حررتها «الحسبة» (مراقبة الأسواق). ودفاتر الحسبة المحررة فيما بين القرن الثانى عشر والرابع عشر تعطى فكرة عن العناية الفائقة التى كان على المحتسب ومساعديه أن يولوا بها تلك المهنة والتى تتأثر بها الصحة العامة تأثرا مباشرا. فقد كان ينبغى على السقايين أن ينزلوا النهر بعيدا عن الشاطىء وعن الأماكن الملوثة لمجاورتها المراحيض أو الحمامات ومساقى الحيوانات. كما كان ممنوعا عليهم ـ مع التهديد بالعقوبات الصارمة ـ أن يخلطوا مياه الآبار بمياه النيل. وكذلك كان عليهم أن يجعلوا قربهم وجرارهم فى حالة نظافة تامة، وأن يتجنبوا استخدام القرب الجديدة لنقل مياه الشرب لانها تجعل طعمها غير مستساغ. وكان من واجب المحتسب أن يلاحظ الأسواق، ولكى لا يضايقوا حركة المرور، فقد كان يطلب إليهم مثلا أن يعلقوا أجراسا صغيرة فى رقاب حيواناتهم لينبهوا الناس باقترابهم، كما كان ينبغى عليهم أن يغطوا قربهم بسعف النخيل حرصا



* الشيخ سليمان الفيومي.

العادة القديمة، فاحتفل لذلك المحتسب احتفالا زايداً وعمل وليمة عظيمة في بيته أربعة أيام أولها السبت وآخرها الثلاثا، دعا في أول يوم العلما والفقها والمشايخ والوجاقلية وغيرهم، وفي ثاني يوم التجار والأعيان، وكذلك ثالث يوم، ورابع يوم دعا أيضًا أكابر الفرنساوية وأصاغرهم، وركب يوم الثلاثا بالأبهة الكاملة زيادة عن العادة وأمامه مشايخ الحرف بطبولهم، وزمورهم، وشق القاهرة على الرسم المعتاد ومر على قايمقام وأمير الحاج وسارى عسكر بونابارته، ثم رجع بعد الغروب إلى بيت القاضي بين القصرين فأثبتوا هلال رمضان ليلة الأربعا، ثم ركب من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير والمناداة بالصوم وخلفه عدة خيالة عارية روسهم

على ملابس المارة من الطين. بل لقد شمل التنظيم أمر ملابسهم، فقد تحتم أن تكون سراويل قصيرة، زرقاء اللون، مفصلة بطريقة لا تخدش الحياء.
وربما كانت الكثرة العددية لطائفة السقايين هي التي أدت سريعا إلى انقسام في هذه الهيئة المهنية يتجاوب مع التخصص الفني للسقائين.
فابن الاخوة (في بداية القرن الرابع عشر) قد ميز بين السقايين الذين يبيعون المياه في قرب من الجلد (أصحاب الروايا والقرب) الذين سبق أن ذكرهم الشيرزاى في القرن الثاني عشر، وبين أولئك الذين يبيعون مياه الشرب في أكواب (سقايين الكيزان) ومهما يكن الامر، فان هذا التميز داخل طائفة السقايين، قد تحقق واقعيا في القرن الثامن عشر. وفي قائمة الطوائف التي نشرها ايفليا افندى في اسطنبول عام ١٦٣٨ ذكر الباحث فيما يختص بالسقايين طائفتين متميزين، «سقايين المدن اصحاب الخيول» (رقم ٨٠) ـ ويصل عددهم إلى ١,٤٠٠ وكانوا ينتسبون إلى سلمان الكوفي. والسقايين المتجولين (رقم ٨١) وهم الذين يحملون قربهم على ظهورهم ويبلغ عددهم ٨٠٠٠ وكان الشيخ الذين ينتسبون إليه هو (أبو الكوثر) وقد أقر كتاب الفتوة هذا التقسيم فيما يختص بمصر في نهاية القرن السابع عشر. وأشار إلى طائفة السقايين (رقم ٤) الذين كانوا ينتسبون ـ كما في قايمة إيفليا افندى ـ إلى سليمان الكوفي، كطائفة منفصلة عن سقايين القرب (السقايين حاملين القرب) والذين كانوا ينتسبون إلى محمد بن عبد الله وهي تذكر تحت رقم ٤٦ في مخطوط ١٣٧٥ وتحت رقم ٥٨ في مخطوط ١٣٧٧.
وشهادة الرحالة الإنجليزي موريسون تلقي بصيصا من الضوء على حقيقة



وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشيع مهول، وانقضى شهر شعبان وحوادثه.

فمنها أن أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها وانكمشوا عن بعضها واحتشموها خوفا من الفرنسيس، فلما تدرجوا فيها وأطلق لهم الفرنساوية القيد ورخصوا لهم وسايروهم رجعوا إليها وانهمكوا فى عمل مواليد الأضرحة التى يرون فرضيتها وأنها قربة تنجيهم بزعمهم من المهالك وتقربهم إلى الله زلفى فى المسالك، فرمحوا فى غفلاتهم مع ما هم فيه من الأسر وكساد غالب البضايع وغلوها وانقطاع الأخبار ومنع الجالب ووقوف الإنكليز فى البحر وشدة حجزهم على الصادر والوارد، حتى غلت أسعار جميع الأصناف المجلوبة من البحر الرومى.

نشاط نظام الطوائف عند السقايين فى القرن السابع عشر. وقد ذكر موريسون ـ وهو الذى عاش فى القاهرة فى عام ١٦٩٧ ـ ١٦٩٨ أن ثمة اختبارا مبدئيا كان يعقد عند التقدم للقبول فى هذه الطائفة المهنية. فلكى يقبل المتقدم، عليه أن يستطيع حمل قربة أو كيس مليء بالرمل، يزن ٦٧ رطلا، لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالى، دون أن يسمح له بالاستناد أو الاتكاء أو الاستراحة أو النوم طيلة هذا الوقت وتفاصيل هذا الاختبار قد تكون محل مناقشة، ولكن مما جدال فيه أن تقاليد مهنية معينة كانت قد تأصلت عند السقايين حتى أن مارتن Germain Martin تمكن من أن يجد آثارا لها فى بداية القرن العشرين.

وفى عصر الجبرتى والحملة الفرنسية ـ أى فى الفترة التى انهارت فيها السيطرة العثمانية على مصر كان النظام الطائفى للسقايين فى القاهرة قد بلغ غاية تطوره، والاتجاه إلى تفتيت وتقسيم هذه الطوائف المتخصصة، والذى لوحظ هنا، والذى ظهر أيضا فى طوائف مهنية أخرى، قد يدل على محاولات لقبول نوع من التميز فى العمل أشد وضوحا، يبدو كقاعدة فى القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقائمة الطوائف المهنية التى نشرها علماء الجيش الفرنسى فى القاهرة عام ١٨٠١ ذكرت ما لا يقل عن ثمانى طوائف للسقايين. وهذه الزيادة فى عدد الطوائف ترتبط من جهة بالحاجة إلى التنظيم الفنى للعمل، ومن جهة أخرى بتوطن السقايين فى إحياء القاهرة. ومثل هذا التعدد ـ فى الحقيقة ـ لا مفر منه، فى حالة طائفة مهنية كبيرة العدد لهذه الدرجة وتغطى منطقة جغرافية شديدة الاتساع.

كانت هناك خمس طوائف تقتسم

السقايين الذين يعبون مياههم من النيل، لينقلوه أما على ظهور الجمال (طائفة فى باب اللوق) وأما على ظهور الحمير (أربع طوائف فى إحياء باب البحر، باب اللوق: حارة السقايين، قناطر السباع)، وتوطن هذه الطوائف فى القسم الغربى من المدينة يرتبط بوضوح بالحرص على الاقتراب ـ ما أمكن ـ من مصدر المياه، الذى أدت حوادث تغيير النهر لمجراه ـ التى تكررت منذ انشاء القاهرة ـ إلى أبعاده عن المدينة بطريقة مزعجة. وعند باب اللوق كانت طائفة السقايين أصحاب الجمال، تعمل بالضبط وسط المدينة عند بداية شارع تحت الربع الكبير. أما الأربع طوائف الأخرى للسقايين أصحاب الحمير، فان توزعها من الشمال إلى الجنوب قد سمح لكل منها أن تغطى قطاعا من قطاعات القاهرة.

وهكذا كان تجوال السقايين لمدة عدة قرون فى منطقة الحدائق الواقعة بين القاهرة والنيل حتى الشاطىء الذى يأخذون منه مياههم. وبين بولاق ومصر القديمة. كانوا يتجولون ساحبين حيواناتهم المحملة بقرب تفوق طاقتها: قرب واسعة من جلد الجاموس (روية) على ظهور الجمال، أو قرب من جلد الماعز فوق ظهور الحمير. لم يتغير فى نشاطهم شىء منذ فترة المقريزى حين وصف السهل الخالى على اليمين عند الخروج من باب زويلة مع الخليج والطريق المؤدى إلى مورد السقايين لم يتغير شىء من هذه الفترة حتى نهاية القرن الثامن عشر ويحدد Niebuhr فى هذه المنطقة نفس الطريق الذى كان يسلكه القاهريون عند ذهابهم لجلب المياه من النيل على ظهور جمالهم.

وقد تأثرت طبوغرافية القاهرة ـ فى هذا الحى بالتحديد تأثرا شديدا بسبب



وانقطع أثر كثير من أرباب الصنايع التى كسدت لعدم طلابها واحتاجوا إلى التكسب بالحرف الدنية كبيع الفطير وقلى السمك وطبخ الأطعمة والمأكولات والأكل فى الدكاكين وإحداث عدة قهاوى وأما أرباب الحرف الدنية الكاسدة فأكثرهم عمل حماراً مكاريا حتى صارت الأزقة خصوصا جهات العسكر مزدحمة بالحمير التى تكرى للتردد فى شوارع مصر فإن للفرنسيس بذلك عناية عظيمة ومغالاة فى الأجرة بحيث إن الكثير منهم يظل طول النهار فوق ظهر الحمار بدون حاجة سوى أن يجرى به مسرعا فى الشارع وكذلك تجتمع الجماعة منهم ويركبون الحمير ويجهدونها فى المشى والإسراع وهم يغنون ويضحكون ويصيحون ويتمسخرون ويشاركهم المكارية فى ذلك، كما

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



* فرقة موسيقية متجولة من الرجال.

أن لهم العناية وبذل الأموال والتردد إلى حانات الراح والتغالى فى شرا الفواكه والبواطى والأقداح: كما قال فى ذلك صاحبنا الشيخ حسن العطار.

إن الفرنسيس قد ضاعت دراهمهم
فى مصرنا بين خمّار وخمّار
وعن قريب لهم فى الشام مهلكة
يضيع لهم فيها آجال أعمار

ومن طبعهم فى الشرب أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس فإن زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم ومن سكر وخرج إلى السوق ووقع منه أمر مخل عاقبوه وعزروه.

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م

ظهور طائفة السقايين فحسبما جاء فى كتاب «وصف مصر» سمى المكان الذى كانوا يسكنونه (كفر الشيخ ريحان) باسم حارة السقايين ـ هذا الاسم الذى بقى حتى نهاية القرن التاسع عشر. أما عن البركة المجاورة فلا يمكن الجزم بصفة قاطعة باسمها. فنحن نتردد طويلا بين تسميتها بركة الناصرية أو بركة السقايين كما تشير إليها خريطة «وصف مصر» وكان الخليج المصرى يغنى عن النيل خلال العدة أشهر التى تلى الفيضان، حيث انه أقرب إلى المدينة مما يمكن السقايين القيام بجولات أكثر مما لو كان يتجه إلى النيل نفسه فى نفس المدة. وممارسة عملية نقل المياه من الخليج تعود لزمن قديم، وسبق أن لاحظنا انها استمرت، حتى عندما أدى انسداد فتحة الخليج إلى تقصير المدة التى تستغل فيها الترعة قصرا ملحوظا وبرغم كل الأوامر الرسمية، فان السقايين لم يكونوا ليترددوا فى العب منه حتى عندما تصبح مياهه ابعد ما تكون عن الاتفاق مع كل الشروط الصحية.

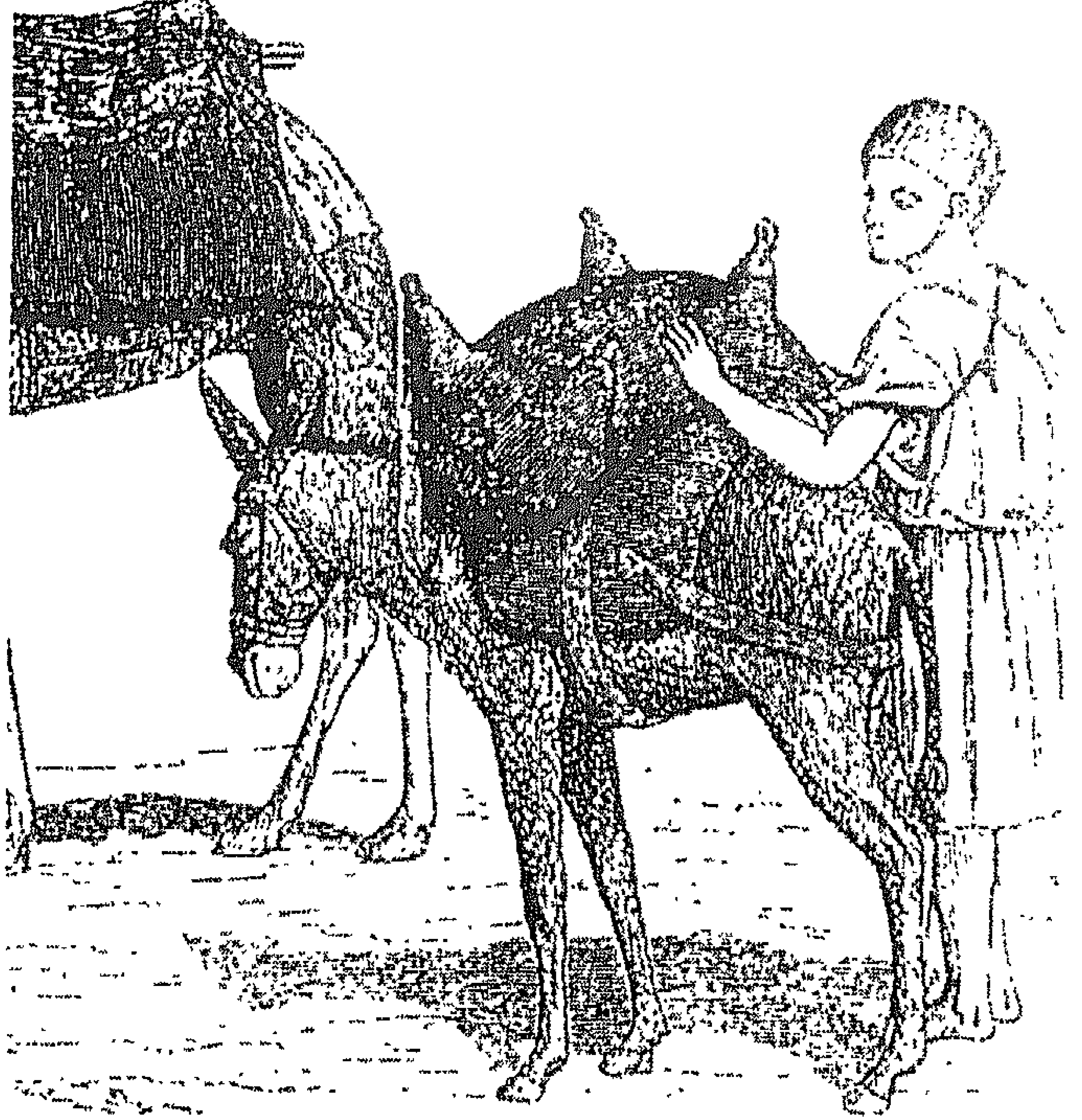
وبعد حصول السقايين على تموينهم من المياه، كانوا يتوجهون إلى عملائهم مع قربهم، التى أصبحت فى القرن التاسع عشر ـ بفعل التقدم ـ مجرد براميل يجرها حصان أو حمار. وعندما كان السقا يصل إلى مقصده، كان يصب المياه فى خزان أو زير عميله. ولكي يحصل السقا ثمن خدماته كان يلجأ إلى عدة وسائل تختلف فى دقتها. فقد كان يكتفى احيانا بأن يسجل على باب (المشترك) خطوطا بعدد القرب التى احضرها له. وأحيانا اخرى كان يستخدم عقودا من الخرز الأزرق، يسحب منها خرزة عن كل قربة يحضرها له. وعندما تنتهى كل خرزات العقد كان السقا يسوى حسابه مع عميله.

ولم تكن كل كميات المياه المأخوذة من النيل تباع مباشرة إلى سكان القاهرة. فجزء كبير منها كان يوضع فى خزانات (سبل) المدينة، حيث يستطيع الفقراء الذين لا يمكنهم شراء المياه من السقايين أن يحصلوا منها على حاجتهم بأنفسهم، وقائمة الجيش الفرنسى تذكر طائفة «لسقايين» الحى المسمى بباب زويلة، ونحن نجهل ما أن كان ثمة طوائف أخرى من هذا النوع فى احياء القاهرة الأخرى، أو ما إن كانت هذه الطائفة ـ التى كانت متوطنة فى وسط المدينة ـ تضم كل «سقايين» خزانات القاهرة (سبلها). وفى عام ١٨٠٦ كان يوجد بالقاهرة وحدها حوالى ٣٠٠ (سبيل)، كان معظمها عبارة عن منشئات خيرية اسسها بعض الامرا والأغنياء لمنفعة السكان. كانت هذه الاسبلة ـ» وهى فى الغالب مبان ذات زخرفات جميلة ـ تضم عادة ثلاثة طوابق فى الطابق الأعلى منها يوجد «كتاب» ـ وهو مدرسة ابتدائية يتعلم فيها الصبيان القراءة والكتابة. أما فى الطابق السفلى (تحت الأرض) فكان ثمة حوض يفرغ فيه جماعة السقايين قربهم التى يحضرونها على ظهور الجمال. وكانت المصاريف تدفع من دخل الوقف الذى اوقفه مؤسس السبيل عليه. وفى مستوى الشارع، اعدت أحواض خارج السبيل تقصدها السيدات ليأخذن ما يلزمهن من المياه مجانا، كما كان هناك أيضا خراطيم ليشرب منها العطشى من المارة. بل لقد كان بعض السقايين أنفسهم، يترددون على هذه «الاسبلة» ليتزودوا بالمياه التى سيبيعونها للمارة «بالقطاعى» وهذا العدد الكبير من السبل الموزعة على احياء القاهرة كان يكفى حتى نهاية القرن التاسع عشر لضمان وجود المياه الصالحة فى متناول الأهالى،



* المعلم جرجس الجوهرى. من اعيان القاهرة.

ومنها ترفع أسافل النصارى من القبط والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيوف بسبب خدمتهم للفرنسيس ومشيهم الخيلا وتجاهرهم بفاحش القول واستذلالهم المسلمين، كل ذلك بما كسبت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد، والحال الحال والمركوز فى الطبع ما زال، والبعض استهوته الشياطين ومرق والعياذ بالله من الدين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.



اللهم إلا إذا حالت الأحداث الخارجية دون تموين هذه السبل. وكان يلحق بهذه الاسبلة احواض جميلة المنظر، خصصت لسقاية الماشية.

أما باعة المياه في الشوارع «بالقطاعي»، فقد كانوا يكونون عام ١٨٠١ الطائفة السابعة من السقايين وقد انتشرت هذه الطائفة في القاهرة ومصر القديمة وبولاق. وهؤلاء الباعة هم بالتأكيد، الذين اثاروا انتباه الرحالة الأوروبيين. فمن ليون الافريقي Leon l'Africain حتى لين Lane يكاد لا يوجد رحالة واحد لم يتحدث عن «السقا شربة» الحامل تحت ابطة قربة من الجلد، ذات خرطوم طويل من النحاس، أو برميلا صغيرا، والذى يعلن عن نفسه بنداء «يعوض الله» . وقد نقل إلينا إيفليا افندى الصيغ الكلامية التى كان من عادة هؤلاء السقايين أن يشكروا بها عملاءهم، جالبين البركة المقدسة على رؤوسهم. وهذه الصيغ هي بعض آيات من القرآن الكريم: ﴿وسقاهم ربهم شرابا طهورا﴾ ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾ ﴿من الماء كل شي حي﴾. وكان دخل هؤلاء الباعة متواضعا جدا، لا يكاد يفى بضرورات حياتهم.

والطائفة الثانية التى تشير إليها قائمة ١٨٠١، أولئك الذين ينقلون المياه غير النقية ولعل مقر هذه الطائفة كان حى قاسم بك. ومن الأرجح أن هؤلاء السقايين كانوا يتزودون بمياه الآبار الملحة المذاق والتى لا تصلح للطعام وإن كانت تصلح لبعض الأغراض المنزلية الأخرى، كما كانت الحال في بئر زويلة الذى استغله بعض السقايين زمن المقريزى، بعد أن كان استغلاله في زمن الفاطميين وقفا على حيوانات اصطبلات وحظائر الخلفاء وقد أدت عملية نقل المياه إلى نشأة وتطور حرف صناعة الآنية والقرب الجلدية والجرار الفخارية التى كانت تستعملها طائفة السقايين. وتوضح قائمة ١٨٠١ أن ثلاث طوائف كانت تقوم بصيانة وبيع وإصلاح القرب. وحسبما ذكر de Regny فقد كان يوجد في القاهرة في عام (١٨٧١) ٨٣٤ صانع فخار، و ١٨٣ تاجر قرب جلدية. ومراكز توطن هذه المهنة له صلة واضحة بمراكز نشاط السقايين. فقد كان الموطن الرئيسى لصناعة القرب الجلدية يوجد جنوبى باب زويلة في العصور الوسطى إحدى مناطق دخول السقايين إلى المدينة، وكان من المنطقى أن تنشأ مثل هذه الحرفة هناك. وقد سمى الحى كله باسم القربية. وكانت المنطقة الرئيسية لبيع القرب تقع بالقرب من حى السقايين نفسه، في سوق القرب. الذى كان يفتح كل أيام الجمع حتى الظهر. وقد ظهرت مصانع لعمل آنية الفخار في الأزبكية غير بعيد عن باب البحر وباب اللوق. على أن جزءا هاما من الآنية الفخارية كان يأتى من خارج القاهرة. وأخيرا، فقد كانت وكالة القرب تقع قريبا من باب النصر.

ولا يمكن أن نختم دراستنا عن نشاط ووظيفة السقايين دون أن نذكر الدور الهام الذى عهد إليهم القيام به من أجل امن المدينة.. ففى فترة غاب فيها أى تنظيم متخصص لمقاومة الحرايق؛ كانت طائفة السقايين في الواقع وطوال القرون الوسطى هم الذين يقومون بدور فرقة من جنود المطافى، متعاونين في ذلك مع طوائف مهنية اخرى. وقد أشار المقريزى إلى أن الوالى كان يقوم بجولات ليلية منتظمة في القاهرة «مع فرقة من جنود الشرطة

الجبرتى/ سنة ١٢١٣م



والسقايين والنجارين والقصارين «الهداديين» أو أولئك الذين كانت مهمتهم مكافحة الحرائق العارضة لكن هذا التنظيم الدوري لم يكن كافيا للوقاية من خطر الحرائق فاستدعاء الوالي للسقايين والنجارين وعمال الأنقاض والقصارين الذين يعملون على عزل المنزل المحترق كان في العادة إجراء كافيا لمنع امتداد الحرائق إلا في الحالات الشاذة، كما حدث في حريق القلعة عام ١٨٢٠، حين كان تدخل السقايين غير مجد بسبب نقص المياه في القاهرة. ويبدو أن الأمور لم تتغير إلا في عام ١٨٣٨ بعد حادث الحريق الذي أتى على جزء من الحي الافرنجي. وفي اثناء هذا الحريق. استدعى الوالي معظم السقايين كما جرت العادة، وعرض عليهم ثمنا مغريا عن كل قربة تنقل إلى مكان الكارثة لكن الترعة والآبار لسوء الحظ كانت شبه جافة. وبعد عدة أيام اهتدى المسئولون اخيرا إلى اللجوء لمضخات الحريق الأربع التي كانت موجودة في بولاق، والتي تم نقلها على ظهر جمل.

كانت جماعة السقايين في القاهرة عنصرا اساسيا من عناصر المظهر الاجتماعي. وبحكم ذهابهم من منزل لآخر ـ كما تقتضي وظيفتهم ـ هيىء لهم أن ينفذوا إلى «أعماق» البيوت حيث السيدات. وربما يكونون ـ لذلك ـ قد لعبوا دورا هاما في نقل الأخبار ونشرها، أو ساهموا بطريقة مباشرة في الحياة اليومية لأهالي القاهرة. وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، قرر الرحالة الأوربيون، الشغوفون بالوقوف على هذا النوع من التفاصيل، أن السقايين كانوا يستخدمون كوسطاء في المغامرات العاطفية التي افترض وجودها في معاقل الحريم. وربما يكونون قد لعبوا دور «رسل الغرام» متنافسين في ذلك مع الحمارين، الذين كانوا ـ هم أيضا ـ على صلة بالعنصر النسائي والذين كانت شهرتهم السيئة في هذا الأمر حقيقة مسجلة. ويذكر المؤلفون الجادون لكتاب وصف مصر أن الأمر كان ينتهي بالسقايين بأن يكونوا ذوي حظ طيب مع السيدات.

أما إذا نظرنا إلى هذه المهنة من الناحية الاقتصادية فاننا نجدها أقل بريقا من غيرها. وكان ثمن المياه يختلف تبعا لوفرتها أو ندرتها. وقد قرر لين E.Lane حوالي عام ١٨٣٠ أن السقا لم يكن يتقاضى مقابل قربة مياه محمولة من بعد يقرب من ثلاثة كيلو مترات أكثر من ١٠ ـ ٢٠ فضة فالمهنة ـ كما هو واضح ـ غير مجزية وخاصة فيما يتعلق ببائعي المياه بالقطاعي ـ وهي بلا شك أكثرها مشقة. ومع ذلك فعلى تواضع دخل السقايين هذا، فانهم لم يستثنوا من الدفع للباشا في العصر العثماني، ولا من دفع العوايد الشخصية (الفردة) في القرن التاسع عشر. ولذا فثمة ما يؤكد أن الوضع الاجتماعي للسقايين لم يكن يحظى بالاحترام فحمار الحكايات ـ الذي كان يعرف ما ينتظره في نهاية حياته ـ كان يشكو قائلا: عندما لا أعود أستطيع الجري، فسوف يغطون ظهري بسرج خشبي ويسلمونني إلى سقا، يجعلني أحمل المياه في القرب أو في الجرار، ويا لها من نهاية حقيرة! كما أن الشاعر الذي كان يشكو ميل الزمن الذي لا علاج له، والذي كان يحزنه تراكم سحب الجهل، كان ينهي نشيده بقوله:

من آجري يومي مثل ليلي في الاسى
فدهري وطرفي أسود ومسهد

وليس أخو مجد طريف وتالد
كمن فى ذراعيه سقاء ومزود

ومع ذلك، فربما كان ينعكس على السقا شىء من الصفة الدينية التى يتخذها ـ عادة ـ جلب المياه فى البلاد الإسلامية .. فقد كان يلعب دورا هاما فى كل المنشآت المخصصة لغاية دينية ومن بين الخدمات التى أخذتها الحكومة على عاتقها كانت عملية جذب المياه فى جنازة الموتى. وقد بلغ ما كان يدفع للسقايين الذين عهد إليهم القيام بهذه المهمة ٧,٨٠٠ بارة كل عام. ولم يكن من العجيب أن نرى السقايين فى فترة الحج يتصدرون موكب المحمل حيث يؤمنون للعطشى من جمهوره مياه الشرب العذبة على حساب المنشئات الخيرية. وقد سبق أن لاحظنا أن لنداءات السقايين على مياههم فى الشوارع طابعا دينيا يؤكد الصبغة الدينية لهذه المهنة. وكان الحمليون (المفرد حملى) الذين يحدثنا عنهم (لين) يجمعون بين هذه المهنة وبين النشاط الدينى، بشكل يبدو فيه الاثنان شيئا واحدا. فقد كان «دراويش» طريقتى الرفاعية أو البيومية ينقلون الجرار الفخارية ويقدمونها للمارة أيام الأعياد الدينية وموالد الأولياء، مقابل مبلغ زهيد. ولهذا السبب وحده، كانوا يستثنون من العوايد الشخصية (الفردة). وكان من المعتاد أن يدفع زوار أضرحة الأولياء لهولاء الحمالين (التسبيل) لكى يوزعوا المياه مجانا على العطشى. كما كان يصرح للحمالين أن يأخذوا مياههم من الأماكن العامة. وقد أوضح لين أن كثيرا من الدراويش الذين انقطعوا تماما للدين (كانوا يسمون: الفقرا) كانوا يتخذون من مهنة السقاية وسيلة لكسب قوتهم. ولابد أن الورع الدينى كان شديدا عند السقايين خاصة. ومن الطريف أن نذكر أن السقايين كانوا ينتسبون لاثنين من الأولياء هما سلمان الكوفى ومحمد بن عبد الله. ومن بين الرؤساء السبعة لطوائف السقايين الذين وصلتنا اسماؤهم، نجد خمسة يحملون نقب (حاج) وهى نسبة كبيرة بدرجة غير عادية. وقد برز من بين السقايين عدة شخصيات دينية لفتت الأنظار. ويذكر السخاوى أن على بن محمد، وهو سقاء وابن سقاء قد توصل لمصافحة الرسول فى المنام، وأنه قد عاش ومات تفوح منه ريحة ذكية ـ ومع ذلك فلم يكن كل السقايين من المسلمين، فحسب قائمة ١٨٠١ كان يدير إحدى الطوائف الثمانى قبطى.

ومن جهة أخرى، فان الاهمية الحقيقية لدور السقايين لم تكن تظهر جلية لسكان القاهرة إلا اثناء الأزمات. ففى فترات الاضطرابات السياسية، كان الأمر يستوجب ـ حتى تحيق الهزيمة بالعدو المتمركز فى القاهرة ـ منع تزويد المدينة بالماء النقى. بقطع السهل الممتد بين المدينة والنيل، وإيقاف نشاط السقايين. وهذا ما حدث عام ١٧١١ أثناء المعارك التى دارت بين طائفتى عزبان والانكشارية عندما ظهرت «استراتيجية حقيقية» للمياه، فقد كان الفريقان يتصارعان لامتلاك منطقة القصر العينى والروضة. ولكى يضطر الباشا طائفة عزبان إلى التسليم، عهد إلى أيوب بك ومحمد بك بمهمة الاستيلاء على جمال وحمير السقايين، وإيقاف وصول المياه إلى المدينة. وعندئذ ارتفع ثمن قربة المياه إلى خمسة فضة، وأعاد خصومهم النظر فى خطتهم. ثم أرسلوا فصيلة من جهة القصر العينى ليستردوا الدواب، ثم عسكروا فى المنطقة التى كانت طائفة السقايين يقصدونها ليأخذوا المياه وهنا جمع محمد بك بعض الهوارة ـ وهم أفراد قبيلة عربية من صعيد مصر كانت متحالفة مع الانكشارية ـ وهاجم العزبان على غرة، واضطرهم للهرب. وكثيرا ما قاسى سكان القاهرة من انقطاع المياه بسبب هذه المشاحنات. وقد سبق أن لاحظنا أن الشيخ حسن الحجازى قد قال فى ذكرى هذه السنة المرة أشعارا عدة. وكان الامر دائما يحدث على هذا النحو فى كل مرة يتعرض فيها الامن للاضطراب، وهذا ما لم يتكرر حدوثه إلا فى نهاية القرن الثامن عشر. وفى اثناء هذه الفترات التى أخذت فيها السيطرة العثمانية تتعرض للاهتزاز، كان على السقايين أن يقاسوا الكثير من عمليات السلب والنهب التى امتدت حتى الضواحى القريبة من مشارف القاهرة. وفى حوادث النزاع والصراع التى بدأت تدور بين الامراء والجنود والباشوات، كانت طائفة السقايين بجمالهم وحميرهم فريسة سهلة للمتحاربين. وقد لجأ الفرنسيون ـ كذلك ـ أثناء حملتهم على سوريا إلى إجراء مماثل، إذ جندوا فى خدمتهم دواب السقايين، وهنا كف معظم السقايين الذين تعلموا بما فيه الكفاية من التجارب السابقة، عن الخروج والذهاب إلى النيل مسببين بذلك متاعب جمة لشعب القاهرة. وفى عام ١٨٠٦ لجأ محمد على إلى اجراء شبيه بما فعله بونابرت. ولذلك، فعندما بدأ الجنود فى العام التالى يستولون على الجمال والحمير والبغال بحجة وضع القاهرة فى حالة دفاع، لجأت طائفة السقايين ـ الذين أصبحوا ـ أكثر حذرا ـ إلى سلاح الإضراب، حتى أصبحت المياه فى القاهرة نادرة باهظة الثمن.

* حركة الشيخ الكيلانى والقضاء عليها.
* معارك الوجه القبلى.

ومنها تواتر الأخبار من ابتدا شهر رجب بأن رجلا مغربيا يقال له الشيخ الكيلانى كان مجاوراً بمكة والمدينة والطايف فلما وردت أخبار الفرنسيس إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وضجوا بالحرم وجردوا الكعبة، وإن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرا بالحرم كتابا مولفا فى معنى ذلك فاتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستماية من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه.



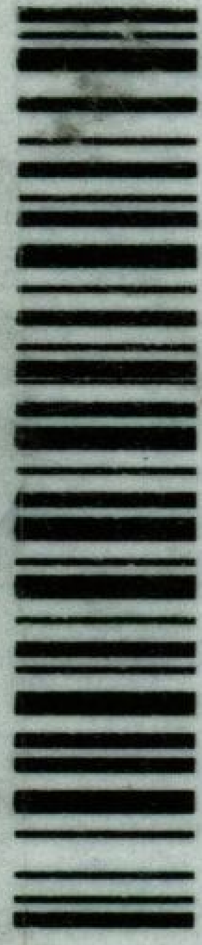
* لم يعلن الشريف غالب شريف مكة الجهاد ضد الفرنسيين لكنه فى نفس الوقت لم يستطع منع العشاير الأخرى من الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين. ووجدت دعوة الكيلانى صدى واسعاً بين سكان الحجاز ويذكر هنرى لورنس أن عدد المتطوعين الذين تدفقوا على موانى البحر الأحمر- أكثر من خمسة آلاف رجل وهو رقم ضخم قياسا إلى سكان الإقليم.

فورد الخبر فى أواخره أنه انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة ممن كان خرج معهم مع غز مصر عند وقعة إنبابة، وركب الغز معهم أيضاً وحاربوا الفرنسيس فلم تثبت الغز كعادتهم وانهزموا وتبعهم هوارة الصعيد المتجمعة من القرى وثبت الحجازيون ثم انكفوا لقلتهم وذلك بناحية جرجا وهرب الغز والمماليك إلى ناحية إسنا وصحبتهم حسن بك الجداوى وعثمان بك حسن تابعه.

ووقع بين أهل الحجاز والفرنسيس بعض حروب غير هذه المرة بعدة مواضع وينفصل الفريقان بدون طايل*.

ومنها أن الفرنسيس عملوا كرنتيله * بجزية بولاق وبنوا هناك بنا فيحجزون بها القادمين من السُّفَّر أياما معدودة كل جهة من الجهات القبلية والبحرية بحسبها، والله أعلم.

* كرنتيله: هى من الكلمة الإيطالية Quarantina بمعنى أربعين، وكان الوارد من خارج البلاد من المسافرين الذين يشتبه فى مرضهم يحجزون فى الحجر الصحى أربعين يومًا حتى تثبت سلامتهم من الأمراض الوبائية


Bibliotheca Alexandrina
1240081